صالح عوض

معركة الإسلام والصليبية في الجزائر

الزيتونة للإعلام والنشر

نشيد :

قافلتهم تنهض من جديد تبث الأمل والدم .. وتوزع الابتسامات والياسمين .. يعودون هذا الصباح (أمير) و (إمام) و (فرسان) ..

اِفسحوا لهم الشوارع والبيوت المنكوبة .. تروهم يخرجون من خوابي القمح والماء .. يتقدمون .. يتقدمون نحو الانحناءات العظمى فيلغون معادلة الطغيان والظالمين .. يثبتون على الدرب بقية من دمهم فيشتعل المجد مشاعل ..

اصمتوا أيها الفقراء الطيبون قليلًا .. اقتربوا قليلًا من خرير الدم .. واهتفوا : يا زمن المذابح والمجازر دُلنا على سبب النصر أهو السيف أم الدم ؟ .. إنه الدم .. الدم المنتصب كالمارد يرد الأشرار ويدحر الغزوة عن الأطفال والشمس.

يا شهداءنا أيها الأحباب عودوا هذا الصباح .. عودوا الى منازلكم واحملوا الحلواء لأطفالكم الذين شبُّوا على فواصل الدم .. أطفالكم ينتظرونكم كل صبح .. يكبرون فيكبر الحلم .. فتأتون ليكبر الانتصار .. عودوا أيها الأحباب فالمواقد لم تنطفِىء .. والخيل تدك الأرض وما توقفت عن التحمحم لحظة .. وسيوفكم لم تصدأ بعد.

أما أنتم أيها الفقراء .. أيها المسلمون الطيبون فرويدًا رويدًا .. لا تتزاحموا انهم يكرهون الضجيج .. واسمحوا قليلا لعواطفكم أن تزف دموع الفرح .. وتمترسوا على بدايات الطرق فإنهم سيمرون .. تمر قافلتهم .. حيُّوهم فردًا

الإهداء

أحيانًا يكون البحث عن المجهول دربًا للبحث عن الذات .. وعن الموجود .. إليك أهدي هذا الكتاب أيها المجهول الساكن في .. أنت أيها العربي بن مهيدي كم أحسست أني أقاسمك غرفتك الصغيرة في حي القصبة بالجزائر .. أو زنزانتك الأخيرة .. آهٍ كم ينصب في روحي التعب كله وأنا أحس بآلة البطش والجريمة تمزق جلدك وأنت تكرر : (إن جلدي يأبى أن يخون شعبه ووطنه ..) فأصرخ في جهات الكون : المجد لك والعار لأعدائك .. وهذا الكتاب يا سيدي ليس سوى هذه الصرخة أهديها إليك ..

محبك الوفي
صالح عوض
الجزائر في 16 أبريل 1989

بين يدي :

معركة الاسلام والصليبية في الجزائر من سنة 1830 الى سنة 1962

سألني الباحث أن أقدم لكتابه وقد ضاقت عليّ الدنيا بما رحبت وادلهم الخطب وعَزَّ الرجاء واسودّ الأمل فلا يبصر المرء في المتيهة المهلكة، ولا سيما حين يؤتى من مأمنه. وتلكأت أيامًا معدوداتٍ ولكني ملكتُ أن أطامن من رُوعي بِشِقِّ النفس في خاتمة المطاف؛ وأنَّى لي أن لا ألبي نداء من يعزّ عليّ أن أفارقه وقد قلّ الصَّحْبُ وندر الصديقُ وبان الرفيق ؟!.

ما أحيلى مَسَارَ الحركة التاريخية في الجزائر ولا سيما حين يكون المرء رهين المحبسين! ما أعذب الترحال بين بليدة الورود وجزائر البحر وقُسَنْطِينِيَّة ووهران وتلمسان وبجاية وقلعة بني حماد والأوراس ومنطقة البربر العليا ومنطقة البربر الدنيا وبني هلالٍ وبني سليمٍ ! وما ألذ صعود الجبال والهضاب العليا والتلال وهبوطَ السهول والأودية وانسياب الرمال السُّمْر والبحار ! وما أجملَ وجوهَ الأمير عبد القادر الحسني وأحمد باي وشيوخ الطرق الصوفية يمتطون صهوات الجياد، وينادون للجهاد، فتردد أصداءَهم البلاد، وينفر الناس خفافًا وثقالًا بانقياد ! ووجهُ ابن باديس النضر، أثمة وجهً أنضر منه ؟!...

والأحلى من كل أولئك أن يكون حادي الركب من أبناء فلسطين الأبرار وإن قالت العرب : «أهل مكة أدرى بشعابها». إن قومنا من الكتّاب رسما لنا

نحن ها هنا في الجزائر لسنا في حاجةٍ إلى أن نفتعل نزاعًا بين التصوف والسلفية، على نسق النزاع في المشرق العربي الشقيق. قد يجد النزاع هناك ما يسوِّغه، فوحدة الوجود لدى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي والشاعر الحلاج بتعبيرهما الصارخ عنها تصدم نفس المسلم وفكره وحسه. ولئن ارتضاها بعضُ الخواصّ فلن يرتضيها العوامُّ. ولا نظن أن شعبنا يعتنقها أو يرتضيها. والتصوف عندنا إن هو إلا زهدٌ وسلوكٌ روحيٌّ يتجلى في أورادٍ مأثورةٍ من القرآن والسنّة ينظمها الشيوخ ويتلوها العوام المريدون في مجالس أو حضراتٍ للذكر. والمسألةُ أمست مسألةً تاريخيةً عفا عليها الزمن، فلا حاجة إلى إيقاظها.

وأيًّا ما كان الأمر فحركة عبد الحميد بن باديس فعلت فعلها في المشاعر الجماعية وهيأت التربة النفسية الاجتماعية لقبول بذورِ إسلامٍ في ثوبه التاريخي ونطاقه الاجتماعي الثقافي ولا سيما بعد إن أنكسرت الأغلال والقيود سنة 1962 فانفتحت الجزائر على المجتمع العربي الاسلامي بالتعاون الثقافي والأسفار والرحلات وقوافل التجارة وتمَّ الوصال والتواصل باللسان العربي المبين وبملتقيات الفكر الاسلامي وبوسائل الاعلام وغيرها.

وفي خاتمة المطاف لا بد أن نطرح مسائل تحوم في نفوسنا وتلح علينا في الاجابة :

ما هي وِجهة الاسلام في الجزائر ؟!

إلى أين تمضي الجزائر ؟! وفي أيّ مسارٍ ؟!

ولئن كانت فكرةُ التسيير والثورة قادرةً على الحلِّ في رأينا فلِمَ لَمْ توفّقْ في التجربة ؟!.

هل استطاع الاسلام في الجزائر أن يهجر الدوار والمشتاة والدسكرة إلى القرية والحاضرة ؟!.

وهل إسلام الفتية والناشئة والشباب قادر على أن ينطلق من عقال النطاق الاجتماعي الثقافي إلى صيغةٍ عقائديةٍ عالميةٍ قادرةٍ على تحطيم الأبنية النفسية العقلية لدى فئةٍ كثيرةٍ من الآباء وفئةٍ قليلةٍ من المتعلمين يبغونها عِوَجًا ؟!.

الإجابة تتولاها الأيّام.

جزائر البحر، الحادي عشر من أفريل (نيسان) 1989

عزة محمدي

المقدمة

في النصف الثاني من شهر يونيو (حزيران) 1830 بدأ تنفيذ مشروع حملة عسكرية على الجزائر على اعتبار أنها ستحقق حلًا لكل المشكلات التي تواجه عجلة التقدم الاقتصادي والرفاه الاجتماعي في فرنسا والتي كادت تعصف بمستقبل الاستقرار الداخلي الناجم عن الانقلابات المتتالية في جهاز الحكم. وعلى اعتبار أن هذه الحملة ستضع حدًا للمطالب الجزائرية المتكررة بتعويضات مستحقة على فرنسا ... وستحسم السيطرة على موقع استراتيجي هام ضمن تخطيط ميزان القوى الدولي حيث صراع النفوذ وقوانينه يومذاك.

فكان لا بد لهذه العملية الضخمة والخطيرة في آن واحد من دافع عقائدي .. وهذا ما كان يجري التحريض على أساسه — بالفعل — حيث بلغ التحريض الصليبي ذروته ليس في فرنسا فحسب بل في كامل أوروبا التي تكرست معاركها مع الجزائر في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر وأصبح إنهاء حالة التمرد الجزائري على النسق الغربي إرادة دولية .. لذا كانت الحملة الفرنسية على الجزائر حملة غربية صليبية بقيادة فرنسا شعارها : «إعادة أرض الجزائر بالانجيل لينبعث من هناك إلى أرجاء افريقيا» ونحو هذا الهدف تمت عملية تعبوية شاملة للمجتمع الفرنسي بل للشعوب الأوربية التي أسهمت إلى حدٍ كبير في إنشاء نظام (الكولون) المعمرين الذين نزعوا الأراضي من الفلاحين الأصليين واستوطنوها بالقوة والقهر .. وهكذا فقد كان قادة الحملة التاريخيون من أمثال (بيجو) و (لافيجري) و (تاليران) و (دانريمون) وغيرهم قادة صليبيين بكل ما يكن تعريف الصليبية السياسية به.

وفي أوائل شهر يوليو (تموز) 1962 خرج شعب الجزائر الى الساحات والميادين العامة تغصُّ به الشوارع نساؤه تزغرد وشبابه يلوحون بقبضات أيديهم في السماء وحناجرهم بلا سابق إشعار تتفق في لحظة عفوية مع حركة التاريخ وقوانين الصراع وسننه لتهتف على لسانٍ واحد : «يا محمد مبروك عليك الجزائر رجعت ليك».

من أواخر شهر يوليو (حزيران) 1830 إلى أوائل شهر يوليو (تموز) 1962 استمرت الحرب شرسة وشاملة على كل المستويات كرًا وفرًا .. شهدت ألوانًا من الصراع الحضاري بين مجتمعين مختلفين بل بين نموذجين مختلفين : نموذج يمثل الشرق بعقيدته وقيمه وشبكة علاقاته الاجتماعية وتراثه و (ضعفه) الراهن ونموذج يمثل الغرب بطبيعته ومنهجه ومطامحه وأساليبه وهيمنته الراهنة.

اتضحت في المعركة طبيعة الغرب وعلى أية أرضية تتشكل مشاريعه وصيغ حلوله لمشكلاته وبأية منهجية تنتظم مجموعة أفكاره .. وانكشفت في المعركة كل أبعاد الصراع وطبيعته وكيف توظف الوسائل وتنبثق الأساليب من جنس طبيعة الصراع وجوهره.

وكان جليا أن هذه الحرب ليست حرب فرنسا على الجزائر إنما هي حرب صليبية أسهمت فيها أوروبا بدعمها المادي والمعنوي كلما وجدت للدعم ضرورة .. حرب صليبية نفذتها فرنسا ضد موقع استراتيجي من مواقع العالم الاسلامي لزحزحة الهيمنة الاسلامية وفرض الهيمنة الغربية على افريقيا وشمالها .. هذا هو الاطار العام لهذه الحملة التي ستحقق بالتأكيد كل الأهداف الاقتصادية لتحصيل حاصل .. فكانت هذه الحرب تواصلا للحروب الصليبية وإن تغيرت لغة الخطاب السياسي المرافق لها.

إنّ المعركة معركة حضارية بكل أبعاد المصطلح .. وإن الانتصار الغربي العسكري على الجزائر إنما هو انتصار حضاري بالتأكيد .. معنى ذلك أنّ التقدم العلمي الغربي والعقيدة الصليبية الغربية والمطامع الاقتصادية وحسن حشد الطاقات البشرية كل هذا استطاع أن يثبت ولو إلى حين قدرته على تحطيم كيان الأمة وتفتيت أبنيتها الثقافية والاقتصادية والسياسية رغم أنها أمة تمتلك رصيد العقيدة الخيرة المعجزة ورصيد التاريخ والتجربة وتمتلك أدوات ومواد أساسية كافية تمامًا لاستمرار تواصل السياق التاريخي وذلك لأن هذه الأمة كانت في جميع أقطارها تتجه إلى نهاية دورتها الحضارية الأولى وما تعنيه هذه النهاية من تراخٍ ووهن وانشغال بقضايا جانية وجزئية وعدم تنبه للمخاطر الخارجية ومخططات الغرب .. أي أن منهج الأمة منهج توحيد الشهادة بالغيب .. المنهج المحرض دومًا ضد الطغيان والعدوان والتجزئة انحسرت دائرة فاعليته حتى من إدارة ديار المسلمين كتتويج لتركيز السلطة بشكل وراثي تبنى عليه المصالح العامة والمؤسسات المتعددة في ديار الاسلام مما سمح لمنهج الغرب منهج الطغيان والعدوان والتجزئة أن يهجم على الأمة محققًا ــ ولفترة ما ــ انتصارًا عسكريًا أعقبه انتصارات على عدة مستويات : ثقافيًا حيث أرهقت الحملة الفرنسية مؤسسة الأمة الثقافة تفريغًا أو احتواءً أو إلغاء وكان لطابور المستشرقين القساوسة (الآباء البيض) الدور الرئيسي في صياغة برامج الالحاق الثقافي أو التدمير الثقافي .. وقامت الحملة الفرنسية بإلحاق جميع المؤسسات التي أنشأتها أو صوَّرتها في البلاد المستعمرة بالوطن (الأم) ــ فرنسا ــ وتميز في الوضع الاجتماعي فئتين: فئة مستعمَرة منهوبة مستلبة منهكة متخلفة فقيرة بل معدمة لكنها مع كل ذلك متميزة عن النمط الغربي وترفض حالة التقليد وتتشبث بالقليل القليل المتبقي من هويتها وثقافتها .. وفئة مستعمِرة تمتلك الأرض انتزاعًا وسطوةً وتمتلك قنوات التجارة بعد أن كبلت التجارة المحلية (التجار الجزائريين) وتمتلك

الوسائل والمواد الأساسية احتكارًا بعد أن حطمت الصناعة المحلية .. وبين هذين النموذجين ظهرت شريحة اجتماعية صغيرة استطاعت ثقافة المستعمِر التقاطها وتدريبها وتلقينها بأفكار الغرب، ورتبت الثقافة الاستعمارية لهذه الشريحة نمط حياة معينة وأنشأت لها منهجًا في التلقي والتفكير والتعامل وعرفت هذه الشريحة باسم (النخبة).

وحاولت النخبة لفترة طويلة اتخاذ موقع الوسط بين النموذج المستعمَر الرافض لمحاولات التذويب والاحتواء والنموذج المستعمِر المحاول بكل الوسائل تفتيت الحالة المقاومة بتدمير بواعثها العقائدية وتشويه رموزها التاريخية واغراقها في معارك وهمية .. فمرة بدا وكأن هذه النخبة رسول المجموع لدى الحالة الاستعمارية ومرة العكس تمامًا إنها رسول الاستعمار تتكلم بلسان يفهمه المجموع بمنطق تبريري وبحجج الواقعية السياسية وبأساليب أنشئت لديها ضمن إطار المدرسة الثقافية التغريبية التي لا توجد الا حالة القبول بالأمر الواقع وما يستلزمها من منطق تبريري.

واتضحت في المعركة كم هي شرسة ولا إنسانية هذه الحضارة الغربية التي استهدفت تدمير كل مقومات الانسان — في الجزائر — الثقافية والاجتماعية .. وكشفت المعركة بين فرنسا والجزائر عن طبيعة هذه الحضارة العدوانية والهمجية والعنصرية ..

مما يؤكد بأنها (حضارة) الاعتداء والفتك وإنتاج وتطوير وسائل الاعتداء والفتك .. فلقد صبّت من الظلم على أهل الجزائر (مجازر وإبادة وتدميرًا) ما لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يحصى .. هذا كله على جبهة الغرب وفرنسا.

أما على جبهة الأمة فاتضحت في هذه المعركة طبيعة أمتنا وهنا لا بد أن نشير إلى أن البحث لم يبذل ما تستحقه هذه المسألة الهامة وإن كان قد

حاول أن يقول أن هذه الجولة التي خاضتها الأمة في الجزائر ضد الصليبية ممثلة برأس حربتها الحملة الفرنسية انما هي امتداد طبيعي للحروب السابقة التي لم تضع أوزارها بعد .. ولذ فان الأمة في الجزائر تحركت بدوافع التحرك الطبيعي لها في كل معاركها السابقة .. دوافع العقيدة والجهاد.

وما يهمني هنا وبشكل أساسي هو رصد حالة تطور الكفاح وما هي العوامل التي ساعدت على تطوره من جهة وكيف تشكلت حالة التماسك بين الارادة والوعي والفعل في مشروع المقاومة الثقافية والاجتماعية والسياسية التي ستمرت مائة وثلاثين عاما من جهة أخرى .. وكذلك كشف البواعث الأساسية في تماسك الارادة بالوعي المتمثل في أخطر قرار تخذته الأمة في هذا القرن — أي بعد سقوط الخلافة العثمانية — قرار ثورة الشعب الجزائري في فاتح نوفمبر 1954.

وكما أن الانتصار الفرنسي أو بمعنى أصح وأدق غلبة فرنسا على الجزائر تصنف تحت عنوان المعارك الحضارية فإن الثورة الجزائر ثورة نوفمبر 1954 لا تصنف الا تحت العنوان نفسه فهي ثورة عقيدة وحضارة وأمة تجمّع لديها قرارها رغم كل جراحها وآلامها .. ثورة أمة اكتشفت ذاتها وبواعث نهضتها فثارت على كل أركان تكبيلها .. وهي بذلك — ثورة نوفمبر — انتصار ليس للجزائر فحسب بل لكل الأمة الاسلامية وهي في اعتبار للارادة والوعي الاسلاميين في مواجهة الهجمة الغربية وهي إذ ذاك تعبير لانتصار الانسان وإرادته في مواجهة اللاإنسانية والعنصرية والهمجية التي تسلحت بها الحضارة الغربية .. وهنا قد يكون واضحًا أي مدًى من الفداحة بلغته جريمة الكتاب الغربيين والمستغربيين عندما حاولوا أن يفرغوا هذه المعركة التاريخية من محتواها العقائدي وذلك بعزلها عن سياق كفاح الأمة التاريخي أو بقطع

التواصل بينها وبين انتمائها الحضاري المتميز قصد حصرها داخل حدود جغرافية مصطنعة وخوف أن تمتد اشعاعاتها الى خارج الحدود حيث كانت أجزاء الأمة بحاجة ماسة الى استيعاب الدرس الجزائري لاسيما في المشرق العربي .. وحيث كان لا بدّ لهذا الانتصار أن يكون قاعدة لتحرير المغرب العربي وشمال افريقيا المسلمة ووحدتهما ويكون اذ ذاك كما أراد له القادة التاريخيون الذين بعثوا الأمة في الجزائر وأشعلوا لها فتيل الثورة ..

* * *

لقد كانت المقاومة الجزائرية منذ أن وطئت أقدام أول جندي فرنسي أرض الجزائر الى سنة 1954 ميدانًا للتنامي الفكري والتنوع وتعدد الرؤى وإن كان البعد الاسلامي محركًا لها جميعًا .. والذي خضع أيضًا لقانون التنامي والتعميق، فمن مفاهيم صوفية أخلاقية بسيطة ــ مع عظيم دورها التاريخي في سني الكفاح الأولى ــ إلى مفاهيم تجديدية فكرية عميقة لها نظراتها الفلسفية والاجتماعية والسياسية التي تحتكم الى الايمان العميق والوعي الدقيق كما كان واضحًا في سينها الأخيرة.

لقد كانت مقاومة الحالة الأجنبية تتم على كل المستويات وإن أخذت أشكالًا متنوعة وفق المراحل التاريخية المتلاحقة فمن مقاومة مسلحة استمرت سبعين عامًا الى مقاومة سياسية وثورة ثقافية استمرت خمسين عامًا .. إلى ثورة شاملة ــ ولدت من رحم الثورة الثقافية والمقاومة السياسية وبرصيد المقاومة المسلحة ــ استمرت بضع سنين قلعت خلالها الوجود الاستعماري من كل الجزائر .. أي يمكن القول بشكل أكثر وضوحًا أن الوعي الجمعي والفعل الجمعي قد نضجت خياراتها الحضارية بشكل قطعي وتحددت

أساليبها ووسائلهما بشكل دقيق على أرضية الذات الحضارية المستقلة والمتميزة وعلى أرضية الوعي بطبيعة العدو وأساليبه وجوهر الصراع معه.

ولئن كانت الثورة الثقافية وتجديد الذات الحضارية التي قام بها الامام ابن باديس والبشير الابراهيمي والطيب العقبي والعربي التبسي وأخوتهم العلماء في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لئن كانت هذه الثورة تعتبر ــ بحق ــ أخطر مراحل تصدي الأمة للهجمة الحضارية في الجزائر اذ كان المشروع الغربي في هذه المرحلة يقضي بإلغاء الانسان الجزائري لغة ودينًا وهوية .. وهي بداية أخذ زمام مبادرة الصراع بيد الأمة في الجزائر .. فإنّ البحث لم يستطع أن يعطي هذه المرحلة من الحجم والشواهد الا ما يسمح بالحديث أن يغطي ما سبق وما يلحق من جهة؛ وما خطط ونفذ أو كان قيد التنفيذ في سلم مراحل أولويات المشروع الغربي من جهة أخرى .. ولهذا فالاسف عميق على هذا التقصير ولكن يهديء الروع ما يوجد للامام والجمعية في نفوس شعب الجزائر المسلم من مكانة رغم محاولة الـتغريبيين.

لقد قرأت مقالًا في مجلة (البديل) لكاتب لبناني (ناصري) يقول فيه : «أن الشيخ البشير الابراهيمي عادى ثورة نوفمبر هو وجمعية العلماء المسلمين واستمرا في عدائهما لها من أول يوم للثورة».. يبدو أن الكاتب لا يعرف شيئًا عن تاريخ الكفاح الجزائري .. ولم يحط خبرًا بتاريخ جمعية العلماء المجاهدة والتي كانت هي الخط الأول في جهاد الشعب ومقاومته لكل عمليات الاذابة والادماج والالحاق .. إنّ العلماء المسلمين في الجزائر نفضوا غبار التخلف بأسس العلم وطاردوا الخرافة بالحقيقة فأيقظوا الأمة من سبات؛ وحددوا لها معالم شخصيتها الحضارية المتميزة بحكمة وعلم وفي تنفيذ هذه المهمة عادت اللغة العربية رشيقة جميلة ومجالًا للتنافس والاكرام وانكشف الميدان عن أدباء وشعراء من الطراز الأول.

* * *

وجاءت ليلة الاثنين فاتح نوفمبر 1954 مكثفة الارادة الحضارية التي قاومت الاستعمار مائة وأربعة وعشرين عامًا .. ومكثفة الوعي بطبيعة المعركة وبجبهة الاعداء والوعي في اكتشاف الحلقة المركزية في الصراع .. ومكثفة الفعل المبني على العلم بضرورة المعركة الشاملة ضد الهجمة الشاملة .. فكانت ساعة الصفر انطلاقًا بكل أولئك.

وكشفت الثورة الجزائرية في سنواتها القليلة كم كان الغرب جاهلًا وعاجزًا عن تقدير دور الباعث العقائدي لدي الشرق .. فظن أنه بجهده وبما أوتي من قوة مدعومًا بالارادة الدولية يمكنه أن يسحق الثورة ويقتلعها .. لكن الثورة التي أودعت صدر الشعب وحددت قوانينها نتيجة تجارب تاريخية عديدة ومليئة بالنماذج المتنوعة من الصراع والتي وضعت نفسها ضمن سياق كفاح الامة التاريخي ضد الصليبية لا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن تنهزم وان أصرت الارادة الدولية على ذلك «إن تنصروا الله ينصركم» «إن ينصركم الله فلا غالب لكم».

وبالفعل كسرت الامة ــ كعادتها دومًا ــ طوق الارادة الدولية والاجماع العالمي الذي كان منسجمًا مع وضع الجزائر جزءًا تابعًا لا يتجزأ من فرنسا .. وبفعل حضاري يشبه المعجزة أرجعت الجزائر إلي عمق الذاكرة العربية والاسلامية كجزء هام واستراتيجي من مشروع الأمة في مواجهة مشروع الغرب : .. وسنوات الثورة القليلة مليئة بالقوانين الاساسية والسمات العامة لمعاركنا التاريخية .. ومليئة بملايين المشاهد والصور الرائعة التي لم تكن الا في تلك الملاحم التاريخية العقائدية (بدر) و (اليرموك) .. وفي هذه السنوات تجلت قدرات عظيمة وتكشفت طاقات مخبوءة وانفرز جيل من القادة التاريخيين : (بن مهيدي) (مصطفى بن بولعيد) (العربي التبسي) و (عميروش) و (زيروت يوسف) .. والقافلة الكريمة .. جيل من الروّاد العظام الذين لا يتكررون الا في الملاحم التاريخية النادرة .. هذا الجيل الذي حقق النقلة النوعية البعيدة والشبه مستحيلة الذي أعطى بسلوكه تصورًا واضحًا لكيفية التحام الوعي بالارادة وترجمة ذلك الى سلوك ميداني يومي .. جيل لم يتلق دروسًا في منهجية التحليل أو التخصصات التاريخية والانسانية والعلمية في احدى جامعات الغرب أو الجامعات التابعة للغرب .. إنما تلقى الدروس من واقع الكفاح والمأساة الناجمة عن الهجمة الصليبية .. من عمق آلام الناس وأحاسيسهم .. جيل الروّاد هذا ما حفظ سوى القرآن وسيرة النبي .. جيل الروّاد هذا لم تختلط عليه المنابع .. قوانينه من تاريخ الأمة الجهادي وقوة ثورته مستمدة من وعي الأمة وارادتها .. من بن مهيدي هذا الناسك

الزاهد قاريء القرآن قائم الليل كأنه أحد أهل التصوف حسب وصف والده الى مصطفى بن بوالعيد هذا الرجل المتفاني الذي يأتي أن تفر مجموعته من السجن بعد أن تمكنوا من ايجاد طريق للفرار قبل أن يصلي بمجموعته ركعتين شكرًا لله .. وزيروت يوسف الذي يقضي ساعات ليله مهمومًا مسألة أمه عن سبب ذلك فيجيبها «أن كلمات ابن باديس لم تترك لي وقتًا للراحة» وعميروش إمام المسجد ومعلم القرآن. والعربي التبسي شيخ المجاهدين في الجزائر ومرجع الافتاء في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .. إلى آخر آلاف الشواهد الجهادية التي كانت تقتدي بعقبة بن نافع وخالد بن الوليد سيف الله المسلول وصلاح الدين الأيوبي .. فكانت كلمة السر للثورة عقبة ــ خالد وكان الهتاف الأول لساعة الصفر : الله أكبر .. وكانت الأسماء الحركية للمذيعين الأوّلين للثورة صلاح الدين وطارق بن زياد وهذا أمرٌ لا تخفى دلالته.

وفي هذا الجانب حاول البحث أن يريد على الطفوليين الذين حاولوا أن يطمسوا شخصية الثورة وهويتها الحضارية عندما شوهوا ملامح قادتها عن

أحد طريقين إما إلقاء هالات الطلاسن عليهم أو بالتقليل من قدرهم وتحجيم دورهم التاريخي بحجج **تافهة** .. وانتحلوا لها قادة آخرين .. وأبرزوا ما لم يكن بارزًا في سني الدم والنار بما يخدم أهواء البعض وينسجم مع حضارة الغرب .. أو ركزوا على ما أعجبهم التركيز عليه وإن كان جزئيًا أو هامشيًا في مسيرة الثورة .. وذلك كله بقصد التغطية على البواعث الحقيقية للثورة والتي كان ينبغي أن تستمر بالحالة العامة إلى نهاياتها المنطقية ليس في الجزائر فقط بل في المغرب العربي كله وامتدادًا إلى المشرق العربي .. وحاولوا جعل الثورة وليدة ظروف موضوعية خارجية .. ولكن يبدو أن مجرد إشارة الى سير الاحداث سيكون خير مجيب على هذه المقولة النكدة .. حيث سيحاول البحث أن يبين ان الثورة مشروع حضاري ناضج تمامًا مستوعب لكل أبعاد العملية الثورية جعل كل اعتماده على طاقة الشعب الجزائري .. وعمل بكل الوسائل الملائمة على تعبئة كل الطاقات وحشد كل الامكانات لتصفية الوجود الاستعماري بكامل صوره وأركانه .. ومنذ البداية كان جيل الروّاد التاريخيين يدرك أن مشروع الاستقلال سيصطدم بالارادة الدولية فهم لذلك فقد اعدوا جوابًا تاريخيًا : «جئناكم برجال يحبون الموت كما تحبون الحياة».

لقد كانت الهجمة الصليبية على مغرب العرب ومشرقهم .. وقاومتها الأمة في كل مكان ببقية الروح المنهكة .. إلا ان أشرس المعارك على الاطلاق هي تلك التي تمت بين الأمة والصليبية على أرض الجزائر .. والشراسة هنا تأتي بفعل اصطدام حالتين في غاية التناقص فالاستعمار مقتنع أنه باستطاعته تدمير الحالة الجزائرية بعزلها عن بقية الأمة وتفريغها وصنع نخبة تغريبية فيها حصارها بالفقر والجهل والتخلف .. مما سيضمن له — حسب تصوره — إنهاء هذه الحالة تاريخيًا وإلحاقها بشكل نهائي ذيليًا بالحالة الغربية الفرنسية

هذه حالة. والحالة الأخرى حالة الثورة التي انطلقت على أرضية **المفاصلة التامة** مع الحالة الاستعمارية وفي إطار المباديء الاسلامية محددة أهدافها ضمن نفس المباديء مستلهمة شعاراتها التي تحمل مصداقية عالية من طبيعة تاريخها الجهادي أشكالًا ومضامين .. وكانت قوانين الحرب في الاسلام وأخلاقها جلية في يوميات الثورة وعادت الحياة تدب في مفاهيم حركة الجهاد بقوة (الوحدة، الشهادة، الفداء، التضحية، الايثار، الاقدام، الصبر، الجندية، التواضع ،...).

بين إرادة المستعمر المدعوم بالارادة الدولية والمجهز بترسانات التفوق العسكري الاستراتيجي في جهة وبين الثورة النقيض الفكري والحضاري التام في الجهة المقابلة نشبت المعركة .. وكان لا يمكن أن يستمر وجود هذين النقيضين سويًا في الجزائر كما قال الشهيد الشيخ العربي التبسي : «بعد الآن لم يعد بوسع الجزائر أن تتسع للجزائريين والفرنسيين فإما الجزائريين وإما الفرنسيين».

* * *

البحث في الثورة الجزائرية ضد الحملة الفرنسية الاستعمارية يحاول أن يكشف وهم المقولات التبريرية التي تجعل من (عدم التوازن الاستراتيجي) و (الارادة الدولية) حججًا للسكونية والمهادنة بل والاستسلام .. إذ أنّ الثورة الجزائرية تقول وبشكل واضح أن القوة الحقيقية تكمن في الشرط الذاتي في الارادة والوعي .. الارادة على مواصلة الكفاح والوعي بطبيعة العدو وأساليبه والوعي بالذات وعوامل نهوضها .. هذه هي نقطة الانطلاق. أما الوسائل والامكانات فنبدأ بما يتوفر .. وهذا قانون اسلامي خطير اهتدت اليه الثورة الجزائرية في لحظة البدء وانطلقت منه.

وعبأ لثوار ما وسعهم التعبئة .. جمعوا ما يمكن تجميعه من أسلحة ومعلومات عن تحركات العدو وتجمعات شرطته وعسكره ومصالحه الاقتصادية .. وجعل كل قائد منطقة لكل هدف عسكري مجموعة خاصة به وفي أشهر قليلة تم الاعداد على المستوى السياسي ببناء جهاز سياسي مهمته التحريض والتوعية والاتصالات .. وجهاز عسكري من مجاهدين وفدائيين وإن كانت شعبة الفدائيين في البداية لم تكن هامة كثيرًا .. وكان ضروريًا ومنذ البداية أن تنطلق الثورة في كامل الجزائر وفي لحظة واحدة .. ومنتصف الليل وحاول مؤشر الساعة ان يقفز الى النصف الأخير من الليل فسبقه المجاهدون في بعض المدن الجزائرية وجبال الأوراس الأشم وكانت الصرخة : الله أكبر .. وكانت الانفجارات تدوي كأنما الصاعقة .. تلك الليلة كانت أسوأ ليلة على جنود فرنسا وجنرالاتها في الجزائر .. وكانت أصعب ليلة يجتازها المجاهدون .. إنها الليلة المعجزة والتحول التاريخي النهائي الذي بدأ مسيرته بالنار والدم فانتهى بالاستقلال.

جاءت الثورة الجزائرية بهذا العنفوان وهذا الهجوم المتصاعد على الوجود الاستعماري ليكون واضحًا أمام ثوار كل العالم ومجاهديه أن الحقوق لا يمكن أن تنال عبر المباحثات والعمل الديبلوماسي فالغرب لا يفهم الا بلغة العنف المضاد .. ولأنّ الغرب لا يتصور أنه بإمكان الآخرين الحياة الكريمة إلا إذا كانوا خدمًا له ولا يتصور أنّ الآخرين يستطيعون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم أو أن يعيشوا مستقلين لأنّ الغرب مؤمن بهذا جمعية فإنه سيكون لزامًا التعامل معه بالعنف. وبمقدار ازدياد العنف المضاد (الذي تنفذه الأمة) سيتخلى الغرب عن قناعاته .. وهذا درسٌ هام جدًا من الوضوح بحيث أن الثورة الجزائرية تعتبر في أحد أوجهها تجسيدًا لوعي الأمة بكيفية الرد على عنف الغرب.

وجاءت الثورة الجزائرية لتضرب بعرض الحائط الصيغ الحزبية النخبوية في العمل الثوري ولتقدم (صيغة) عمل ــ مقاومة مستمدة من روح قيم الأمة وتاريخها فمنذ اللحظات الأولى كان واضحًا لدى مفكري الثورة وقادتها صيغة العمل هذه فها هو ابن مهيدي يخاطب لجنة القيادة قائلا : «ساعدوني على إنزال الثورة الى الشعب أضمن لكم الانتصار» .. وتعاضدت الجهود جميعها على أن تكون صيغة الجهاد متسعة لكل طاقات الأمة وقادرة على توجيهها الى خط المواجهة المباشرة مع العدو .. ومنذ البداية يتم تجميع هذه الطاقات وبعثها نحو هدف محدد وهو تحرير الجزائر وطرد المستعمرين.

وجاءت الثورة الجزائرية لتكشف عن خطأ مقولة : «مرحلة التربية الاخلاقية والاعداد النفسي قبل الدخول في القضايا السياسية والجهادية» .. وجاءت كذلك لتكشف عن حقيقة الاعداد والتربية .. فالاعداد حسب المتوفر والمستطاع، والتربية في قعر المعركة حيث الدم والمعاناة والجوع والجراح والسجون .. هذه هي التربية العملية والتي مارستها الأمة في كل معاركها التاريخية من لدن محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليوم .. المهم أن تتقدم مجموعة من الرجال الصفوف وترفع راية الجهاد وتحسن مخاطبة الأمة وتعبئها وتحسن ذبح العدو في الضرب على الحلقة المركزية في وجوده .. وفي هذه المعركة الشاملة والشاقة تزكو النفوس وتعلو الهمم وتشرق الأرواح وتتساقط الأوهان الدنيا ويتساقط معها المتساقطون.

* * *

إنه موضوع متشعب تشعب الحياة البشرية ومجالاتها ومتشابك تشابك أهداف الاستعمار وخططه ووسائله وأساليبه ومنطلقاته وإنه ــ موضوع الثورة ــ تصادم هذا جمعية بعقيدة الأمة واخلاقها وكرامتها .. فإنه لمن

احترام الذات الاشارة الى القصور العظيم الذي يسم هذا البحث الذي قد يكون — رغم كل ما بذل فيه من جهد — عبارة عن إشارة لموضوع ضخم كبير متعدد الجوانب يطول فيه الحديث ويتشعب .. فإن مجرد الرد على الكتب والدراسات التاريخية المؤرشفة في أكاديميات الغرب عن الثورة الجزائرية أو على الكتب المدرسية التي تدرس لأولاد العرب والمسلمين أو على الكتاب العلمانيين التغريبيين .. إنّ هذا فقط يحتاج من الجهد الشيء العظيم فما بالك بحديث في الموضوع الأصلي حيث الصراع اليومي .. وحيث مئات الشهداء الذين يسقطون يوميًا ؟.. إنه حينذاك سيقرع باب السجون والمعتقلات ويسجل أنواع الاجرام الاستعماري في (بربروس) و (الجرف) والمحتشدات العسكرية حيث أنواع التعذيب كانت كثيرًا ما تنتهي باستشهاد المجاهدين تحت التعذيب .. حين ذاك على البحث أن يسجل الزغاريد من داخل السجون تطلقها المجاهدات المعتقلات كلما هوت شفرة المقصلة على عنق مجاهد .. ويسجل كذلك التكبير والتهليل وروح الثورة التي تزلزل المعتقلات من قبل المجاهدين المعتقلين ومحاولات اختراق السجون والفرار للحاق بالجبال.

وعلى البحث حينذاك التسلق على الجبال في البرد والحر والسير مسافات طويلة على الصخور وبين المنحدرات يضرب وجهك غصن شجرة أو توخزك شوكة أرض أو تمشي امام عينيك هوام الأرض وسباعها .. تدخل الكهوف والمغارات الرطبة .. لتسجل كل مشاعرك اذ ذاك وأنت متوجهٌ الى قاعدة مجاهدين تتعرف كيف يقضون أوقاتهم ؟ أية إرادة أخرجتهم الى هنا !!؟ أي حلم يسكنهم !!؟ على ماذا يتواعدون إن افترقوا ؟! كيف يواجهون مشكلة البرد والحر والجوع والعطش وقلة الذخيرة ؟.. كيف كانت تتم العلاقة الدقيقة والتفصيلية بين المجموعات وبين (المسبلين) هذه الفرقة الفدائية الخاصة بالأمن والاستطلاع وترتيب أمور التحرك للمجاهدين ؟! كيف بنى

(ابن مهيدي) جهاز الفدائيين في العواصم الرئيسية ؟ وكيف استطاع تحقيق (ثورة المدينة) ؟! وكيف كانت الخطوط السياسية تتم في التعامل بين أجهزة الثورة السياسية والاعلامية والتموينية من جهة وجهازها العسكري من جهة أخرى ؟.. كيف استطاع المشروع أن يستوعب طاقة كل الناس وعلى مدار سبع سنوات وبشكل تصاعدي حيث لم يعد هناك الا خياران إما الالتحاق بالثورة وإما الالتحاق باستخبارات فرنسا وجيشها ؟ة وأسئلة كثيرة كثيرة تحتاج كل منها إجابة تفصيلية تستغرق من الجهد والوقت الشيء الكثير وهو أمر ضروري بلا شك.

ثم ماذا كان يحدث على الجبهة الفرنسية ؟ كيف كان التنافس بين جنرالات الجيش الفرنسي وأجهزة أمنه وقمعه .. كيف كان تأثير الحرب على الوضع الفرنسي الداخلي تفصيليًا سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا .. كيفية تطور الأساليب القمعية الفرنسية ؟.. ما هي الأساليب اليومية والمناورات اليومية التي كانت تنفذها الادارة الفرنسية في السياسة وفي ساحة الحرب ؟.. كيف استطاع الفرنسيون تجنيد الرأي العام الدول حيث تواطأت أوربا الرأسمالية في مشروع فرنسة الجزائر .. وحتى الاتحاد السوفيتي (الصديق التقليدي للعرب) والعدو التقليدي للرأسمالية الأوربية لم يعترف بثورة شعب الجزائر إلا في سنة 1961.

على الساحة العربية كيف تعاملت الأحزاب القومية والعلمانية والزعامات والانظمة مع الثورة الجزائرية من الذي ساعد وكيف ساعد وكم ساعد ولماذا ساعد ؟ من الذي تآمر وكيف ولم يتآمر ؟!!.

ما هو أثر الثورة الجزائرية على مجمل الكفاح التحرري في بلاد العرب والمسلمين وبشكل خاص على قضية فلسطين .. وما هو أثرها على الكفاح التحرري في افريقيا ضد الهيمنة الفرنسية .. والغربية بشكل عام.

إنّ الحديث بهذا التفصيل يعني دراسة الوضع الدولي والاسلامي والعربي بشكل عام والمغربي بشكل خاص وعلاقة الجميع ببعضه ودراسة الحالة الجزائرية بشكل أكثر خصوصية وتفصيلًا وعلاقتها بالوضع الدولي والاسلامي والعربي والمغربي منه بشكل خاص .. وهذا كي تتكون لدينا رؤية علمية حول الثورة الجزائرية .. أي بدراستها ضمن مرحلتها التاريخية ووفق سياق حركة الأمة التاريخي .. الأمر الذي يحتاج جهد جيل من الكتاب المتمكنين من أدوات التحليل والنقد والمتحررين من مناهج التحليل الغربية والواقفين على أرض الأمة وذلك لانجاز سلسلة من الكتب التفصيلية الشاملة تكون بمثابة مصادر حقيقية مستوفاة لكل من أراد بحثًا ما في الثورة .. ولم يكن في البال أن يصبح هذا البحث أحدها وليس هو كذلك بالطبع .. إنما هي محاولة قدر الاستطاعة لرسم خط عام للجهاد في الجزائر مع ملاحظة أبعاد الصعود وأسباب التردي على طول هذا الخط .. وكيف احتشدت تجربة الكفاح في السنين الأخيرة لتصنع ثورة نوفمبر المجيدة .. وملاحظة كذلك للتحولات النوعية والاستراتيجية في الكفاح على طول خط المواجهة التاريخية للحملة الصليبية الفرنسية .. وفي المقابل كان من المهم جـ أن تكشف طبيعة الغرب وجوهر منهجه وأساليبه حتى نتعرف باستمرار على أنواع الحروب التي سيمليها علينا .. وحتى نطارد ما تبقى من جسمه في بلادنا.

* * *

إنّ الكتابة عن الثورة الجزائرية في مرحلة الضغط اللانفسي الامبريالي على أمتنا بتكثيف الهجمة وبأساليب مختلفة أحيانا ومتطورة دومًا على أعضاء كياننا الحضاري ومقومات شخصيتنا الى الدرجة التي أصبحت فيها حركة التحرر العربي مروجة لمقولات التسوية والواقعية السياسية بعد أن اخفقت كل

مشاريعها على صعيد الوحدة والاستقلال والاقتصادي والثقافي والسياسي وعلى صعيد تحرير فلسطين .. إنّ الكتابة عن الثورة الجزائرية في هذه المرحلة تعني اللجوء الى معين ثرّ يمدنا بالطاقة والحيوية والخبرة في تأدية مهماتنا الحاضرة والمستقبلة .. وتحدد لنا معالم طريقنا وتفرز لنا بشكل علمي دقيق لمقولات الحقيقية عن أوهام الواقعية السياسية .. وتكشف لنا عن قصر الطرق وأصحها في تحقيق الانتصار .. إذ أن الثورة أكدت لنا أن الانسان ينتصر اذا حقق الانتصار بدءًا على صعيد الارادة والوعي بالذوبان في مصدق — المبادىء — والتشبث به والتحرر من المحدود .. مهما كلف ذلك من تضحيات ومشاق.

* * *

132 عامًا من الحرب .. مئات المجازر .. ملايين الشهداء الأعزاء .. عشرات الآلاف من القرى والمدن التي سويت بالأرض .. انتهاك الأعراض والحرمات .. هل كان لا بدّ أن يحدث كل هذا ليذكرنا بطبيعة الصليبيين وطبيعة رسالتهم الحضارية للشعوب (المتخلفة) !!.. وهل هذا كله يكفي لايقاظ مثقفينا العلمانيين ومفكرينا التغريبيين من سكرتهم بالغرب ؟. وهل هذا كله كان مطلوبًا لاقناع مفكري الغرب وفلاسفته (الرأسماليين والاهوتيين والماركسيين وغيرهم) أنّ هذه الشعوب (المتخلفة) لا تريد (حضارة) الغرب ؟. وأنها تمتلك القدرة على حكم نفسها بنفسها وانها تضحي بكل ما تملك في مقابل حريتها وكرامتها.

132 عاما هل كفت للرد على «فريدريك انجلز» و «كارل ماركس» كما على أساطين الرأسماليين بأنّ الأمة ليس همجًا كما ادعو وليست قطاع طرق كما زعمو .. بل إنّ (حضارة) الغرب جيفة نتنة كل ما يفوح منها فهو ريح سموم لا فاكهة فيها سوى الحنظل ولا ماء الا من مهل يشوي الوجوه.

132 عامًا ليست كل المعركة بين الأمة والغرب .. بل ليست كل المعركة بين الجزائر والغرب كما أنها ليست كل المعركة بين فرنسا والأمة .. ولم تكن كذلك كل المعركة بين فرنسا والجزائر .. سبقها معارك .. ومازال يلحقها معارك .. في المجال الثقلفي وفي المجال الفكري والاقتصادي مازالت المعركة مستمرة .. ثقافة الأمة لغتها حضارتها منهجها في معركة حقيقية ضد ثقافة الغرب وهيمنة لغته وسيادة منهجه .. والمعركة تتطلب مزيدًا من الوعي والحكمة والارادة والشجاعة .. لأن الغرب لن يتركنا ننعم بكرامتنا وحريتنا نعيش حياتنا وفق منهجنا الخاص لأن هذا سيحرمه من مصالح حرص على بقائها والحفاظ عليها بكل الوسائل .. أجل إنّ المعركة لم تنتقى ولن تنتهي إلا بسيادة منهجنا منهج السلام والانسانية والخير .. وبإندحار منهجُ الغرب منهج العدوان والعنصرية والشر .. هذا صحيح لا شك فيه .. إلا أنه صحيح كذلك أنّ الحديث عن الـ (132 عامًا) إنما هو حديث عن جولة من أخطر جولات المعركة بين الأمة والغرب تكشف لنا أسباب الانتصار وتكشف لنا طبيعة عدونا وتدفعنا لمواصلة المعركة مع أشكال الاستعمار الأخرى الثقافية والاقتصادية .. إنّ الجولات التي تلت (132) عامًا، جولات صراع حقيقي يجب معرفة كم ربحنا وكم خسرنا فيها ؟! على صعيد الأصالة ضد التغريب وعلى صعيد الوحدة ضد التجزئة وعلى صعيد الاستقلال ضد التبعية ؟...

* * *

ماذا تعني كتابة بحث حول مقاومة الهوية الحضارية في بلدٍ من بلدان المسلمين مثل الجزائر لهجمة همجية تدميرية !!؟ وماذا يفيد الحديث بعد أن إنتهت معركة الدم والنار وبعد أن اطرد عسكر الغرب إلى ما وراء البحر ؟!.

إنها الكتابة عن تجربة هامة من تجارب أمتنا .. حتى لكأني أميل إلى القول بأنها التجربة الفريدة في تاريخنا العربي والاسلامي المعاصر التي تتضح فيها مجموعة قوانين أساسية ــ. (الوحدة، التعبئة الشاملة، الارادة، الوعي، الشهادة) ــ من قوانين الجهاد الاسلامي .. وهذه الكتابة في هذا الاتجاه تنكأ الجراح وتبعث الذكرى الى التمثل والحياة ليرى الواقع في ظل الماضي .. ولتستمد من الماضي روح المقاومة والانتصار.

إلا أن الكتابة عن الثورة الجزائرية تواجه بعض المشكلات الموضوعية والذاتية .. حيث كثرت الكتابات الغربية أو الكتابات المرتبطة بأحزاب أو شخصيات وزعامات في المشرق العربي والمغرب العربي وكل هذه الكتابات لا تتيح للقاريء فرصة للعيش داخل التجربة والشهادة عليها بالحق والعدل .. وهي جميعها أرجعت أسباب الانتصار لعوامل كثيرة (منها) العامل الشعبي على اعتبار أنه واحد من مجموعة عوامل !! وهي أيضًا جميعًا ــ رغم اختلافها واختلاف موازينها ــ اتفقت على التقليل من دور القادة التاريخيين للثورة .. هذا على أحسن الظن بها.

الشيء المر والسيء في آنٍ واحد هو التكثيف الذي قامت به الأجهزة الاعلامية الفرنسية والغربية بشكل عام والمخابراتية في الوطن العربي حول الخلافات والصراعات التي كانت بين قادة الثورة الى الدرجة التي صوروا فيها أن مجموعة القيادة هذه «لا هم لها سوى مصالحها وامتيازاتها وهي على درجة عالية من الخبث والمؤامرة مما أوقعها في مسلسل الاغتيال المضاد الذي أودى بحياة الكثيرين من قادة الثورة ..».

ماذا يريدون أن يقولوا من ذلك ؟!! إنهم يريدون أن يقولوا : «لا تفرحوا بهذا الانتصار .. لو تعرفون ما حدث !! إنها مؤامرات واغتيالات لكي تحقق مصالح بعض الأشخاص .. انظروا إلى كذا !!؟ كيف حدث كذا ؟!

كيف ؟!..» وذلك بقصد واضح جلي وهو قتل هذه الفرحة في صدور الملايين الذين صنعوا الثورة لتثبيطهم وإحباط أملهم بتشويه قادتهم وروَّاد كفاحهم .. فلا يعود بذلك قدسية للثورة ولا مكانة للقادة .. وتتواصل الهجمة الغربية الاعلامية بقصد الارباك وخلق جو من اليأس العام والقلق ..

إنَّه يمكن تمامًا أن يحدث خلافات داخل الثورة وهذا أمر طبيعي لكن على أي محلل أن يضع هذا الخلاف في حجمه الطبيعي ضمن سياق الصراع المسلح بين الثورة والاستعمار .. ونحن من تاريخنا الاسلامي الطويل وتاريخ الانسانية الحافل بالتجارب البشرية المتعددة ندرك تمامًا أنه يمكن أن يكون داخل الثورة، وصفها الأمامي أفراد ذاتيون أنانيون لا يحبون الخير إلا لأنفسهم .. جبناء وقت المغرم أشداء وقت المغنم .. لا يفكرون بالشهادة والتضحية .. ولا يأبهون بآلام الناس ومعاناتهم .. يعيشون حياة الرفاه والتمتع

بالأشياء والحاجيات الكمالية ويتطاولون على الشرفاء المكافحين الفقراء الذين طلقوا الدنيا .. فغابوا عند كل مغنم وحضروا في كل مغرم آمنوا بواجبهم فنسوا حقوقهم .. قد يحدث هذا فلم تخلوترجبة بشرية عبر التاريخ الانساني من بعض هذه النماذج ولكن الذي ينبغي لنا أن ندركه أن الثورة لا يمكن أن تنطلق وتستمر وتنتصر بقادة من هذه النماذج .. أبدًا على الاطلاق .. بل إن الثورة تنطلق وتستمر وتنتصر بنماذج أخرى : نماذج الشرفاء عاشقي الشهادة المتحررين من روابط الأرض وجواذبها والمشتعلين فرحًا بالواجب .. إنّ الثورة تنطلق وتستمر كثورة برجال كبار فوق الانشغال بالتوافه التي لا تشد إليها إلا أولئك الذين يخشون الموت ويحسبون ألف حساب لكل خطوة في سلم الواجب كم ستحقق لهم مصالح وامتيازات .. أعطوا ألسنة يجيدون بها التبرير وأساليب المداهنة كما يجيدون بها صنع الهالات الوهمية لذواتهم في

الحين الذي يحقرون فيه كل خير من سواهم .. فهم مع أنفسهم يكبرون كل خير فعلوه مهما كان صغيرًا ويصغرون كل ذميمة مهما عظمت .. أما مع غيرهم فهم يصغرون كل خير مهما كان عظيمًا ويطعنون في بواعثه ويكبرون كل خطأ مهما كان ثانويًا ويبرزونه.

هؤلاء لا يصنعون ثورات مهما توهموا ومهما أوهموا الناس .. إن الذين يصنعون الثورات قديسون زكت أرواحهم وطهرت نواياهم وصدقت عزائمهم وتحرروا من النياشين والامتيازات وما تعارف عليه الناس من أسباب الوجاهة والمكانة .. وانبعثوا للمطلق لا يزنون إلا بميزان الحق والعدل وإن كانت موازين كل الدنيا غير ذلك .. يؤمنون بأن عليهم واجبًا أكبر من أشخاصهم فيكفيهم أن يؤدوا واجبهم على خير وجه وينسحبوا .. فلا يفرحون لما يفرح بسطاء الناس ولا يحزنون على ما يحزنهم .. لا يعرفون المستحيل ولا يستسلمون للأماني والاحلام .. فإن جاءتهم الدنيا طائعة أذلوها ولم يجعلوا لها عليهم سلطانا.

هذا لا يبسط المسألة ولا يذهب بها في عالم المثالية !! بل يضعها في إطارها الطبيعي .. فإن الذي يبحث في سيرة قادة الثورة (العربي التبسي، ابن مهيدي، مصطفى بن بو العيد، ديدوش مراد، زيرود يوسف، عميروش، الحواس ومفتاح .. وبقية القافلة) لا يسعه إلا أن يقف بإجلال أمام جيل من الذين حققوا الشرط الذاتي للانتصار بتحررهم من حب الدنيا !! واستعلائهم على قيمها !.

لهذا كله تجنب البحث كثيرا مما كتبه المستشرقون وتلامذتهم في هذه المسألة وذلك للاعلمية هذا الذي كتب من جهة ولأغراضه غير السليمة من جهة أخرى .. والبحث بهذا حاول أن يلقي شيئًا من الضوء على ضرورة تغيير

أحس بالامتنان للاخوة الذين شجعوني على المواصلة في هذا البحث وأشكر كثيرًا الاخوة الذين ساهموا في هذا البحث توجيهًا ونقدًا .. وأعتذر للشهداء الذين لم يأخذوا أقل القليل من هذا الجهد وأعتذر للذين قد أكون أخطأت في حقهم وأنقصت من قدرهم وأرجو منهم أن يغفروا لي.

هذا البحث أراد أن يكون رسالة الجزائر للعرب والمسلمين بشكل عام .. وأراد أن يكون جسر الوعي بين المشرق وهموم المغرب العربي .. ومع ذلك جميعه حاول نفض غبار عن حياة جديرة بالاستمرار والمواصلة للتقدم نحو الوصول إلى البدايات الطبيعية للنهضة ووحدة الأمة وانطلاق منحنى حضارتنا من جديد نحو عالمية اسلامية ثانية .. فإن حقق ما أريد له فذلك من فضل الله وكرمه وإن قصر عن البلوغ فذلك مني وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم.

مدخـل :

شكل المغرب العربي منذ قديم الزمن وحدة جغرافية وسياسية متماسكة أشرفت باستمرار على التحكم في الملاحة البحرية في غرب البحر الأبيض المتوسط والمضيق الموصل بين البحر الأبيض والمحيط الاطلسي .. وتكون السيطرة عليه باستمرار هدفًا في كل المراحل التاريخية للاعتبار السابق ولاعتبارات أخرى لا تقل أهمية كاعتبار أنه مدخل هام لافريقيا ومصدر خطر مباشر لجنوب أوروبا .. ومكمن ثروات طبيعية متجددة.

وقام المغرب العربي في تاريخ حضارة الاسلام بدور في منتهى الاهمية .. فبعد أن وصلت فكرة الاسلام التوحيدية بقليلٍ من الوقت اكتشف سكان المناطق الأصليين من (البربر) والذين قاوموا بصلابة كل غزو أجنبي قبل الاسلام وما لانت لهم عود .. اكتشف هؤلاء ــ البربر ــ أنّ الاسلام فكرة ليس لها علاقة بالمطامع الدنيا .. وتحارب بقوة كل عقائد الشرك التي تستخف بالعقل البشري والتي تفرض على الناس حياة الصراع العنصرية والطبيقية والقبلية .. فانبعثوا مع إخوانهم الفاتحين لاقامة مجتمع العدل والمساواة .. وكان على هذا المجتمع أن يتحرك من دوافع العقيدة الى غربي المضيق والذي عرف فيما بعد بمضيق جبل طارق نسبة الى القائد المسلم (البربري) طارق بن زياد .. فأصبحت هذه الوحدة الجغرافية مع غيرها من الوحدات تشكل دار الاسلام.

الباب الأول

علاقات الجزائر الدولية قبيل الحملة الفرنسية

لقد كانت إيالة الجزائر كواحدة من أمصار الخلافة العثمانية تمارس نشاطها التجاري والسياسي بإستقلالية تامة ما دام الأمر ضمن التوجه العام للخلافة .. والباب العالي لا يتدخل إلا فيما يمس وحدة الخلافة وبيضة الاسلام .. وكانت علاقة الداي بالباب العالي علاقة السيد بالسيد يجمعها رباط واحد هو الدين والمصالح المشتركة للأمة .. وسيعود الحديث عن هذه النقطة بعد قليل إنشاء الله.

أما بالنسبة لجل الدول المسيحية فكان لهذه الدول قناصل يمثلون مصالحها لدى الداي أما الايالة فإنه لم يكن لها تمثيل ديبلوماسي لانها تعتبر نفسها في حرب مستمرة مع سائر الدول المسيحية.

العلاقة مع بريطانيا : في جو التطاحن والتنافس الموجودين بين دول العالم المسيحي سعت الادارة البريطانية الى افساد الصداقة الفرنسية الجزائرية لعرقلة الاقتصاد الفرنسي حيث استطاعت سنة 1806 تحقيق رغبتها في الاستحواذ على المؤسسات التجارية التي كانت تشرف عليها فرنسا وفي مقابل ذلك زودت بريطانيا الجزائر بباخرتين مشحونتين بالصواري والمدافع وتوسطت بين الجزائر والبرتغال لابرام صلح تم لفائدة الجزائر ..

غير أن هذه الصداقة لم تدم إذ جاء مؤتمر فينا ليوحد أوربا ضد بلدان المغرب ورأت انكلترا التي قد بلغت أوج سلطانها في ذلك الوقت فرصة في هذه الحالة لتزعم التكتل العدواني مقابل إشرافها على الجزر الأيونية ونظمت بالاشتراك مع هولندة حملة إكسماوث الشهيرة 1816 التي أثرت تأثيرًا كبيرًا على التجارة الخارجية في الشرق الجزائري وتمت هذه الحملة على مرحلتين

مرحلة أولى أبرمت فيها عدة اتفاقات مع أولى الأمر في الأيالة، وكانت كلها لصالح الجزائريين حيث أراد البريطانيون كسب ود الجزائريين في ذلك الوقت .. إلا أن الحكومة البريطانية أعادت الكرة في المرحلة الثانية بانضمام الأسطول الهولندي بقيادة الأميرال (فان كبلان) وتجلى فيها التكتل الصليبي ضد الايالة المسلمة .. ويذكر الدكتور العربي الزبيري في كتاب (مدخل إلى تاريخ المغرب العربي) جملة أدلة على كون هذا التكتل صليبيًا .. استطاع الحلفاء إرغام الداي عمر باشا على توقيع اتفاقية في 1816/8/30 بعد هزيمة الاسطول الجزائري .. إلا أن الأسطول عاد خلال عام إلى سابق عهده قوة وعدة .. مما دفع أعضاء مؤتمر فيينا ــ أثناء مؤتمر «إيكس لاشابيل» الذي انعقد في العشرين من نوفمبر سنة 1819 ــ لدراسة الوسائل اللازمة للقضاء على ما أسموه بالقرصنة ثم اتفق المؤتمرون على «أن أي اعتداء تتعرض له المصالح التجارية لأية دولة أوربية يجب أن ينجرَّ عنه عقاب شديد تقوم به جميع الدول ضد الايالات المغربية» وطلبوا من ممثلي فرنسا وانكلترا أن يتوسطا لدى حكومتيهما لتوجها الى دول شمال افريقيا «كلامًا جديًا وتنذراها بأن الاستمرار في طرق العنف والعداء ضد التجارة المسيحية سيكتل ضدها، مرة أخرى، قوات أوربا بأسرها» .. إلا أن الداي حسين لم يقبل بهذا المنطق الأوربي وأبلغ المندوبين البريطانيين أن ايالته حرة في محاربة كل من يتراخى في تسديد الضرائب وإرسال الهدايا .. وخطت الايالة الى تحجيم دور متضليتي بريطانيا وأمريكا اللتين تعاضدت معهما كل القنصليات الأوربية في الجزائر .. وأعرب عن إحتجاجهما .. وكانت بريطانيا حريصة على فتح أسواق جديدة تبيع فيها منتوجاتها وتدعم نفوذها الذي فقدته إثر فقادن مستعمراتها في القارة الأمريكية.

إلا أن الداي رد على هذه المطالب : (بأنه يرغب في التصالح مع انكلترا ولكنه يرفض باصرار رجوع القنصل القديم) ولذلك قرر حكام الانكليز :

أنهم يعلنون الحرب على الجزائر وأنّهم يحاصرونها بحرارة ويحتجزون المراكب التي يجدونها على كامل السَّاحل الجزائري مستغلين فرصة خروج جزء كبير من الأسطول الجزائري لنجدة أسطول الخلافة في إخماد الانشقاقة اليونانية.

وقد ظل هذه الحصار قائمًا حوالي نصف عام تعطلت فيه التجارة البحرية ولكن الجزائر لم تتأثر لذلك كثيرًا لأن تونس والمغرب كانتا منفذين واسعين من الحصار .. لم يجد الحصار فلجأت بريطانيا الى السلاح وبدأت المعارك يوم 11 يوليو سنة 1824 .. ولكن مقاومة الجزائريين أرغمت الانجليز على التقهقر وأبرم السلم يوم 26 من نفس الشهر.

العلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكية : حيث اعترفت إيالة الجزائر باستقلال أمريكا مباشرةً بعد الاعلان عنه .. و «في سنة 1793»[1] دخل الاسطول الجزائري الى المحيط الاطلسي وأسر أحد عشر مركبًا أمريكيًا .. لم يكن أمام أمريكا إلا طلب الصلح «ودفع مبلغ 721,000 دولار اسباني»[2] كي يساعدها داي الجزائر على ابرام الصلح مع الايالات العثمانية لا سيما إيالة طرابلس .. كما أن الولايات المتحدة وافقت على دفع مبلغ سنوي يقدر بـ 22 ألف دولار تضاعف كلما اتسع نشاط التجارة الأمريكية في البحر المتوسط .. إلا أن أمريكا تمادت في مماطلة الدفع «فأعلنت الجزائر الحرب على أمريكا سنة 1807 وحجزت لها ثلاث سفن اضطرت بعدها أمريكا إلى دفع ما عليها»[3].

«في سنة 1815»[4] أجمع الكونغرس الأمريكي على ضرورة عدم تقديم الضريبة السنوية وأمر بتوجيه حملة عسكرية حيث بعثت الادارة الامريكية

(1)، (2)، (3) د. الزبيري. العربي (ص 85–86) مدخل في تاريخ المغرب.
(4) أ. سعد الله. أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص 299.

بفصيلين من أسطولها الحربي الى الابيض المتوسط مستغلة تغيب ريّاس الجزائريين ـــ واستطاعت هاتان الفصيلتان بمساندة البحرية الاسبانية تدمير السفينة الجزائرية (محجودة) والاستيلاء على (استيديو) وقد استشهد كل من كان على ظهر السفينة محجودة ومن بينهم (الريس حميدو).

العلاقة مع باقي الدول الأوربية : كان لا بدّ أن تدفع ضريبة مرور مراكبها في البحر المتوسط وكان الرياس يحافظون على هذه المسألة .. ولكن روسيا والنمسا كانتا تتوجهان مباشرة للباب العالي تأخذان منه الاذن بالمرور في بحر المسلمين .. هذا ما قبل مؤتمر فينا الذي تغيرت بعده الأمور تمامًا حيث تكتلت أوربا ضد المغرب تريد أن تجعل منه سوقًا لتجارتها ومصدرًا لثرواتها .. وبدأت من ذلك الوقت تحرض وتعد للاستيلاء على الجزائر ..

العلاقة مع فرنسا : لقد كانت فرنسا تبذل جميع المساعي للحفاظ على صداقتها مع الجزائر تلك العلاقة التي تدعمت في عهد بابا حسن بحيث مكنت سلطات الثورة من الحصول على حمولات من القمح والشعير سمحت بانقاذ مناطق فرنسا من المجاعة.

أن فرنسا كانت سبّاقة بالتفكير في استعمار الجزائر منذ فترة بعيدة «الملاحظ أنّ القنصل الفرنسي كيريسي بدأ يفكر في ضبط مشروع لاحتلال الجزائر منذ عام 1782 وظل يفكر في ذلك طوال تسع سنوات إلى أن قدم فكرته الى الخارجية الفرنسية عام 1791 وقد حدد في هذا المشروع حتى النقطة التي يتسرب منها الفرنسيون الى بر الجزائر[5] ويرى ألفريد ينتمون بأن

(5) الميلي، الشيخ مبارك (تاريخ الجزائر في القديم والحديث) الجزء الثالث، ص 276.

مشاريع الحملة الفرنسية على الجزائر تعود الى عهد نابليون[6] وقام الجاسوس المستشرق «تادنه» بتقديم تقريره للامبراطورية الفرنسية جاء فيه : «إنّ مناخ الجزائر جميل وأرضها طيبة توجد بها مراع شاسعة وسهول فسيحة تكثر فيها منتوجات أمريكا والهند بالاضافة الى ما ينبت في أراضي أوروبا كما انها تنتج كميات هائلة من القمح والشعير والصوف والجلود والشموع أما مراعيها فتزخر بأنواع الحيوانات المختلفة مثل الابقار والاغنام والماعز والبغال والحمير الممتازة»[7] ..

وقد ورد في رسالة كتبها بونابرت الى امبراطور روسيا : «بعد أن اشترط داي الجزائر مبالغ باهظة على اسبانيا لابرام السلم معها، أرسل لي كتابًا يهدد فيه بأنه سيعلن الحرب علي إن لم أعطه مليونين من الفرنكات .. إن وجود هؤلاء القراصنة على شاطيء البحر المتوسط يعتبر سبة للدول الكبرى. ولذلك ينبغي أن نتفق على تأديبهم»[8] .. وقد أرسلت فرنسا جاسوسًا للاستطلاع وتحديد المواقع الاستراتيجية ووسائل الدفاع الجزائري وهو الضابط بوتان (Boutin) من سلاح المهندسين عام 1808 حيث استطاع إن يتسلل الى الجزائر متنكرًا بزي مدني «وهو الذي حدد ثغر سيدي فرج كأفضل موقع لانزال الوحدات الفرنسية التي تقوم بالاحتلال واعتمد في تقريره بعد ذلك باثنين وعشرين عامًا»[9] .. ورغم هذا نرى أن السلطات الفرنسية استمرت في تمويه الأمر على الجزائر وأوربا .. على الجزائر لكي تحقق استمرار تدفق القمح والمواد الأولية بديون لا تسدد ـــ وسيأتي نقاش هذه القضية فيما بعد ـــ وإيهام الجزائر أنه لا نية هناك بالعدوان عليها .. وعلى

(6) نيتمون، ألفريد (تاريخ احتلال الجزائر)، ص 105.
(7) دار المحفوظات الوطنية في باريس، تقرير بتاريخ 1802/8/19.
(8) د. الزبيري العربي (مدخل في تاريخ المغرب العربي)، ص 83.
(9) كلود مارتن (تاريخ الجزائر الفرنسية) الجزء الأول، ص 67.

أوربا حيث كان صراع النفوذ والتنافس الاستعماري في أوجه بين بريطانيا وفرنسا .. مع أن إنهاء قوة الأسطول الجزائري مطلب أوربي أمريكي بشكل عام.

وتصبح قضية الديون الجزائرية الشغل الشاغل للعلاقة الفرنسية الجزائرية ورغم أن الداي حسين قبل تخفيض الديون التي كانت تبلغ 24 مليون فرنك ذهب أي ما يعادل 6 مليارات فرنك — (في عام 1955) — الى مبلغ 7 ملايين فرنك .. ولكن مطالب الداي ووجهت بالتسويف المستمر والادعاءات(10).

وفي عام 1927 حاصر الاسطول الفرنسي الساحل الجزائري مستغلًا انشغال الجزء الهام من الاسطول الجزائري في مشاركته للاسطول العثماني ومانعًا أي مساعدة أخرى للعثمانيين حيث كانت فرنسا طرفًا في الحلف الذي وقع بينها وبين انجلترا وروسيا لارغام الخلافة على الاعتراف باليونان(11).

صراع النفوذ : لقد كان المغرب العربي محل تنافس الاستعمار الأوربي .. وقد بدأت الدول الأوربية الاستعمارية يحدوها هاجس الهيمنة واقتسام العالم ضمن ما كان يدعى يومها بعهد الامبراطوريات لا سيما بعد أن بدأ الضعف يتسرب الى الخلافة العثمانية وتقلصت رقعتها ولم تعد ذات نفوذ في العالمين الشرقي والغربي(12) .. ولقد بلغ التنافس الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا حدًا بعيدًا إذ كانت كل منهما تحاول التوسع وتمد رقعة سيطرتها وتجارتها والاستيلاء على ثروات الأقطار المستعمرة كما أعرب عن ذلك الجنرال

(10) أندري بريغان، أندري نوشي (الجزائر بين الحاضر والماضي)، عدة مواضع من المرجع.
(11) الزبيري العربي (مدخل في تاريخ المغرب العربي)، ص 109.
(12) العلوي محمد الطيب (مظاهر المقاومة الجزائرية)، ص 24.

جيرار فورد بمناسبة نزول الجيوش الفرنسية بالساحل الجزائري اذ قال : «إنّ هذا الاحتلال يستند الى ضرورات هامة جدًا، ويرمي الى فتح منفذ واسع لتصريف بضائعنا»(13).

لقد أشعرت حملة (كسماوث) البريطانية على الجزائر فرنسا بأن الانجليز يحومون حول المنطقة ويهدفون احتلالها .. للسيطرة على البحار مما سيؤثر حتمًا على التجارة الفرنسية ويحد من نشاطاتها .. وبالفعل رغم فشل الحملة البريطانية فإن السياسة البريطانية اتجهت الى كسب ود الايالة والتقرب الى الباب العالي في اسطنبول. وكان هدف هذه السياسة هو الحصول على جميع الامتيازات هناك كي يتسنى لها السيطرة على العالم الأوربي بأكمله .. ولم يكن يعيقها في ذلك الا الاسطول الاسلامي في الجزائر.

ولقد كان اسطول الخلافة يحاصر حالة التمرد في اليونان والتي غذتها الروح الصليبية الأوربية. وكان هذا الاسطول في حاجة ماسة لنجدات من الايالة الجزائرية التي يتمتع اسطولها بلياقة وخبرة عسكرية فائقة.

وأوربا اتخذت موقفًا بإرغام الخلافة على الاعتراف بانشقاق اليونان عن الخلافة وقامت بتغذية هذا الانشقاق ومنع أي امكانية نجدة بالوصول للأتراك وذلك بإشغال ما تبقى من اسطول الجزائر.

أدركت الادارة الفرنسية والادارات الأوربية مجتمعة أن البحرية الجزائرية عامل خطر حقيقي على المطامع الأوربية في العالم الاسلامي وذلك بدفاع هذه البحرية عن ساحل البحر الابيض المتوسط الاسلامي منذ انقاذها للمسلمين المضطهدين من طرف الاسبان في محاكم التفتيش التي نصبوها(14).

(13) الخطيب أحمد (الثورة الجزائرية)، ص 39.
(14) العلوي محمد الطيب (مظاهر المقاومة الجزائرية)، ص 26.

فأقدمت فرنسا على «فرض الحصار عام 1927»[15] واضعة حدًّا لمطامع انجلترا في الجزائر وشاغلة لبقية الاسطول الجزائري عن مساعدة العثمانيين ولم تكتف بتحريض العالم المسيحي بل عملت تحريض بايات تونس وحث محمد علي على غزو الجزائر مقابل مبلغ مالي ..

(15) الزبيري العربي (مدخل في تاريخ المغرب)، ص 115.

الباب الثاني

الوضع الجزائري الذاتي قبيل الحملة الفرنسية

أ) الوضع الاداري والسياسي الداخلي :

مرّت الجزائر في العهد العثماني بأربع مراحل هي على التوالي[16] :

1 ــ عهد البايلربايات من 1518 الى 1587 : وتتسم هذه المرحلة بالسلطة المركزية للباب العالي في تعيين الولاة المسيطرين على رجال الجيش من مشاة وبحرية وكانت تونس وطرابلس تابعتين لايالة الجزائر في هذه المرحلة.

2 ــ عهد الباشوات من 1587 إلى 1659 : بدأ نفوذ البايلربايات يتضاءل بعد معركة «لوبنتو» حيث انهزمت الجيوش العثمانية أمام التحالف الأوربي .. فقرر الباب العالي ادماج الايالة الافريقية (الجزائر، تونس، طرابلس) في الخلافة. وهكذا قسمت الايالة ا لى باشويات على رأس كل واحدة باشا يعين لمدة ثلاث سنوات.

(16) الزبيري العربي (مدخل الى تاريخ المغرب العربي)، ص 70 إلى 72.

3 ــ عهد الاغوات من 1659 الى 1671 : وهي فترة قلاقل لم يستقم فيها الأمر للأغوات الأربعة الذين قتلوا جميعًا والأغايتم تعيينه من قبل الديوان في نفس الباشوية.

4 ــ عهد الدايات والرياس[17] : هم الذين أحدثوا منصب الداي فصار الداي ينتخب انتخابًا. كان أول الدايات الحاج محمد باشا وآخرهم حسين داي الذي حكم من سنة 1818 الى 1830 وبعد تسمية الداي من الجنود وبعد أن يحصل على البيعة المحلية ينتظر مباركة السلطان العثماني والذي كان رمزها هدية مضمونها : (سيف الشرف والعمامة الخاصة) .. وكانت الهدايا متبادلة بين السلطان والباشا .. يهدي الباشا : (الحياك والساعات والجواهر والخيول والزرابي ونحو ذلك) .. أما السلطان فقد كانت هداياه الى حاكم الجزائر مما تحتاجه البلاد ويقوي ساعدها اقتصاديًا وعسكريًا فقد كانت غالبًا تشمل الاسلحة والبارود والحديد والسفن[18].

وكان الداي يقوم بمهمته بمساعدة عدد من المجالس. فهناك ديوانان : عادي ويضم عددًا من المستشارين الكبار، وكان هذا كثير الاجتماع، والديوان الأعظم الذي كان أعضاؤه من كبار الضباط (80 عضوًا)، وهذا لا يجتمع الا بشأن القضايا الهامة كالحرب والسلم وكان يحضر جلساته أيضًا أغا القمرين (رئيس الانكشارية الرمزي) والمفتيان الحنفي والمالكي وكتّاب الدولة الأربعة الكبار، وهناك ديوان البحر المكون من زعماء الاسطول. أما مساعدو الداي فكانوا كما يلي[19] : الخزناجي (وزير) المالية .. يساعده أربعة كتاب :

(17) الرياس : قادة الجهاد البحري يحسنون اللغات الأجنبية.

(18) د. سعد الله أبو القاسم (محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث).

(19) نفس المصدر السابق.

أغا العرب : قائد الجيش السري ومسؤول الشؤون الأهلية.

البيت مالجي : وهو الملكف بمراقبة الأموال الآتية من البايات.

وكيل الحرج : قائد البحارة ومسؤول الشؤون الخارجية.

خوجة الخيل : (وزير) النقل بالمعنى الحديث.

وإلى جانب الدواوين والوزارات كانت هناك وظائف أخرى هامة أولها وظائف الكتاب (الخوجات) وتشمل وظائفهم عدة ميادين : السوق والزرع والجلود والجمارك والمرسى، وثانيها وظائف القواد كقائد الفحص الذي كان يتولى حراسة ضواحي المدينة ومنهم من يتولى مهام إدارية كقيادة شيوخ القبائل .. الخ.

ولقد كانت الجزائر تتوزع ــ بالاضافة الى مركزية الدولة (مدينة الجزائر والساحل وسهل متيجة) ــ إداريًا إلى أقاليم ثلاثة .. إقليم قسنطينة (وهو أهمها)، وعاصمته قسنطينة وإقليم وهران وعاصمته وهران بعد أن حرر من الاسبان سنة 1792 وإقليم التيطري وعاصمته «المدية» وهو أقلها أهمية .. على كل منها حاكم برتبة باي .. وينقسم البايلك الى أوطان على رأس كل واحد منها قائد جزائري أو من العثمانيين ويتكون الوطن نفسه من قبائل على رأس كل واحدة شيخ من الأهالي[20] .. وكل بايلك له ادارة شبيهة بالادارة المركزية .. وعلى كل باي أن يسهر على أمن اقليمه ورعايته وعليه كذلك أن يقوم بإيفاد وفد من البايلك في رحلة دورية نصف سنوية إلى مدينة الجزائر لتقديم تقرير عن المحصول في الاقليم .. وكل ثلاث سنوات يتوجه الباي على رأس الوفد الى العاصمة ليجدد الولاء والثقة. وأما حالة القضاء فلم تكن أقل دقةً من مثيلاتها، فكانت الوظائف القضائية يتولاها : القاضي والعدل

(20) الزبيري العربي (مدخل في تاريخ المغرب العربي)، ص 74.

والعون والوكيل، وكان هؤلاء يختارون من بين العلماء بعد أن يجتازوا امتحانًا خاصًا. وحكمهم نافذ. غير أنّ للمفتي الكلمة الأخيرة .. وكان المذهبان الحنفيّ والمالكي ممثلين في جميع المستويات، فهناك محكمة حنفية وأخرى مالكية ومفتون وقضاة حنفيون وآخرون مالكيون وهناك مجلس مشترك(21).

أما بالنسبة لليهود فقد كان لهم قضاة خاصون بهم (الأحبار) .. وأما المسيحيون فقد كانوا يتحاكمون الى القنصليات المسيحية الموجودة في الجزائر(22).

ب) الوضع الاقتصادي :

لقد كانت الحالة الاقتصادية في الجزائر في مستوى من الرفاه والوفر بحيث كانت ديونها على دول أوروبا لا سيما الحكومة الفرنسية تبلغ ملايين فرنكات الذهب .. وكانت الزراعة عاملا هامًا في تشكيل هذه الحالة، فقد كان سهل (ميتجة) يعتبر من أحسن الأراضي وأوسعها في العالم وذلك نظرًا لمناخه وخصبه وموقعه .. وهو يمتد على مساحة قدرها (330) ميلًا مربعًا(23) وتذكر المصادر التاريخية أن أرز (معسكر) كان من أجود الأنواع في العالم.

وإنّ تقرير الجاسوس الفرنسي (تادنه) الذي سبقت الاشارة اليه .. وكذلك تقرير (تونير) وزير الحرب الفرنسي الذي جمعه عن طريق ضباط أرسلهم متخفين إلى الجزائر .. إنّ هذين التقريرين يظهران سيل اللعاب الأوربي على

(21) المدني أحمد توفيق (مذكرات الشريف الزهار).
(22) سعد الله أبو القاسم (محاضرات في تاريخ الجزائر).
(23) (لمحة تاريخية عن الدول الجزائرية) شارلر تعريب الدكتور العربي الزبيري، ص 108.

هذه (الجنة الفردوس) .. ويكفي هنا أن نشير الى ما قدمه (مونتور دي باراديس) في احصائية له سنة 1788 حول التصدير للبلاد المسيحية التي لا تقف عند حدود الصوف والجلول والشمع والعسل بل إنها تمتد أيضًا الى الحبوب والزيوت ومواد الصباغة والخضر (خرج من عنابة والجزائر وأرزيو ومعسكر ودلس سنة 1788 حوالي 100,000 قنطار من القمح والشعير) وبلغت مجمل الصادرات حسب نفس المصدر مَا يُعَادِلُ مليار فرنك فرنسي لعام 1955(24).

وعلى الصعيد الصناعي فلقد كانت الصناعة المحلية أكثر تقدمًا وأحسن تنظيما تشهد بذلك مختلف المصادر التي تجمع أن الحرفيين في الجزائر كانوا موزعين على نقابات حسب التخصص بحيث تجد النجارين في شارع والحدادين في آخر والشواشين في ثالث والصباغين في رابع والدباغين في خامس(25) .. وحسب نفس المصدر فلقد كانت كل نقابة تسير من قبل أمين ينتخب إنتخابًا ويختار لما يمتاز به من خبرة وحكمة وحسن سلوك. ولكل نقابة قوانينها وأعرافها يسهر الأمين على تنفيذها ويعاقب المخالفين حسب تجاوزاتهم .. وللأمناء مجتمعين مكانة مرموقة لدى الحكومة المركزية، أما أمين الأمناء فإنه يحضر الاجتماعات مع السلطات العليا ويشارك فعليًا في اتخاذ القرارات سواء منها الاقتصادية أو السياسية(26).

وبالاضافة للصناعة التقليدية كانت الايالة تهتم كثيرًا بالمناجم مختلفة المعادن وتولي رعاية خاصة لصناعتين كانتا في تلك المرحلة أساستين وهما صناعة الاسلحة والذخيرة وصناعة السفن(27) .. وذلك قصد تحقيق تفوقها

(24) فونتور دي باراديس (الجزائر في القرن الثامن عشر)، ص 21.
(25) (26) أندري بريناك، أندري نوشي (الجزائر بين الحاضر والماضي).
(27) فونتور دي باراديس (الجزائر في القرن التاسع عشر)، ص 21.

الاستراتيجي للقيام بدور حماية ساحل شمال افريقيا الاسلامي من أطماع الاستعماريين الأوربيين الذين ما انفكوا يهاجمون السواحل أو البواخر الاسلامية .. فكان تحصين الاسطول الجزائري مسألة في غاية الأهمية في هذا الاطار حيث كانت مهامه تتعدى الدفاع عن ساحل شمال افريقيا الى نجدة الايالات العثمانية الأخرى التي كانت تتعرض للعدوان الأوربي.

وفي مجال التجارة فإن المصادر على اختلاف لغاتها ومقاصدها تثبت بأن الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي كانت تقيم علاقات تجارية مكثفة مع مرسيليا ومع الايالات الأخرى في الخلافة العثمانية ومع أوروبا الغربية[28]. حيث كانت هذه التجارة تدر على البلاد أرباحًا كثيرة شأنها شأن الزراعة والصناعة تستثمر في ميادين كثيرة.

ولم تكن افريقيا أو أوروبا تمتلك من الموانيء الهامة إلا مواني الجزائر ومنافذ أخرى على البحر والبر (كما يورد ذلك أصحاب كتاب الجزائر بين الماضي والحاضر السالف الذكر) .. وعندما اقتنعت أوروبا ولو مؤقتًا أن لا فائدة من غزو الجزائر اتجهت اتجاهًا الى توقيع معاهدات سلام واتفاقيات تجارية منذ منتصف القرن السابع عشر .. وفي القرن الثامن عشر شرعت كل من السويد والولايات المتحدة[29] واسبانيا في إقامة علاقات تجارية مع الجزائر .. فتضاءلت لذلك عمليات التجول البحري المسلح للاسطول الجزائري.

وتدعمت عملية التجارة الخارجية في عهد الداي حسين حيث دخل في توقيع معاهدات مع البرتغال وجدد معاهدة مع الولايات المتحدة[30] .. حيث وسطت هذه الأخيرة الداي لدى باشا طرابلس ..

(28) د. الزبيري العربي (التجارة الخارجية للشرق الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي).
(29) سعد الله أبو القاسم (آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر)، الجزء الأول، ص 287.
(30) الوثائق البحرية، ص 107، إعداد وزارة البحرية الامريكية.

ولقد كان التاجران اليهوديان (بكري) و (بوشناق) سمساري العلاقة التجارية مع فرنسا استخدمهما الداي في تجارته الخارجية.

وسيأتي الحديث عن الوضع العلمي والثقافي خلال الحديث عن الحملة وما استهدفته.

ج) نقاط الضعف والخلل في الجبهة الداخلية :

1 — بروز مراكز القوي : حيث توزعت السلطات على الأقاليم الثلاثة (الجزائر — قسنطينة — وهران) هذا من جهة مما كان يحرم الايالة من تصور للتطوير شامل .. ومن جهة أخرى أصبحت الايالة تتحرك سياسيًا بعض الأحيان وفق مصالحها الخاصة بغض النظر عن الخط العام لسياسة الخلافة العثمانية تجلى ذلك في موقفها من فرنسا عندما اعتدت على مصر في أواخر القرن الثامن عشر[31].

2 — ظهور القلاقل من قبل الوجى منذ تحولت تسمية الداي من قبل السلطان الى انتخابات من طرف العسكريين وذلك في عهد آخر باشا معين سنة 1711 .. واشتغال الأهالي والسلطات بالحروب والفتن .. وهذه أمور لا تساعد على تحقيق التفوق الاقتصادي والتطور الصناعي مهما كان نوعه[32] .. وهي مربكة لمجمل النشاط الاجتماعي.

3 — حسن النوايا والسذاجة التي كانت تسم توجه السلطات في الايالة في العلاقات الدولية حيث كانت الدول الأوربية والولايات المتحدة ومنذ زمن بعيد تتربص بالجزائر الدوائر متحينة فرصة مناسبة للانقضاض على الجزائر كمدخل لافريقيا وشمالها.

(31) دوفال ألبير (الريس حميدو) تعريب العربي الزبيري، ص 36-41.
(32) الزبيري العربي (مدخل الى تاريخ المغرب العربي)، ص 128.

4 ــ اعتماد وسائل بدائية في التجارة الخارجية قائمة على عنصرها البسيط : الاستيراد والتصدير في حين كانت الدول الأوربية تتنافس على احتكار التجارة الدولية واحتلال الاسواق العالمية عن طريق مؤسسات كبرى منتشرة في سائر أنحاء العالم مثل الشركة الهندية والشركة الملكية الافريقية .. واستخدام تاجرين يهوديين مرابيين في ضبط العلاقة التجارية مع فرنسا.

5 ــ عدم إدراك ما كان يدور على الضفة الأخرى من البحر المتوسط .. حيث النهضة الصناعية الغربية التي تدفع المؤسسة السياسية الى وضع استراتيجية تلائم هذه النهضة التي لا يمكن أن تستمر الا على ثروات الآخرين المجانية .. وكانت الأمة مقابل ذلك مطمئنة لاساطيلها وخزائن أموالها ظانة بأن هذا يكفي لمواجهة الهجمة وأطماع الأوربيين !.

الباب الثالث

التحريض والتعبئة للحملة الفرنسية

على أرضية الارادة الدولية وضمن التوجه الأوربي الجاد القاضي بإسقاط الحالة الجزائرية المعرقلة للمشاريع الأوربية في أوروبا وشمال افريقيا .. على ضوء هذه جميعه عملت الادارة الفرنسية على الاستفراد بهذا الموقع الاستراتيجي ضمن مناطق توزيع النفوذ بينها وبين الامبراطورية البريطانية والتي كانت جادة هي الأخرى في الاستحواذ على الجزائر .. وسنكتفي في هذه العجالة بالاشارة الى خط التحريض العام الذي قامت به المؤسسة الفرنسية باعتبارها المسؤول المباشر عن الحملة الاستعمارية والعوامل التي صاغت هذا الخط.

1 ــ العامل الصليبي : لقد كان هذا العالم دافعًا محرضًا هامًا لصالح الحملة الفرنسية كما كان في كل الحروب الصليبية القديمة فها هو الكونت (كليرمون تونير) وزير الحربية يرى أن الحملة ضرورية وممكنة في نفس الوقت وختم تقريره التفصيلي : «انها حرب صليبية هيأتها العناية الإلهية لينفذها الملك الفرنسي الذي اختاره الله ليثأر من أعداء الدين والانسانية ــ المسلمين ــ» وأضاف تونير مخاطبًا الملك : «لعل الوقت سيجعل من حظنا نحن الفرنسيين تمدين الجزائريين بجعلهم مسيحيين»[33].

(33) ألفريد ويتمون، مرجع سابق، ص 150-153.

وجندت الكنيسة الكاثوليكية آلاف المتطوعين لهذا الواجب (المقدس) واجب التحريض والتعبئة الدينية ضد (الكفار ــ المسلمين ــ أعداء الدين والانسانية) .. واندفعت جحافل المنصرين و (الآباء البيض) مترافقة خطوة بخطوة من أول يوم تم الاعداد فيه للحملة ومع دخول جحافل الغزاة من العسكر .. وفي اللحظة التي رفع فيها العلم الفرنسي على قصر الحكومة بالعاصمة الجزائرية تم تحويل مسجد كتشاوة العظيم الرابض أمام البحر خلفه حي القصبة العتيق في عاصمة الجزائر الى كاتدرائية وحضر هذا «التدشين» كبار قساوسة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية[34] وفي الوقت نفسه حرقت مكتبة الجزائر الزاخرة بكتب الفقه الاسلامي ومختلف العلوم .. وسيستمر [illegible] بتصاعد بعد الحملة أيضًا.

2 ــ الدافع السياسي الاقتصادي : إنّ أهمية الجزائر لفرنسا أمر لا يحتاج إلى توضيح ويكفي القول[35] : (إنّ الجزائر كانت أساسية لفرنسا من عدة وجوه لايجاد سوق واسعة لبضائعها ومصدرًا للمواد الخام ويد عاملة رخيصة وميدان يتدرب فيه جيشها ومواقع استراتيجية مطلة على البحر الأبيض من جهة والصحراء الكبرى من جهة أخرى). 19

لذلك شنَّ السياسيون المتطرفون الذين كان بأيديهم زمام الحكم في عهد الملك شارل العاشر حملة سياسية عنيفة على الداي منكرين تدخله في أماكن نفوذ فرنسا في الشاطيء الجزائري الشرقي .. وصعد وزير خارجية فرنسا وسفراؤها ادعاءاتهم وحربهم السياسية على الجزائر مدعين أن الجزائر تنتهك حرمة منشآت فرنسا التجارية.

(34) السيد محسن «مسجد كتشاوة»، مجلة العالم.

(35) د. فلانزي أوتو، ب. «سياسة فرنسا نحو الجزائر في القرن 19 م»، ترجمة د. أبو القاسم سعد تلله، ص 90 من كتاب (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر)، الجزء الثاني.

ومن جهة أخرى قامت فئة الساسة الفرنسيين الاقطاعيين والمترفين بدورٍ هامٍ في إذكاء التحريض والتعبئة المعنوية والمادية للحملة من أمثال قنصل فرنسا بالجزائر ووزير خارجية فرنسا وأمثالهم كثير.

ووقفت الأوساط التجارية وبصفة خاصة الاوساط المرسيلية مع هذه الطبقة السياسية المستفيدة .. ومن وراء الجميع وقفت الحكومة التي كان يترأسها وقتذاك ــ فيلال ــ الذي كان يقود الحملة إعدادًا وتحريضًا حيث كان معمرًا ــ إقطاعيًا ــ في جزيرة «بربون» التي أصيبت بالأزمة التي لحقت بالمستعمرات الفرنسية[36].

ولقد عبر الجنرال (روبرمون) عن وجهة نظر الجيش الفرنسي وذلك في خطاب ألقاه في الغرفة التجارية المرسيلية أمام صناع الحرير الليونيين (Lyonnais) والمهتمين بتسويق أقمشتهم حيث قال : «إنّ فرنسا ستحتل الجزائر لتأسيس مستعمرة ولربما دولة تحت حكم أمير فرنسي»[37].

3 ــ استغلال الظروف الحساسة لضرب الخلافة واحتلال الجزائر :

ولايات الخلافة وإيالاتها شهدت عبر القرون الفائتة حالة من التماسك والتساند في مواجهة هجمات الصليبيين التي لم تنته .. وجاءت الفرصة بانشغال جزء هام من الأسطول الجزائري الذي هبَّ لانقاذ الاسطول العثماني في اليونان ليتم تحقيق هدفين في آن واحد : الهدف الأول عدم امكانية تواصل المدد من الجزائر للاسطول العثماني وفي هذا تحقيق لهدف صليبي عام أجمعت عليه المعاهدة الموقعة من الدول الأوربية والقاضية بإرغام الخلافة

(36) (الجزائر بين الماضي والحاضر)، مرجع سابق.

(37) نفس المصدر.

الباب الأوَّل

حصار سنة 1827 ظروفه وسير أحداثه

بعد الذي تقدم أصبح واضحًا أنّ احتلال الجزائر قرار دولي وإرادة غربية محتكمة لعوامل سياسية واقتصادية ومدفوعة بدافع عقائدي صليبي .. وكان لا بدّ من سيناريو لهذه العملية حيث قام القنصل الفرنسي بالتطاول مرات عدة وذلك، بتسويفاته ومما طلاته عن تسديد الديون فظهرت القصة كلها فيما بعد ــ على الطريقة الفرنسية ــ على أنها خلاف بين القنصل والداي وإهانة الداي للشرف الفرنسي وذلك بضربه القنصل بمروحة كانت في يده.

أ) أسباب الحصار وظروفه :

في يوم 15 يونيو/حزيران 1827 أمر ملك فرنسا شارل العاشر بأن تحاصر سواحل الايالة الجزائرية حصارًا مشددًا رافعًا شعار : (ضرورة اعتذار الداي لفرنسا على إهانته لقنصلها) .. وهذا بمثابة قفز عن المطالب الجزائرية المتكررة بتسديد ديونها المستحقة عند فرنسا وبمثابة تعمية وتضليل عن الأهداف والاسباب الحقيقية لهذا الحصار.

ويوجز الدكتور محمد العربي الزبيري في كتابه (مدخل الى تاريخ المغرب العربي، ص 106–110) أهم الدوافع الأساسية لهذا الحصار :

1 ــ انتهت المفاوضات بين ممثلي الداي والحكومة الفرنسية بوثيقة وقع عليها لويس الثامن عشر يوم 28 أكتوبر 1819 اعترفت فرنسا بموجبها بأن للجزائر دينًا قدره تسعة ملايين فرنك ذهب يدفع مشاهرة في ظرف عام واحد ابتداءً من فاتح مارس سنة 1820، الا أن فرنسا لجأت الى كثير من الحيل والمماطلة .. فطالب الداي بالتصفية النهائية للديون .. وظنت فرنسا أن حصارًا للجزائر سيثير الأهالي على حاكمهم ويتشكل وضع اداري سياسي جديد يضرب صفحًا عن الماضي.

2 ــ أرادت فرنسا تدعيم اميتازاتها التي كانت تحظى بها وأن ترغم الايالة على اعفاء الفرنسيين من الرسوم الجمركية مستغلة في ذلك الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية غير المستقرة في الجزائر بعد تفشي وباء الطاعون الذي أتى على أكثر من نصف سكان الجزائر.

3 ــ هزيمة نافرين التي قضي فيها على معظم الاسطول الاسلامي افقدت الجزائر خيرة ضباطها البحريين .. فاستغلت فرنسا هذا الظرف.

4 ــ الفوضى والاضطراب السياسي والاجتماعي الناتجان عن إلغاء الحرس الوطني والحد من الحريات الفردية وحرية الصحافة على وجه الخصوص .. وإفلاس الميزانية إفلاسًا كليًا .. كل هذا كان دافعًا للبحث عن مخرج خارج الحدود.

5 ــ اشتركت الجزائر مع الأسطول العثماني لاخماد التمرد اليوناني .. وفرنسا عضو في المجموعة الأوربية التي أبرمت حلفًا لارغام الدولة العثمانية الاعتراف بالانشقاق اليوناني .. من هنا جاء الحصار لا شغال الجزائر عن امكانية إمدادها للأسطول العثماني ببحرية جديدة.

6 ــ أرادت فرنسا أن تسد الطريق في وجه غيرها من الدول الأوربية الطامعة في ثروات الايالة وخيراتها وأن تحتفظ بها لنفسها فتحقق أحلامًا طالما خامرت قادتها.

ب) سير أحداث الحصار :

وبمجرد ما أعلن الحصار على شاطيء الجزائر جمع الداي ما تبقى من بحارته وكلفهم بتدبير أمر المعركة .. ثم أمرهم بتهديم المؤسسات الفرنسية في عنابة والقالة ولكن الفرنسيين كانوا قد حملوا معهم كل شيء ولم يتركوا إلا سبعة مدافع غير صالحة للرمي كما ورد في إحدى رسائل أحمد باي وأحست فرنسا بهذه الصفعة الأخيرة فأرسلت موفدًا من طرفها (رمبار) ليتفاوض مع أعيان قبيلة أولاد نهد لاقامة مؤسسة جديدة في القلب الا أن الحاج أحمد تصدى لهذه المناورة وقضى عليها قبل أن يحدث أي إتفاق.

وجدت فرنسا أن المسألة ليست كما تصورتها .. إذ كانت تعتقد أنه وفق الظروف التي تعيشها الايالة سيضطر الداي سريعًا لتوقيع إتفاقية .. إلا أن أملها هذا خاب بتصدي الداي بحسم للحصار ومعه الباي أحمد إذ أعلن النفير العام وعدم الخضوع للمطالب الفرنسية. فلجأت الادارة الفرنسية الى الباب العالي تستعين به للخروج من الورطة حيث قد استغلت الدبلوماسية البريطانية هذه الوضعية فنشطت اتصالاتها بالايالة وذلك للحصول على امتيازات تجارية فيها ..

وفي مستهل شهر أغسطس أي بعد شهر ونصف من الحصار قدم سفير فرنسا في اسطنبول مذكرة الى الباب العالي يطلب فيها تدخل الحكومة العثمانية لفض النزاع، غير أن رئيس الكتاب لم ير أي نوع من الشرعية فيما قامت به حكومة باريس وأبى أن يتسلم المذكرة[1].

(1) د. الزبيري العربي (مدخل في تاريخ المغرب العربي)، ص 111.

هذا في الحين الذي كان فيه الجزائريون يواصلون تصديهم للمحاصرين واستطاعوا في أقل من شهر أن يلحقوا هزيمتين بالاسطول الفرنسي وقعت احداهما يوم 22 سبتمبر سنة 1827 ووقعت الثانية يوم 15 أكتوبر وعندما بلغ الخبر الى باريس أمر الملك شارل العاشر بإرسال وحدات بحرية أخرى ليصل عددها جميعًا أكثر من عشرين بارجة. ومع ذلك فإن التجار من الأهالي ظلوا يخرجون بسفنهم الصغيرة ليلًا فيعترضون سبيل مراكب الفرنسيين التجار يغنمونها ويبيعونها في تونس أو المغرب[2].

وفي سنة 1828 رغم معارضة المجلس الفرنسي الجديد لسياسة الحكومة تجاه الجزائر ترى إلاأن شارل والمتطرفين رفضوا رفع الحصار .. وفي نفس العام سجل الجزائريون انتصارين هامّين الأول في 22 مايو (أيار) عندما هجم الفرنسيون على ميناء المرسى الكبير في وهران والثاني على مقربة من مدينة الجزائر حيث غنم الجزائريون سفينتين محملتين بالعتاد والمتاع وأغرقوا ثلاثة قوارب برجالها[3].

وفي سنة 1829 تأكد لفرنسا انها وقعت في أزمة حقيقية فأرسلت وفدًا إلى الجزائر برئاسة (دولابرو تورنار) يحمل اقتراحات جديدة لابرام الصلح. ومن جملة هذه الاقتراحات أنّ الحكومة الفرنسية تقدم أموالا كثيرة للداي مقابل اعتذار رسمي .. غير أن الداي رفض الانقياد لهذه العروض ..

اتصلت الحكومة الفرنسية بمحمد علي والي مصر المشبع بأطماع الزعامة والمخترق فكريًا والخارج عن الخلافة العثمانية .. وعرضت عليه جميع المساعدات المادية والمعنوية إن قبل باحتلال الجزائر.

(2) (3) نفس المصدر، ص 112.

ودخل محمد علي مفاوضات طويلة بعد أن أعرب عن موافقته للعرض[4] .. وصادق المجلس الفرنسي على تزويد محمد علي بمبلغ مالي قدره ثمانية ملايين فرنك كهبة أقرضه عشرين مليونًا أخرى يرجعها للخزينة الفرنسية في ظرف لا يزيد عن ثماني سنوات ابتداء من يوم دخوله الى الجزائر ..

وعرضت فرنسا هذا الأمر على الباب العالي للحصول على موافقته، ولكن رئيس الكتاب (وهو بمثابة وزير خارجية الخلافة) رفض هذه الفكرة بكل شدة وذكر (أن الجزائر قطعة من الخلافة العثمانية لا يحق لأحد أن يتدخل عسكريًا في شؤونها)[5] .. وأرسل السلطان (طاهر باشا) إلى محمد علي يخبره بعدم موافقة الباب العالي على مشروع فرنسا .. معتبرًا ذلك خيانة للأمة الاسلامية وتواطؤًا مع المسيحية ..

عندئذ عدلت فرنسا مشروع المعاهدة الفرنسية وجعلت لنفسها التفرد بتسوية القضية الجزائرية وألغت الهبة التي تقررت لمحمد علي .. تاركة له الاستيلاء على طرابلس وتونس .. فرفض محمد علي هذا التعديل برسالة كتبها يوم 29 شعبان 1245 هجرية الموافق ليوم 22 فبراير (شباط) سنة 1830[6].

وفي 12 مارس (آذار) سلم وزير خارجية فرنسا (دوبولونياك) مذكرات رسمية الى جميع السفارات الأوروبية في باريس يؤكد فيها أنّ بلاده قررت إرسال حملة عسكرية على الجزائر لانهاء المشكلة القائمة بين البلدين منذ ثلاث سنوات.

(4) نفس المصدر، ص 113.
(5) نفس المصدر، ص 114.
(6) نفس المصدر، ص 115.

في نفس الحين أرسلت رسالة الى قائد الحصار بالسماح لطاهر باشا في الدخول آمنًا الى مدينة الجزائر(7) .. وذلك إمعانًا في مخادعة الخلافة والباب العالي حتى لا يتسرب الشك في نوايا فرنسا وتثق بأن الادارة الفرنسية تسعى الى انهاء القضية سلميًا فلا تعمل على الاستعداد للدخول إلى جانب القوات الجزائرية .. أو تحريض الايالات العثمانية الأخرى لمحاصرة المصالح الفرنسية وإعلان الحرب عليها.

ج) نتائج الحصار :

لقد ظهرت نتائج الحصار جلية سواء على الوضع الجزائري أو على الوضع الفرنسي وبصورة مباشرة كما أنه حقق نتائج دولية على الصراع بين الخلافة والدول المسيحية في قضية اليونان، وأيضًا في دائرة صراع النفوذ بين الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية.

فعلى الصعيد الجزائري ساهم الحصار في تجميد الاقتصاد الجزائري بتعطيل الموانيء الجزائرية وإيقاف العمليات التجارية مما ضرب ميدان الزراعة بقسوة.

وعلى الصعيد الفرنسي حرم الجنوب الفرنسي من أكثر من مليون قنطار من الحبوب وبعض المواد الأولية التي تشغل معاملها .. وتسبب في خسائر فادحة لشركة (باري) التجارية ..

ثم إنه وضع على الصعيد الدولي حدًا لنشاط الايالة وتأثيرها على التجارة الدولية .. وشغلها عن امداد الاسطول الاسلامي .. ثم في دائرة صراع النفوذ وضع حدًا للتنافس الفرنسي البريطاني التقليدي في الاستفادة من موقع الايالة الاستراتيجي .. وأخيرًا فتح بابًا للمسيحية تدخل منها الى افريقيا لتحارب الاسلام.

(7) نفس المصدر، ص 116.

الباب الثاني

الهجوم الفرنسي

«لقد قتلنا أناسًا كانوا يحملون رخص التجول وذبحنا سكان مدن وقرى مشكوك فيهم وظهر فيما بعد أنهم كانوا أبرياء فحاكمنا رجالًا مشهورين في البلاد بورعهم وتقواهم ورجالًا محترمين لا ذنب لهم الا أنهم تشفعوا لدينا دفاعًا عن أبناء جلدتهم وتعرضوا لبطشنا وباؤوا بغضبنا»(8).

في 14 يونيو (حزيران) 1830 نزلت القوات الفرنسية بقوة تعدادها (37) ألف رجل في منطقة (سيدي فرج) .. وفي رأي أجيرون أنّ القوة الجزائرية التي واجهت الفرنسيين كان تعدادها (15) ألف جندي بالاضافة الى آلاف من المتطوعين. وفي مصدر آخر فإن عدد الجنود الجزائريين لم يتجاوز الستة آلاف جندي(9) ..

وعند هذا الموقع ــ (سيدي فرج) ــ الذي يبعد حوالي عشرين كيلومترا إلى الغرب من العاصمة ــ الجزائر .. لا توجد الا بضعة مدافع وقليل من القوة العسكرية فلم تلق القوات الفرنسية عند نزولها بسيدي فرج مقاومة تذكر.

(8) من تقرير (اللجنة الإفريقية) التي أرسلتها فرنسا إلى الجزائر مرفوع عام 1833 الى الحكومة الفرنسية.

(9) د. الخطيب أحمد (حزب الشعب)، ص 18.

وبرغم علم الداي بأنّ هناك إعدادًا فرنسيًا لحملةٍ على الجزائر قبل وقوعها.. وبرغم الحصار الذي استمر ثلاث سنوات والذي كان يعني حالة حرب قصوى .. يبدو أن الداي لم يقدر حجم القوة التي تمتلكها هذه الحملة وما تستهدفه .. فلقد كان يتصور أنها كسابقاتها من الحملات الأوربية يساعده على هذا الظن كثرة رسل المفاوضات بين الطرفين.

فوجيء الباشا بنزول القوات الفرنسية في سيدي فرج .. فقواته لا تكفي لحفظ الأمن داخل المدينة حيث الاضطرابات المتكاثرة التي انتهت بإعدام الآغا يحيا وعزل المفتي الحنفي بعد وقيعة اشتركت في صناعتها مجموعة من المنتفعين أوشت بها لدى الباشا عن الآغا يحيى القائد العسكري المحنك وذي الخبرة العسكرية الواسعة(10).

كلف الباشا صهره الآغا إبراهيم ــ سيء السمعة ــ بقيادة الجيش .. وقام الباشا ببعض الاستعدادت الظاهرية ولكنه وقع في أخطاء قاتلة .. فبدل أن يدخل القوات التي وصلت من وهران وقسنطينة والتيطري وميزاب في صد الهجوم الفرنسي من سيدي فرج أبقاها بعيدة عن الصراع في العاصمة بعدة كيلومترات حيث كان على ثقة بجنوده وتحصيناته وكان يعتقد بأن القصبة لا تهزم أبدًا.

وتشبث الداي بالآغا بالرغم من هزيمته وخوره وجبنه وذلك في جو مشحون بالمؤامرة على الداي أو على الأقل إحساسه بهذا الجو .. إلا أن هروب الآغا ابراهيم واختفاءه بمجرد علمه بتقدم الجيش الفرنسي من (أسطا علي)(11) مرورًا بسيدي فرج(12) و (سيدي خلف) .. جعل الداي يعزله ..

(10) د. سعد الله أبو القاسم (محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث)، ص 35.

(11) يطلق الجزائريون على هذا الموقع اسم (سطاولي) وهو يبعد عن العاصمة (10) كيلومترًا تقريبًا.

(12) وهو مقام متواضع لأحد الأولياء اسْمُهُ فرج.

ودعا الداي المفتي وأعطاه سيفًا وأمره بجمع الشعب وإقناع الناس بالجهاد دفاعًا عن البلاد بالرغم من فساد بعض كبار الموظفين .. إلا أنّ المسألة كانت في غير وقتها وقد فات أوانها .. واتخذ الداي قرارًا آخر بتعيين مصطفى بومزراق قائدًا للجيش كل ذلك وسط المعركة مما أربك الوضع أكثر مما كان عليه !!.

لقد كانت بطانة الداي بطانة سوء حيث الخزناجي المتآمر الذي فرق بين الداي من جهة والآغا يحيى والمفتي الحنفي من جهة أخرى ليستفرد فيما بعد بالداي طيب القلب أو (المغفل)(13).

وبعد معركة طاحنة استولى الفرنسيون على قلعة (مولاي حسن) .. حيث سلمها الخزناجي المتآمر .. إزاء هذا الوضع الجديد جمع الباشا أهل الحل والعقد في مدينته واستشارهم فيما يمكن عمله في الوقت الذي بدأت القوات الفرنسية في توسيع رقعة سيطرتها .. لكن ترددهم أربك الموقف ودبت روح الهزيمة شيئًا فشيئًا في أوصال الجهاز الاداري والجهاز الاجتماعي أيضًا .. ووجد تيار الحل السلمي الذي يدافع عن مقولة [الصلح والسلام مع فرنسا] فرصته للاستجابة للبيان الفرنسي الذي وزع مع بداية الحملة والذي جاء فيه : [أما أنتم يا شعب المغاربة اعلموا وتأكدوا يقينًا أني لست آتيًا لأجل محاربتكم، فعليكم أن لا تزالوا آمنين ومطمئنين في أماكنكم .. وكل ما هو لكم صغيرًا كان أو كبيرًا فيبقى على ما هو عليه ولا يتعرض لشيء من ذلك جمعيه أحد من قومنا .. ثم إننا نضمن لكم أيضًا ونعدكم وعدًا حقيقيًا مؤكدًا غير متغير ولا متأول أن جوامعكم ومساجدكم لا تزال معهودة معمورة على ما هي عليه الآن وأكثر، وإنه لا يتعرض لكم أحد في دينكم وعبادتكم،

(13) سعد الله أبو القاسم (محاضرات في تاريخ الجزائر)، ص 40–43.

فإن حضورنا عندكم ليس هو لأجل محاربتكم، وإنما قصدنا باشتكم[14] الذي بدأ وأظهر علينا العداوة والبغضاء ...][15]. وقد وزع هذا البيان باللغة العربية عن طريق أعوان سريين .. وقد ترك أثرًا سيئًا في أوساط الناس .. وانتهى الأمر بأن طلب عدد من أعيان المدينة من الداي (توقيع الاتفاقية مع الفرنسيين الذين لن يحنثوا بوعدهم)[16].

23

استسلمت الحكومة الجزائرية في 5 يوليو (تموز) من نفس العام ووقع الداي حسين والكونت (دي بوربون) القائد الأعلى للجيش الفرنسي معاهدة عرفت باتفاق الجزائر أو «اتفاق الهدنة» كما أسماها بعض المؤرخين — حسب ملاحظة الدكتور أحمد الخطيب —.

وقفة مع الاتفاقية : يبدو أن اتفاقية الجزائر لم تكن في الواقع أكثر من اتفاقية تسليم عسكري بين غالب ومغلوب، وفقًا لما جاء في البند الأول منها : «عند الساعة العاشرة من صبيحة يوم 5 يوليو يسلم الى الجند الفرنسيين حصن القصبة وسائر الحصون الأخرى التابعة للجزائر ومرسى هذه المدينة» وأهم ما في هذه الاتفاقية هو البند الخامس الذي ينص على ما يلي : «إقامة الشعائر الدينية المحمدية تكون حرة ولا يقع أي مساس بحرية السكان من مختلف الطبقات ولا بدينهم ولا بأملاكهم ولا بتجارتهم وصناعتهم وتحترم نساؤهم والقائد العام يتعهد بذلك عهد الشرف».

يتبين من هذه الاتفاقية أنها لم تنص على تحويل السيادة الوطنية من قبل الدولة العثمانية صاحبة السلطة القانونية على الجزائر ولا حتى التنازل عنها

(14) باشتكم : أي باشا الجزائر الداي حسين.
(15) د. سعد الله أبو القاسم (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) الجزء الأول، ص170–180.
(16) د. سعد الله أبو القاسم (محاضرات في تاريخ الجزائر)، ص 45–50.

وإنما كانت، كما يبدو من نصوصها، اتفاقية تسليم عسكري مقابل وعد فرنسي رسمي بعدم المساس بحرية السكان والحفاظ على تقاليدهم الدينية والاجتماعية[17].

ودخل الجيش الفرنسي القصبة وكل القلاع التي حول المدينة كما دخل الميناء .. نعم هكذا تحقق بواسطة هذه الاتفاقية لفرنسا ما لم تحققه الملكة إيزابلا القشتالية الاسبانية الحاقدة ولا مؤتمر فيينا (1815) ولا مؤتمر إيكس لاشابيل (1818) حيث تكتلت كل أوروبا وتحالفت ضد الجزائر ..

احتلت مدينة الجزائر إحتلالًا بشعًا. نهبت محالها التجارية وانتهكت حرمة أعراض أهلها. ويثبت المؤرخون فظائع هذا الاحتلال الذي لم يشبهه احتلال أي مدينة حسب اعترافات المؤرخين الفرنسيين أنفسهم .. وكما جاء في تقرير (اللجنة الافريقية).

لقد تم للفرنسيين الاستيلاء على مدينة الجزائر. وكان هذا ايذانا ببدء تنفيذ الحلم الاستعماري. فها هو قائد الحملة (دي بورمون) بعد دخوله الى العاصمة منتصرًا يقول : «إنّ كل أنحاء المملكة الجزائرية ستخضع لنا خلال خمسة عشر يومًا دون أية طلقة نارية»[18]. وأرسل (دي برمون) تقريرًا إلى الوزير دي بولنياك يوم 13 يوليو 1830 يلح على ضرورة الاحتفاظ بالجزائر العاصمة حتى الى الشلف وكذلك بمقاطعة قسنطينة[19].

وها هو ذا وزير البحرية (دوسي) الذي أمر وحداته البحرية أن تحتل كل المواني‌ء الجزائرية[20] وكذلك تصريح دو روفيكو[21] : «إنه بدون السيطرة على مدينة قسنطينة ومنطقة الشرق لا يمكن البقاء لفرنسا بالجزائر»[22].

(17) د. الخطيب أحمد (حزب الشعب الجزائري)، ص 19–20.
(18) (19)، (20)، (21)، (22) عميراوي حميدة «جوانب من السياسة الفرنسية وردود الفعل الوطنية في قطاع الشرق الجزائري — بداية الاحتلال»،ص 41–50 عن طريق عدة مراجع.

وقد سلك الكثير من رجال السلطة الفرنسية هذا المنحى وحاولوا تطبيق هذا اللون من السياسة؛ سياسة الاحتلال الكامل؛ فالدارس للآراء النظرية والتطبيقية، حول القضية الجزائرية يعرف أن أغلب الآراء كانت تدعو الى ضرورة الاحتلال الكامل للجزائر(23).

وبعد نجاح انتفاضة باريس 1830 ظهرت ثلاثة تيارات (جمهوري ــ ملكي متطرف ــ ملكي دستوري). وقد استغلت هذه الاتجاهات الثلاثة عامل الاحتلال ووظفته كوسيلة ضغط على حكومة لويس فيليب. ولقد كان مؤيدو الحملة والاحتلال الفرنسي شديدي القوة نظريًا وعمليًا في المجتمع الفرنسي والمجتمع الأوربي بشكل عام .. حيث باركت الدول الأوربية هذا الاجراء عدا بريطانيا التي فقدت بذلك الفرصة في أن تستحوذ هي على الجزائر، ولكنها أخيرًا اعترفت بالجزائر الفرنسية ..

نعود لمتابعة حركة الحملة على الأرض .. حيث توجه (دي بورمون) قائد الحملة لتوسيع الاحتلال في اتجاه البليدة التي تبعد خمسين كليومترًا غرب الجزائر العاصمة مستعينًا في ذلك بـ «مصطفى بومزراق» الذي حصل على وعد من القائد الفرنسي بحكم ذاتي يكون على رأسه. إلا أن أهل البليدة شنوا هجومًا منظمًا على الحامية العسكرية وفرّ (دي بورمون) الى مدينة الجزائر .. جاء كلوزيل قائدًا عامًا للحملة خلفًا لـ «دي بورمون» وذلك في شهر سبتمبر (أيلول) من نفس العام. وحاول كلوزيل إعادة الكرّة على (البليدة) ، إلا أنه لم يكن أحسن حظًا من سابقه وذلك على يد قوات المجاهد «بن زعمون» في نوفمبر (تشرين الثاني).

(23) حكم الجزائر (1831-1833) وتصرف كمسيحي متعصب أباد قبيلة العوفية وحول المساجد إلى كنائس، نفس المصدر ص 96.

قبل ذلك نظم كلوزيل صفوفه وبمساعدة عميله (مصطفى بومزران) استطاع احتلال مدينة (المدية) .. الا أنه أصبح أكثر إدراكًا أنّ الحرب صعبة وشرسة ولا يمكن بحال من الأحوال في الوقت الراهن التقدم نحو وهران أو قسنطينة .. فأرسل مبعوثًا لباي تونس يطلب منه نوابًا يحكمون قسنطينية ووهران على أن يدفعوا لفرنسا مليوني فرنك كل عام كضريبة وسال لعاب باي تونس لهذا العرض وأبرم اتفاقًا بذلك يوم 18 أكتوبر (تشرين الأول) 1830 وأرسل أميرين لكل من وهران وقسنطينة(24). ولكن حكومة لويس فيليب تراجعت عن هذه الاتفاقية وسحبت (كلوزيل) وعينت الجنرال (بيرتزين) قائدًا عامًا 1831 والذي حاول أن يحتل مدينة عنابة بحرًا إلا أنه فشل ..

أثناء حكم هذا الجنرال وأثناء أحداث البليدة والعاصمة ظهر (ابن السعدي) في منطقة الميتجة ــ وهي منطقة تقع غربي الجزائر العاصمة بمساحة تقرب عن (330 ميل مربع) وأخذ ابن السعدي يدعو الناس إلى الجهاد ويجمعهم في كتائب .. وانضم إليه الزعيم محيى الدين بن المبارك وحصلت معركة عنيفة في وادي الكرمة انتهت بانهزام الفرنسيين وتبعهم ابن السعدي وفرض عليهم الحصار في العاصمة وانتهى هذا الحصار باتفاقية بينه وبين الجنرال (بيرتزين) توجب فتح الجزائر العاصمة أمام أهالي المتيجة ..

سحبت الحكومة الفرنسية (بيرتزين) وبعثت الدوق (روفيجو) بقوات إضافية تبلغ (26) ألف جندي .. حيث أباد قبائل بكاملها في اقليم ميتجة ورحل البقية فقسّم الاراضي على المستوطنين الذين حلوا بمجرد دخول الجيش الفرنسي كما وصف شارل أندريه جوليان : «بعد دخول الجيش

(24) (مغامرة الحماية التونسية على وهران) مجلة تاريخ المغرب العربي / عبد الجليل التميمي.

الفرنسي أكبت السفن الآتية من مرسيليا وإسبانيا وإيطاليا جماهير غفيرة من الأوربيين لا ذمة لهم ولا ضمير، مجبولين على الشجاعة والمغامرة، مولعين بحب الدراهم والدنانير، فانتشروا كالبلاء المستطير متكالبين على بيع العقارات وشرائها وشاطرهم في تهافتهم على الارباح حتى بعض الأشخاص المحترمين متكالبين تكالب الجياع على القصاع يبيعون ويشترون خطفًا ونهبًا وسلبًا لا دين لهم الا الارباح الباهظة لا يهمهم كيف أتت ولا من أين أتت بلغ عددهم سنة 1831 خمسة آلاف شخص وبعد سنة 25 ألفًا منهم 2500 معمر»[25]. ولا يبتعد المؤرخ الفرنسي أجيرون عن وصف جوليان ويزيد عليه بأن المارشال «كلوزيل» المعمر المتشدد كان يحاول أن يجعل من سهل متيجة «مستودعًا للتسول الأوربي»[26]. وسيظهر فيما بعد كثافة هذه الحركة ــ الهجرة الاستيطانية أي عندما يصبح (بيجو) حاكمًا عامًا على الجزائر حيث صادر كل الأراضي الخصبة ووزعها على الأوربيين.

على الصعيد الرسمي في فرنسا انتهى الأمر بأن (صادقت اللجنة الافريقية التي شكلتها الحكومة الفرنسية وخولتها البت في كيفية التعامل مع الجزائر بسبعة أصوات ضد صوت واحد على توسيع الاستعمار تحت حماية الجيش الذي سيظل حاميًا لنجاح الفلاحة وازدهارها)[27].

نعود لابن السعدي الذي يواصل حربه ومقاومته للفرنسيين. ولم يتمكن (روفيجو) من إحكام الحصار عليه .. واستمرت المعركة بين كرٍ وفرٍّ أذاق ابن السعدي الفرنسيين وقائدهم صنوف العذاب فيها والتحق أخيرًا بالأمير عبد القادر عندما اعتزل رفيقه ابن زعمون العمل الجهادي.

(25) عباس فرحات (ليل الاستعمار)، ص 95.
(26) د. الخطيب أحمد (حزب الشعب)، ص 22.
(27) د. سجوبير (الجزائر في 1838)، ص 52.

وفي شهر يونيو (حزيران) 1833 عزل روفيجو عن ولاية الجزائر وعين مكانه (لاموريسيير) الذي حاول أن يخدع الأهالي بتنظيمات مدنيَّة .. في الحين الذي كان يتقدم فيه القائد العسكري بويه (BOYER) في اقليم وهران الغربي مستوليًا على (أرزيو) و (مستغانم) وبعض المناطق المجاورة لهما ..

وأخيرًا صدر عن البرلمان الفرنسي الموقف الصريح والموضح للهدف من الحملة الفرنسية «أنه لا بدّ من الاحتفاظ بالجزائر باعتبارها كسبًا قوميًا»[28] ولذلك أصدرت الحكومة الفرنسية في شهر نوفمبر 1834 قانونًا يحدد وضع الجزائر الاداري، وبموجبه أصبح القائد العام للحملة حاكمًا عامًا للمنطقة المحتلة[29].

إلا أنّ الأمر سيصطدم بمقاومة صلبة ففي الغرب الأمير الشاب عبد القادر الحَسَنِيّ وفي الشرق الحاج أحمد باي حيث استطاع كل منهما أن يعبيء صفوفه وقواه .. وهذا ما سنتابعه في الباب التالي.

(28) (29) د. بوعزيز يحيي (ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين)، ص 14.

الباب الأول

الأمير عبد القادر الحسنيُّ

«يجمع في شخصيته الفروسية البدوية وإلهام الاسلام وديناميكية القرن التاسع عشرة».
«إنَّه رجل العبقرية»

جاك بيرك
الجنرال بيجو

قبل البدء في البحث حول كفاح الأمير عبد القادر الحسني تجدر الاشارة الى ظاهرة تاريخية هامة تجلت في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين أو القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين .. وهي ظاهرة المقاومة الشعبية .. فهل من الصدفة أو من عوارض الأحداث التاريخية التي تحفظ ولا يقاس عليها : أن يستسلم الجهاز الحاكم والسلطة ويوقع الداي صك الاستسلام في أقل من شهر واحد .. وأن يثبت عبد القادر ابن الزاوية الفقيرة التي لا تملك خزائن ولا جيوشًا ؟! وأن يخضع الحكام والسلاطين ويتواطأ مع العدو كما حدث من باي تونس وسلطان المغرب .. وأن تصرخ

الجماهير وتقاوم وترفض وتجاهد حتى النفس الأخير ؟! هل من الصدفة أن تنهزم الجيوش الرسمية بأعتدتها وأسلحتها وأجهزتها في أيام قليلة .. وأن يستمر كفاح الأمة وجهادها أكثر من سبعين عامًا يذيقون فيها الأعداء أصناف العذاب ؟! ذلك يعني بوضوح أن السلطة تنهزم أمام العدو الخارجي عندما تكون معزولة عن الأمة، فطبيعة السلطة تحدد مصير معاركها وسيرتها.

وهكذا بعد أن تم للفرنسيين القضاء على الداي حسين .. حدث فراغ سياسي في البلاد وتوزعت المقاومة توزعًا جغرافيًا : في الوسط ابن زعمون وابن المبارك وابن سعدي، وفي الشرق الحاج أحمد باي وفي قسنطينة، وفي الغرب الفارس عبد القادر الأمير الشاب والذي سيوسع دائرة نشاطه إلى كامل البلاد.

لم تنجح مساعي أهل الغرب الجزائري في اقناع سلطان مراكش بالتدخل للذود عن ديار الاسلام .. فتطلع الناس إلى زعمائهم الدينيين من شيوخ الطرق الصوفية .. وكان الشيخ محي الدين بن مصطفى بن المختار الحسني الهاشمي أحد أهم هؤلاء الزعماء .. والشيخ محي الدين ينحدر من بيت شريف ترجع سلسلته الى بيت النبي الأعظم صلى الله عليه وسلّم .. وكان الشيخ قادريًا[1] يتمتع بتأييد الاتباع الأمر الذي ساعده في تنظيم هجمات من وقت لآخر منذ حلول الفرنسيين بمدينة وهران وحاصر المدينة عدة مرات وكاد في فترة ما أن يؤتي حصاره ثماره لولا خذلان الخونة له[2] .. وقد تمكن المسلمون تحت قيادته من قطع خطوط المواصلات على الجنرال (بويه) وحققوا بذلك انتصارات هامة سنة 1833.

(1) د. بوعزيز يحيى (الامير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري)، ص 196، الطبعة الثانية.
(2) العلوي محمد الطيب (مظاهر المقاومة الجزائرية)، ص 34.

وكان خليفته في معسكر سيدي الحاج مصطفى بن تهامي يتولى تنسيق أعمال الأغالكة ومراقبتها .. وانتشرت (الأغالكة) في كل المناطق التي تشرف عليها إدارة الأمير. وكان لهذه التشكيلات دور هام في ملاحقة الجنود الفرنسيين .. والمتطوعون ينقسمون إلى فرسان ومشاة ومن أبرز ملازمي الأمير وألمعهم سيدي محمد بن علال الذي كان على رأس خلافة (مليانة) حيث كان يشرف على خمسة أغالكة كل (أغاليك) به متطوعون من عدة قبائل .. تبلغ قوة سيدي محمد بن علال (3715) فارسًا و (8350) محاربًا مسلحًا من المشاة[7] .

الجيش النظامي : اعتمد الأمير المنادين العموميين يجوبون الأسواق فينادون في الناس لدعوتهم الى الدفاع عن الاسلام وعن الوطن ويتجندون وراء قائد الجهاد «الأمير عبد القادر أمير المؤمنين حامي الدين الذي تبدأ مملكته غرب وجدة، وتمتد شرقًا حتى تونس». فكان الناس يلبون نداء الجهاد ويتجندون مدى الحياة على اختلاف الأعمار[8] . وكان التجنيد يشمل حتى الاطفال أبناء الجيش الحقيقيين الذي كان يتكفل بإطعامهم وتحصينهم، وتربيتهم حتى يصبحوا أشداء قادرين على القتال.

وكان المتطوع يسجل اسمه لدى القائد بعد تأكيد العزم على التجنيد وارتضاء الحياة العسكرية فيحول الى أقرب الكتائب .. وكان الضابط الذي يستقبله يقدم له البدلة العسكرية ويقوم بإدراجه ضمن الجنود المسلحين.

ومن هؤلاء الجنود يختار أحسنهم وأشدهم مراسًا في المعارك ليكونوا قوة الفرسان .. وكان معظم الفرسان يكشفون بفخر واعتزاز عن آثار جروحهم

(7) نفس المصدر، ص 53.
(8) نفس المصدر، ص 56.

وعلى الجانب الجزائري يعلن الأمير : «.. ومن أجل ذلك، إذن تولينا هذه المسؤولية الهامة ــ على مضض شديد ــ آملين أن يكون ذلك وسيلة لتوحيد المسلمين، ومنع الفرقة بينهم، وتوفير الأمن العام إلى كل أهالي البلاد ووقف كل الأعمال غير القانونية التي يقوم بها الفوضويون ضد المسلمين، وصد وطرد العدو الذي اعتدى على بلادنا يريد أن ينحل أعناقنا بقيوده»(4) .

فكيف استمرت الحرب خمسة عشر عامًا ؟!! كادت أن تنهي أطماع الفرنسيين !؟ للاجابة على هذا السؤال ينبغي تحليل جبهة الأمير وشخصه لانهما بالتأكيد السبب الوحيد في إطالة الحرب .. كما كان التفوق الهائل العسكري للفرنسيين سببًا أساسيًا في انتمائها.

أ) الأمير رجل دولة وقائد استراتيجي

1 ــ الجيش والحصون : تظهر ديناميكية الأمير في هذا الجانب بشكل عظيم .. فهو بمجرد مبايعته على الجهاد أميرًا للبلاد نهض لانشاء جيش منظم مدرب مجهز تسانده جيوش الجماعات المحلية الراغبة في الجهاد .. وكان وهو يرى انهزام الجيوش الرسمية وضعف التنظيم عند الجماعات المحلية .. وتفوق العدو العسكري وأهداف العدو وأطماعه .. كان وهو يرى ذلك يخلص بنتائج هامة ترسم له أفق تخطيطه العسكري

وتنظيمه للجيوش وبنائه للحصون والمصانع العسكرية .. وهو إذ ذاك جميعه يعبر عن قدرة فائقة في التطوير المستمر والحشد والتعبئة منقطعة النظير لمحاربة الصليبيين .. وفي نفس الحين يقدم شهادة خالدة بأخلاق الجهاد على بشاعة الاعداء وجرائمهم.

(4) نفس المصدر والصفحة.

لقد ورث الأمير تقاليدًا عسكرية لدى الناس متواضعة جدًا كان المجاهدون بها مسلحين ببنادق وسيوف ومسدسات عددهم لا يزيد عن (1000) رجلٍ .. وهذا هو عدد الجيش الذي أسسه في (معسكر) وقد دربه بواسطة جندي ألماني هارب من فرقة اللفيف الأجنبي وقد أقام الأمير ثكنة عسكرية لفيلق قوي مقسَّم إلى كتائب وذلك بلباسهم وطعامهم.

وكان هذا الفيلق هو القوة التي يهاجم بها الأمير المراكز الفرنسية أو القبائل المتمردة أو المتواطئة مع المحتل. وكان جيش الأمير قبل محاصرة (عين ماضي) في شهر مايو (أيار) 1838 يتألف من (2230) رجلًا. (2000) مشاة، و (200) فارس و (30) مدفعيًا يستخدمون قذافين ميدانيين. وكانت أمتعة الجيش ينقلها (600) بعير، و (200) بغل(5) .

استغل الأمير فترة الهدنة التي فرضها على «ديميشال» ليضاعف مشترياته من السلاح فتحصل عام 1834 على (1110) بندقية وكميات كبيرة من الذخيرة واشترى كميات أخرى تبلغ (2000) بندقية من المغرب وصلته سنة 1838. وأنشئت معامل لصنع الأسلحة، ففي مدينة (تلمسان) مصهرة لصنع المدافع، وفي (مليانة) مصنع للبنادق والبارود(6) .

وخلال سنتي الهدنة أكمل الأمير بناء جيشه وتنظيمه .. وكان الجيش الذي خاض حرب المقاومة الكبرى من سنة 1839 الى سنة 1847 يتألف من قوتين رئيسيتين هما المتطوعون من القبائل والجيش النظامي ..

المتطوعون : جعل الأمير في كل قبيلة كبيرة أو مجموعة قبائل مسؤولًا عن تجميع المتطوعين يدعى «آغا» وأحاط المعسكر بسبعة (أغالكة) ..

(5) د. محفوظ قداسن (جيش الأمير عبد القادر تنظيمه وأهميته) ترجمة حسن بن مهيدي، ص 51 من مجلة الثقافة (75).

(6) د. محفوظ قداسن نفس المصدر (عن طريق الوثائق المحفوظة في فانسان هـ 235)، ص 52.

إلا أن الشيخ أحسَّ بكبر سنه وعدم قدرته على مواصلة قيادة الجهاد في تلك الظروف وصارح بذلك العلماء والأعيان الذين جاءوا يجددون البيعة له .. وقد وصف محمود بن حوَّا المجاهري هذه الحداثة : «ولما صار الناس في هرج ومرج وحيص بيص قام من وفقهم الله الهداية من رؤساء القبائل وكبرائها، وصناديدها وزعمائها، فتفاوضوا في نصب إمام يبايعونه على الكتاب والسنة فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل الا ذا النسب الطاهر، والكمال الباهر، ابن مولانا السيد محي الدين، فبايعوه على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم» وكانت صيغة البيعة على هذا الشكل : « .. بايعناه على السمع والطاعة، وامتثال الأوامر، ولو في الواحد منا أو في نفسه، وقدَّمنا نفسه على أنفسنا، وحقه على حقوقنا»(3).

ولقد تمت البيعة لعبد القادر بن محي الدين الهاشمي في نوفمبر 1833 وكان يبلغ من العمر حينذاك خمسة وعشرين عامًا إذ أنه من مواليد عام 1808 في قرية القيطنة التي تبعد عن مدينة (معسكر) عشرين كلم تقريبًا.

والآن كيف تمت المواجهة بين الأمير الشاب الذي تلقى تعليمه في زاوية أبيه وبين كبار قادة فرنسا الذين تلقوا تعليمهم في كبرى جامعات العالم وأكاديمياته العسكرية ؟ بين مجموعات من المجاهدين غير المدربين والفاقدين لكثير من الوسائل والأدوات وبين جيش منظم ومجهز بكل وسائل الفتك المتطورة ومخزونه مصانع ضخمة تضخ إليه بأحدث الانجازات.

على الجانب الفرنسي وقبل عامين يعلن (دي بورمون) : (أنّ كل أنحاء المملكة الجزائرية ستخضع لنا خلال خمسة عشر يومًا دون طلقة نارية واحدة) ..

(3) شارل هنري تشوشل (حياة الأمير عبد القادر) ترجمة د. أبو القاسم سعد الله، ص 60.

التي يتأهلون بها للعمل في صفوف الخيالة، وكاد جنود المدفعية يكونون في معظمهم من الأتراك والكراغلة الذين سبقت لهم الخدمة العسكرية في الايالة(9).

وكان للمشاة زيهم العسكري الخاص بهم [معطف بغطاء الرأس وصدرية وسروال وشاشية حمراء] ويتلقى الجندي قميصًا من الكتان الأبيض كل ثلاثة أشهر وزوجًا من حذاء جلدي .. أما الفرسان فكان زيهم مختلفًا عن زي المشاة إذ كان يشتمل على (صدرية من الجوخ الأحمر مع شارات سوداء وسروال وبدعية أحمرين مطرزين) .. أما جنود المدفعية فلهم نفس ملابس المشاة .. وكان الجندي يتلقى جعبة بها الخراطيش وما يلزمه من سلاح وحجر لزند وقارورة زيت لتشحيم السلاح .. أما الفارس فيتلقى جوادًا كامل التجهيز والعدة وعلى الفارس أن يعتني بفرسه تمامًا على اعتبار أنه ملكه .. وكان الضباط يفحصون أسلحة جنودهم كل أسبوع.

أما المدفعية فعدتها ضئيلة فهي من قطع غنمت من الجيش الفرنسي .. وكان الجيش هو الذي يتولى إطعام الجنود .. وكانت العائلات في المداشر وحتى الفقيرة منها تستضيف الجنود وتشاطرهم طعامها بل وكانت تعد الطعام في غالب الاحيان للمجاهدين إذ كان ذلك شرفًا لها وواجبًا .. وكان الجنود يتلقون راتبًا عسكريًا أكثر من راتب الجنود الفرنسيين، وكان الضباط يتلقون مكافآت مقررة في القانون حصة من الأموال أو الامتعة التي تغتنم في الغزوات .. وكانت كل خيمة تخصص لمجموعة رجال قوامها 25 نفرًا ينامون على حصير وزربية كبيرين(10).

(9) المصدر السابق، ص 56.
(10) نفس المصدر، ص 57.

كان المشاة مقسمين إلى كتائب قوام كل كتيبة مئة رجل، وكان تسلسل القيادة دقيقًا ومحكمًا للغاية إذ كان رئيس الكتيبة يعين انطلاقًا من مقاييس محددة : «فلا بدّ أن يكون القائد شجاعًا، منحدرًا من أسرة شريفة وأن تكون سوابقه طيبة وأن لا يتهم في شيء وأن يتصرف دون مواربة وأن يكون متدينًا، وأن يكون طيب القلب وثابت الجنان صبورًا حذرًا وذكيًا في أحرج المواقف لأن الضابط من الجيش بمثابة القلب من الجسد إذا وهن القلب وهن الجسد كله»(11) .. وكان على رأس الخيمة «كبير القريبة» والذي يتلقى أوامره من «باش سيف» الذي يحكم الكتيبة أو (خليفته). وكان «باش سيف» لا يتلقى أمرًا إلا من الآغا أو الأمير، وكان يساعده فضلًا عن خليفته أربعة (أشاوش) وكاتب .. وكان لكبير الآغوات سلطة على سلاح المدفعية كله، وهو على رأس جميع الكتائب التابعة لدار الخلافة، ويقف عادة إلى جانب الخليفة الذي يصدر أوامر التحرك لكنه لا يتلقى أوامره الا من الأمير مباشرة(12) .

وكان الفرسان مجتمعين في كوكبات قوام كل واحدة خمسون رجلًا بقيادة رئيس الكوكبة. وكان آغا الفرسان يتولى التنسيق في مستوى دار الخلافة .. وكان رجال المدفعية موزعين الى سدنة يخدم كل اثني عشر رجلًا منهم قطعة مدفعية .. وكان لكل قوة من القوى الثلاثة اشارات عبارة عن عظات مكتوبة مع أهلة أو سيوف حسب الرتبة والموقع العسكري فمثلا الجنود [ليس اجدى من التقوى والشجاعة وليس أضر من الفتنة والعصيان]. أما آغوات الفرسان فلهم عظات أخرى مثل [ثقة في الله وفي رسوله] [أحمل

(11) عن بول آزان (الأمير عبد القادر من التعصب الاسلامي الى الوطنية الفرنسية)، ص 136، دكتور محفوظ قداسن، ص 58.
(12) د. محفوظ قداسن، ص 58.

وافتح] وشعار المدفعية [وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى](13) وكان الأمير يوزع أوسمة على الجنود والضباط البواسل عقب كل معركة من المعارك الطاحنة كالتي جدثت في الاستبسال دفاعًا عن (المدية) ومقاومة الغزو الفرنسي لها.

أما الانضباط العسكري فمما كان يحرص عليه أشد الحرص. فقد كان ينادي على الجنود صباح مساء. وكان الجنود يستعرضون مرتين في الاسبوع. وكان العتاد والسلاح يفحصان في الاسبوع. وكان النقيب هو الذي يمنح إجازات للجنود. وكانت العقوبات تحدد في كل حالة من حالات الاخلال بالنظام والانضباط حسب الرتب. وكانت أشد ما تكون زجرًا في مخالفة مماثلة يرتكبها الضباط .. والكل يحتكم الى قانون جنائي لا يغلط فيه العقاب الا على بيع الاسلحة.

وكان الجنود المقيمون في الحامية ملزمين بحصص من التدريب العسكري يمارسونه ثلاث مرات في الاسبوع وكان المشاة يتمرنون بما فيه الكفاية لكي يصبحوا من أحسن الرماة.

وكان للادارة العسكرية عند الأمير قواعدها : مسك دفاتر (التجنيد والعتاد ..) مراقبة التغذية والأسلحة .. وكان التزويد بالتموين منتظمًا .. وكانت الماشية الآتية من فريضة الزكاة والصدقات توضع تحت حراسة رعاةٍ يعينهم القائد ويراقبهم. نفس السلوك كان مع الحبوب المجمعة من الزكاة أيضًا.

كان الجيش يعنى بمرضاه وجرحاه ويتعهدهم بالعلاج في عيادات موزعة بواقع عيادة واحدة على الأقل في كل أغاليك ترعاها الدولة .. وكان يتولى العناية بالمرضى طبيب وممرضون(14) .

(13) شارل هنري تشوشل (حياة الأمير عبد القادر)، ص 60، ترجمة د. أبو القاسم سعد الله.
(14) أبول آزان (الامير عبد القادر ..) مرجع سابق، ص 141.

ولقد كانت خيمة العلم في المعسكرات أكبر الخيام وأبهاها وكانت لا تمر ليلة من ليالي الكفاح الطويل دون تنظيم حلق للدراسة والمباحثة والمطالعة الجماعية. ومما يحكى الأمير عن نفسه أنه درس صحيح البخاري وهو مرابط على أسوار (تلمسان) فأتمه قبل أن يفتحها[15] .. هذا مجرد إشارة لما حوته كتب المؤرخين الأجانب عن تنظيم الأمير للجيش الذي بلغ عدد مشاته (27960) جنديًا وفرسانه (29630) فارسًا[16].

الحصون : يقول «ب. أزان» في كتابه السابق الذكر [لقد كان التنظيم الاستراتيجي للسلطنة يقوم أساسًا على المهمة التي رسمها الأمير لنفسه والمتمثلة في طرد الفرنسيين من الجزائر. وكانت جبهته موازية لساحل البحر الأبيض المتوسط الذي نفذ منه الغزاة والذي يجب إخراجهم منه] .. لقد كانت الأطراف الساحلية محروسة من قبل القبائل التي كان الأمير يمدها بالجياد وكانت تشكل نوعًا من الطليعة وذلك بالتعرض للمدن الساحلية التي بيد الفرنسيين وجعل المعيشة أمرًا لا يطاق فيها بمنع وصول المؤونة إليها.

كان في نية الأمير تدمير المدن (تلمسان)، (معسكر)، (مليانة)، (المدية). وتمنى الأمير أن يضيف إليها (قسنطينة) تدميرًا كاملًا في حالة ما إذا قرر الفرنسيون احتلالها لأن هذا هو السبيل الوحيد لمنع استقرار الفرنسيين نهائيًا في الجزائر .. إلا أن الأهالي منعوه من تنفيذ هذه الخطة[17].

ثم إنه أمام احتمال وصول الفرنسيين إلى هذا الخط الوسط عمد الى انشاء خط من المواقع المحصنة في الحدود الجنوبية لمنطقة التل. وكان لهذه المواقع المحصنة نوع من التطابق مع المدن في التل .. (سبدو)

(15) د. عبد المجيد مزيان (عبقرية متكاملة) مجلة الثقافة، عدد 75، ص 7.
(16) د. محفوظ قداسن، مصدر سابق،ص 64.
(17) د. رشيد بورويبة (القلاع والحصون والمؤسسات التي أنشأها الأمير)، مجلة المعرفة 75، ص 87.

جنوب (تلمسان)، (سعيدة) جنوب (معسكر) و (تاقدمت) في جنوبها الشرقي، (طاز) جنوب (مليانة) و (بوغار) جنوب (المدية) وزاوية (بلخروب) الشهيرة التي تنتسب إلى أسرة أحمد بن سالم التقية جنوبي شرقي (الجزائر) ثم (بسكرة) جنوب (قسنطينة).

وأهم هذه التحصينات (تاقدمت) و (سبدو) و (بوغار) و (سعيدة) و (طاز) حيث كان كل حصن محميًا بقطع مدفعية ويستطيع إيواء آلاف المقاتلين. وتم الشروع في هذه الحصون خلال عام 1839 وفي كل منها مخازن للكبريت والصمود ومعدن الرصاص ومعامل لنسج (البرانس) والدباغة ومخبزة ومستشفى. كما تم إنجاز مصهرة حديد ومطحنة بارود بـ (تلمسان) ومصنع مدافع[18] .. حيث التحق بعض الجنود السامين الفرنسيين الذين أسلموا وأشرفوا على صهر الحديد. كما كان مصنع (مليانة) للأسلحة فعالا وبشكل منتظم حيث كانت مهمته صهر الحديد وصناعة الأسلحة.

أما في (معسكر) فقد كان بها قلعة تحميها مدافع وبها مصنعًا للسلاح فيه تصنع أخشاب البنادق وتجهز الخراطيش .. وكان يتوفر في المعسكر أمهر الصناع .. كما أمر الأمير ببناء قلعة في جبل (بني سنوس) على بعد 40 كيلومترًا جنوب مدينة (مغنية)[19] .. وعلى بعد عدة كيلومترات الى الشرق من مدينة (معسكر) أقام الأمير قلعة تسمى قلعة بني راشد بها مطحنة للبارود. كما أمر الأمير ببناء قلعة (بلال) وهو جبل يقع على مسافة يومين من مليانة حيث يستغل الكبريت. وأخيرًا أمر الأمير ببناء قلعة في شرشال لايواء الحامية العسكرية الموجودة بها، كما كان يصنع فيها القذائف.

(18) د. رشيد بورويبة، مرجع سابق، ص 100 عن عدة مصادر.
(19) نفس المصدر والصفحة.

.. وهكذا فإن تأملًا لخريطة الجزائر الجغرافية ومحاولة استيعاب ما فات على الأرض ترينا أنّ الأمير جعل لمقاومته خطين ناريين الخط الأول هو المدن التي مازالت تحت سيطرته حيث حصنها بالفرسان والمدفعية وخطًا خلفيًا وهو أكثر أهمية من قلاع وحصون تعتبر خط الدفاع الاستراتيجي أو العمق الاستراتيجي لأي هجوم يقوم به الأمير على الساحل .. ووزع الأمير الجيوش حسب المناطق وأمن لها موادها التموينية والعدادية .. وكانت حركة الاتصال من أقصى الغرب الى أقصى شرق المواقع يتم بصورة دؤوبة .. على كل حال جهز الأمير نفسه لمعركة طويلة النفس، ولكن الفرنسيين تصوروا يومذاك «أنّ الذخيرة الحربية التي يمكن أن تتوفر لعبد القادر عدا ما يمكن أن يصله من المغرب الأقصى تكفيه ليحارب مدة سنتين أخريين على الأقل» أي حتى سنة 1841. فكيف إذن استمرت مقاومة الأمير حتى سنة 1847 ؟ ذلك بالتأكيد يعود لعوامل غير عوامل الذخيرة والتنظيم العسكري.

على صعيد الدولة يتجلى وعي الأمير على بعث روح الانضباط وتوزيع المهام وإشراك أكبر عدد ممكن من رجالات الأمة في تحمل مسؤولية إقامة حكم إسلامي، فبعد أن عقدت له البيعة عمد إلى تنظيم حكومته فعين وزراء وكتابًا وناظرًا على الخزينة وناظرًا على الأوقاف وناظرًا على جباية الزكاة وقاضي قضاة ووزيرًا للشؤون الخارجية ثم رتب مجلسًا للشورى يتكون من (11) عضوًا ويضم كبار علماء الامارة ونظم الحاشية وعين خلفاء على الولايات ومع مرور الأيام أنشأ الدواوين والادارات المركزية وقد وصلت ولايات الامارة في أوج عظمتها ثمانية قسم الأمير كل ولاية الى عدة دوائر ووضع على رأس كل دائرة حاكما يدعى (آغا) والدائرة تضم عددًا من القبائل يحكمها (قائد) وتحت القائد يوجد مسؤول إداري يحمل لقب (شيخ). وكل ولاية يحكمها

خليفة للامير .. وكانت الأوامر تصدر بشكلها الهرمي كما تصعد القضايا بنفس الشكل العكسي .. وكانت مراسيم التعيين تشمل فيما تشمله أداء المرشح الايمان على صحيح البخاري بأن لا يعدل عن طريق الحق والصدق في أداء مهمته .. وبعد ذلك يصدر مرسوم التعيين الذي يحرره ديوان الأمير ويختم في أعلاه بخاتم الامارة منقوش في دائرته : (ومن يكن برسول الله نصرته / إن تَلْقَهُ الأسد في آجامها تجم). وفي جوانب الختم عبارات : (الله محمد، أبو بكر، عثمان، علي) .. وكان يعين في كل دائرة قاضيًا من العلماء الذين اشتهروا بالتقوى والعلم والفضل مهمته الفصل في القضايا طبقًا لأحكام الشريعة الاسلامية وجميع القضاة يخضعون لسلطة قاضي القضاة .. كما خصص مرتبات لجميع الموظفين .. كما كانت كل ولاية تتمتع باستقلال ذاتي كبير فلقد كان الخليفة ذا مكانة هامة بما يتحلى به من شخصية دينية وعسكرية وسياسية في وقت واحد وهو دائمًا في مقدمة الجيش في القتال ويأخذ الخليفة مكانته في الأمة بمدى ارتباطه بالجهاد والدين والطاعة للأمير(20) .. والخليفة هو المسؤول في ولايته عن جمع الزكاة والعشور التي يقوم بجمعها (الآغا) وهو الذي يسلم نصيب بيت المال منها الى الأمير. ويحتفظ كل خليفة بجيش في ولايته يوفر له المؤن والذخيرة ويقوم ببناء التحصينات وإشتراء السلاح.

والزكاة تجمع مرتين في السنة : في الربيع تجمع زكاة الحيوانات، وفي الصيف تجمع زكاة الحبوب. ويسير الخليفة على رأس قوة من جيشه ويقوم بجولة في مختلف الولاية ليتفقد الحالة ويتلقى شكاوي الناس التي يحول ما يستحق منها التحويل الى ديوان الأمير .. حيث كان الأمير يكلف من ينادي في الاسواق أن من له شكوى ضد الآغا أو القائد فليقصد الى الأمير يعرضها

(20) د. إسماعيل العربي (حكومة الأمير عبد القادر إدارتها ومهامها)، ص 219-224.

عليه .. وكان الفائض من الزكاة من الابقار والغنم يودع عند القبائل للرعي تستعاد وقت الحاجة. أما الخيول فتوزع على الجيش والباقي يودع عند القبائل وأما الفائض من القمح فيودع في (مطامير) تحت مسؤولية (القائد) حيث تكون هذه المطامير موزعة في سائر الامارة.

وعلى صعيد العدل فكان الأمير شديد الحرص على سيره وفق الشريعة الاسلامية وعلى أن تكون جميع قوانين الامارة مستمدة من كتاب الله وسنة نبيه مما يجعل دولة الامير إمارة اسلامية تذكرنا بعهود الخلفاء الراشدين في أزهى عصور الاسلام .. وهذا الطابع النقي هو الذي وحد القبائل وتغلب على النعرات القبلية .. وكان كلما أشكل على الأمير قضية فقهية يتنجم عنها أحكام صعبة يتوقف عن إصدار الأحكام بكاتب علماء الأزهر بمصر وعلماء القوريين بالمغرب ليستفتيهم .. وبفضل رعاية قواعد العدل ساد الأمن جميع أنحاء الامارة .. كما كان الاهتمام بالغًا بالتعليم فزود الزوايا بكل ما تحتاجه من أجل ذلك كما اهتم بالمخطوطات والكتب فيبلغ عدد الكتب في مكتبته والتي أحرقها الفرنسيون ما يزيد عن خمسة آلاف مجلد .. واهتم الأمير بالتجارة وجعلها حكرًا على الامارة كما أنشأ الأمير دارًا لضرب النقود في «تقدمت» وعلى صعيد السياسة الخارجية كان الأمير شديد الاهتمام بالنشاط الدولي بصفة عامة وبتطور العلاقات بين الدول الأوربية متابعًا ذلك بواسطة الصحف الفرنسية التي تترجم إليه وتقارير الاعوان والمبعوثين .. وحاول الامير استمالة بريطانيا إلا أنه فشل[21] .. لقد أنشأ الأمير دولة متكاملة سادا بذلك الفراغ الذي أحدثه سقوط الداي وانسحاب الباي حسن باي وهران.

(21) نفس المصدر، ص 224-227.

ب) الأمير والجيوبوليتيك ووعيه السياسي بالواقع الجزائري :

إنّ التخطيط لحرب شعبية لا بدّ أن يراعي دور البيئة الطبيعية لا سيما في حالة تفوق استراتيجي هائل من الخصم هذا صحيح .. لكن كيف يتم التحكم في العامل الجغرافي. هذه هي المسألة الصعبة. وهنا تظهر احدى جوانب عبقرية الأمير .. ولم يخفِ خصمه الماريشال بيجو هذه المسألة وهو يتحدث في مجلس النواب «هل تعلمون أين تكمن قوته ؟ انها تكمن في استحالة العثور عليه، إنها في المكان الرحب الواسع وفي حرارة شمس افريقيا، وفي عدم توفر المياه إنها تكمن في حياة الرّحال .. ذلكم هو سر قوته»[22].

ذلك فمن المهم أن ندرس النقطتين الآتيتين :

أولًا : استراتيجية شاملة ذات ارتباط وثيق بالمعطيات الجغرافية.

ثانيًا : مقاومة مسلحة تتلاءم ومقتضيات المحيط الطبيعي.

أولًا : خرج الأمير الشاب من إطار إقليم وهران موسعًا ساحة جهاده وفرض هذه الحالة على العدو وانتزع منه الاعتراف به أميرًا للبلاد يوقع معه معاهدة سنة 1834 «ديميشال» ومعاهدة 1837 (معاهدة تفانة)[23] .. وكسر الحواجز القبلية وأنشأ نظام علاقات جديدة بين القبائل والمدائر عموده الجهاد .. ثم إن النظر الى تهيئته للقلاع ومواقعها الجغرافية كلقاهة (تاقدمت) الواصلة بين التل والسهوب والتي تتحكم في مناطق وعرة المسالك ومتنوعة التعاريج. إن قيام الأمير الشاب بمواجهة وديان الهضاب وسهولها

(22) د. جيلاني صاري «دور البيئة الطبيعية في استراتيجية الأمير»، ص 103.

(23) يشكل الأخ الدكتور العربي الزبيري في نصوص هذه المعاهدة في كتابه الهام «التغريب الثقافي»، ص 62-82.

وبأبعاده وتنوع مناخه كما يبين ذلك حجم الخسائر ولقد أدرك القادة العسكريون ذلك بجلاء ورثوا عجزهم .. (لقد كان الأمير يخوض الحرب كما يشاء دون أي مراعاة لفصول السنة»[27].

وهناك من الشهادات لجنرالات الجيش الفرنسي ما يصعب سرده أو مجرد الاشارة إليه لكثرته حول اتقان الأمير للتحكم في العوامل البيئية ونكتفي بإحدى هذه الشهادات .. «لقد ظلت الحرب مستعرة منذ ما يقرب من ستة أعوام ويمكن أن نتساءل عمن يستحق مزيدًا من الاعجاب : أهم جنودي المقدامون الذين لا ينال منهم التعب أم الرجل الذي يقف في وجه جيش قوامه (106000) رجلًا بأقل من (2000) فارس و (10000) جندي محارب، فينزلق بين كتائبنا ويضرب القبائل في مؤخراتنا وأجنحتنا ويفلت من بين أيدينا في الوقت الذي يخيل إلينا بالذات أنه يكفي أن نمد أيدينا للقبض عليه ويرهق جيوشنا بمناوشاته التي لا تنتهي ويلجأ على الدوام الى خطة لا تقهر تتمثل في تشتيت صفوفنا والنيل منها بالارهاق والنار معًا»[28].

ولتصور سرعة التحرك هذه يحسن بالمرء أن يتصور تفاصيل وجود الأمير وأتباعه في كل مكان ابتداء من سنة 1840 فما أن يعلن عن وجودهم ويحدد مكانهم بدقة حتى يفلتوا ويختفوا عن الانظار. وكذلك الامر فيما يتعلق بتجوالهم عبر (الشلف) والجبال والوديان والتلال والسهوب في المقاطعة الوهرانية خلال السنوات الاخيرة من المقاومة. حيث استمر الباقون على قيد الحياة على الرغم من محاصرة قوات سلطان المغرب لهم وطردها

(27) الكابتان بيشو ــ الأمير عبد القادر ــ باريس 1868، مجلة الثقافة (75)، ص 64.
(28) د. جيلاني صاري عن الكابتان بيشو ــ (مصدر سابق)، ص 106.

إياهم وعلى الرغم من التعب الشديد الذي نال منهم بعد سنوات طوال من المقاومة العنيدة والتعرض لقساوة الطبيعة[29] استمر هؤلاء في جهادهم بليساقة نادرة.

هكذا يتضح لنا أهمية الفضاء في استراتيجية الامير السياسية والعسكرية .. فهو جعل كل جهوده منصبة على هدفين في آن واحد وكل واحد يخدم الآخر.

الأول : تنظيم الدولة ــ (اقتصاديًا، إداريًا، عسكريًا).

الثاني : المقاومة ــ (مناوشة ــ وتحرير ــ وإرهاق الجند المستعمرين).

والهدفين القصد منهما التوحيد السياسي المستقل لإيالة الجزائر وتحكيم كتاب الله وسنة رسوله في الناس .. ونشر العدل وهذا قد تحقق منه جزءٌ كبير.

فهو قد انتزع من المستعمرين اعترافهم به أميرًا على البلاد ولم يعطهم أي اعتراف بحدود .. وكان يتجه وبالقوة إن لم تنفع الحجة لادخال القبائل المرتدة إلى داخل اطار جماعة المسلمين تحت راية الجهاد .. كما كان يعقد الاتصالات مع الدول الأوربية على أساس أنه هو السلطة الشرعية في البلاد .. كما أعلن امتداده للوجود العثماني في الجزائر أمام المخطط الغربي الهادف تقويض الخلافة.

ج) الأمير الانسان [فارسًا وشاعرًا وصوفيًا] :

هل هناك فرق بين الفارس والشاعر ؟! وهل كان الشاعر يومًا الا صوفيًا ؟! فحتى يكون الصوفي صوفيًا لا بدّ أن تشتعل نار الشوق في داخله .. ولكي

(29) نفس المصدر ونفس الصفحة.

يكون الشاعر شاعرًا لا بدّ أن تنبجس في قلبه عين العشق .. الشوق والعشق، وهذه الثنائية الخالدة المتجهة نحو الجمال والكمال والافضلية هي التي تفسر ركوب المخاطر والاهوال فتأتي الفروسية خلقًا سلاحه التعفف والكرامة والشرف، وممارسة تتصدى للزيف والظلم والجبروت .. الفروسية والشاعرية والعرفان هذه هي أبعاد الانسان المتكامل وكذلك كان السيد الأمير.

عبد القادر الحسني الهاشمي : وجه معبر يغشوه النبل عينان سوداوان تمتازان ببعد النظر ووضوحه .. منبسط الوجه كأنما تقرأ على جبينه التسليم المطلق لقدر الله وقضائه يحمل تحت قفطانه حسامًا ومسبحة طويلة وأحاديث الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلّم .. يقضي فراغ صباه في الصيد والتأمل وركوب الخيل التي من فرط عشقه لها كتب عنها دراسة هامة وهو حبيس السجن في منفاه .. نزّاع الى العزلة لكن قراراته سريعة وباتة وحركته ديناميكية .. لم يندم أبدًا على تصرف قام به فالخير فيما وقع المهم القادم ماذا نفعل ؟!!.

لقد كانتالفروسية عند الأمير ليست فقط إجادة ركوب خيل مع حبه الشديد للأدهم .. أو ضربًا بالسيف وطعنًا بالحربة وتسديدًا بالبندقية .. فهذا أحد أوجه الفروسية .. لقد كان الأمير فارسًا لا يستهين بخصمه ولا يحتقره .. ولا يضربه الا بشرف الخصومة فلا يمثل ولا يتشفى ولا يحقد .. الفروسية عند الأمير هي خلق جهادي عالي المستوى يمكننا أن نراه في قادة الفتح الأوائل .. ورغم البشاعة التي يمارسها الصليبيون ضد الأبرياء من المسلمين : (قتل وحرق البيوت وتمثيل وهتك الأعراض) نرى أن الأمير كان شديد الحرص أن يطبع كل حركته الجهادية بأخلاق الاسلام السامية .. فلا يقتل أسيرًا ولا يمثل بقتيل وكان يأمر بالاحسان الى الأسرى ويدعو لهم بالفرج والعودة إلى أهلهم.

لقد كان الأمير فارسًا في حروبه وفي سلمه .. فإن واجه في معركة فهي مواجهة الفارس .. وان وقع معاهدة فهي معاهدة فارس مع خصمه .. وإنّ دراسة سيرة الأمير ملأى بالشواهد التي ترسم معالم فروسته وقواعدها .. هذه الفروسية التي تجعله إن استغيث أغاث وإن استجير أجار تسكنه همة لا تدع له وقت للراحة أو الدعة.

وكان الأمير انسانًا .. وإن دراسة لقوانين إمارته تري أي عين استخرجت هذه الأحكام من الشريعة. انها عين انسانٍ مجاهدٍ لكرامة الانسان وحق الانسان .. وإن تأملًا لحالة الجند والفرسان والقادة والأغاوات والخلفاء ترينا كيف ارتفع الأمير بحالة الأمة الى الثقة بالذات وتجاوز الهزيمة النفسية والتفاؤل بإمكانية تسيير الأمور ذاتيًا رغم كل الظروف.

وكان هذا الفارس إنسانًا يبكي لبكاء طفل؛ ويفرح ويضحك إذا استدعى الأمر .. متحررًا من ما توجبه مكانته .. علم بمرض أمه وهو على بعد مئة وخمسين كيلومترًا فترك للأدهم عنانه في يوم مثلج وبرد قارس .. يردد طول الطريق «يا إلهي مكني من رؤية أمتك قبل وفاتها لأنال دعاءها»(30).

ثم إن الفارس كان شاعرًا وخطيبًا بليغًا .. شاعرًا ــ كما يلاحظ الدكتور زكريا صيام ــ مجددًا محيطًا .. ناقدًا ذواقة يمتلك من الصدق الفني الذي يعينه في تجسيد مشاعره وتصوير خبايا نفسه إضافة الى طول التجربة وزخمها وعمقها التي أمدته بدفق واضح من الألفاظ الموحية والتراكيب السليمة ما يجعله من عظام الشعراء ويرى الدكتور زكريا صيام محاكاة الأمير لفطاحل شعراء العربية مثل زهير بن أبي سلمى حيث كان يفرغ الشاعر بصورة فنية تجربته الطويلة مما أهله لأن يعد من حكماء الشعراء. ومن روائع شعْره هذه الأبيات :

(30) محمود بوعياد (الأمير الانسان)، ص 282.

وما كل شهمٍ يدَّعي السبق صادق ... إذا سيق للميدان بان له الخسر
وعند تجلي النقع يظهر من علا ... على ظهر جرديل ومن تحته حمر
وما كل من يعلو الجواد بفارس ... إذا أثار نقع الحرب والجو مغبر
وما كل سيف ذو الفقار بحده ... ولا كل كرار عليٍّ إذا كروا
وما كل طير طار في الجو فاتكًا ... وما كل صياح إذا صرصر، الصقر[31]

وكان الأمير الفارس صوفيًا .. والصوفية في حياته ليست عنصرًا مكتسبًا في حياته .. بل هي جزء من حياة أسرته فلقد أشرب قلبه منذ الصغر بذالك الجو الروحي الصافي .. فوالده الحاج محي الدين صوفي راسخ القدم اذ لبس الخرقة القادرية من نقيب الأشراف السيد محمود ببغداد وألف والده كتابًا جليلًا في التصوف سماه «إرشاد المريدين» وصحب عبد القادر الشاب والده في رحلته الى الحج فزارا الرسول الأعظم وزارا بيت المقدس ثم عرجا على بغداد وزارا ضريح الصوفي الكبير الشيخ عبد القادر الجيلاني رضوان الله عليه فكان لذلك كله أثره العميق في نفسه وفي اتجاهه في الحياة وكما يذكر الأمير : «كنت مغرمًا بقراءة كتب القوم رضي الله عنهم منذ الصبا» .. ولكن هذه الصوفية هي صوفية العرفان التي تعظم شرع الله «وكل من ادعى أنه شم رائحة من طريق أهل الله تعالى ولم يزود للشرع تعظيمًا وللسنّة اتباعًا فهو مفتر كذاب»[32] .

وألف كتابًا ضخمًا سماه المواقف وهي عبارة عن وقفات عرفانية وفسر فيه كثيرًا من مذهب محي الدين بن عربي وكلامه في كتابي الفصوص والفتوحات المكية ويسميه إمام المحققين وإمام الكاشفين من الأولياء .. ونفى عنه كتبًا تنسب إليه في الملاحم والجفر مثل كتاب «الشجرة

(31) د. زكريا صيام (الاصالة والتجديد في شعر الأمير عبد القادر)، ص 291، مجلة الثقافة، عدد 75.
(32) د. عمار طالبي (الأمير عبد القادر والتصوف)، ص 255، مجلة الثقافة، عدد 75.

النعمانية» وكذلك الفتاوي المنسوبة إليه وأوصى الأمير أن يدفن بجانب ابن عربي. ودرس الأمير كتاب «الاحياء» للغزالي وتأثر به ونقل عنه .. لكنه ثبت موقفًا واضحًا في قضية هجوم شيخ الاسلام ابن تيمية على محي الدين بن عربي فيما يتلعق بوحدة الوجود .. فقال : «واحذر أن ترميني بحلول أو اتحاد أو امتزاج أو نحو ذلك فإني بريء من جميع ذلك ومن كل ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله فإنني فهمت ما فهمت أنت وزدت عليك» «إياك ثم إياك أن تتوهم وتتخيل فيما أذكره في هذا الموقف تشبيهًا عقليًا أو تمثيلًا أو حلولًا واتحادًا أو سريانًا أو امتزاجًا أو ارتساقًا أو اتصالًا أو انفصالًا أو مقابلة أو مقارنة أو تقديمًا أو تأخيرًا أو قبلية أو بعدية أو كيفًا أو كمًا أو معية أو أينا أو متى أو ترتيبًا فمن توهم شيئًا من ذلك سقط في مهواة من التلف على أم رأسه»[33] .

وهو ينتقد المتكلمين والفلاسفة وينصح لنا أن نسلك طريقة الانبياء في التعرف على الله ولا سبيل الى معرفة الله إلا بها.

وقد أظهر الأمير قدرة عالية على الاستنباط والفهم من كتاب الله وسنة رسوله. وطلب علماء دمشق وفقهاؤها من الأمير أن يكون استاذهم وتألف صف من ستين عالمًا وطالبًا كانوا يجتمعون إليه يوميًا. لقد قرأ الأمير كتاب «الاتقان في علوم القرآن» وكتاب «الابريز في مناقب سيدي عبد العزيز» وقرأ كتاب «الشفاق تعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض والصحيحين كما حقق «الفتوحات المكية» .. ومكث في دمشق الى أن ماتت أمه «للافاطمة الزهراء» فذهب وجاور الرسول عامين عاد بعدهما الى الشام .. عبد القادر الأمير الفارس الشاعر الصوفي .. هذا أقل من إشارة إليه ..

(33) نفس المصدر، ص 258.

الأمير والخلافة العثمانية : «وما يدل على أن الوطن الجزائري كان حريصًا على أن يبقى عربيًا، وعلى نمط الدولة القديمة هو أنه لم يتوان في مواجهة الامبريالية التركية وأنّ عبد القادر بدأ يحارب الأتراك قبل محاربة الفرنسيين»[34]. هذه الفكرة التي يسردها كاتب يساري ذو نزعة عدوانية لتاريخنا الاسلامي تريناكم هو حجم المؤامرة التي تمت للقضاء على كيان الأمة الواحد ــ الخلافة ــ وذلك بتحريض مستمر .. فيقع هذا الكاتب تحت طائلة التغريب ليلوك فيما بعد ألفاظ المستعمرين دونما تأمل، فهو قد اعتدى بقوله هذا على الخلافة العثمانية بوصفه (إمبريالية) وهو في هذا يجهل حتى أسس التصنيف الطبقي .. وإلا لما نعت خلافة بولايات تمتلك كل منها إستقلالًا ذاتيًا تعتمد على الزكاة والخراج لا يوجد فيها أي مظهر من مظاهر الربا والاقطاع ولا يوجد أي امتياز لأي طبقة اجتماعية على أخرى بالامبريالية. هذا على أرضية التصنيف الاقتصادي، أمّا على أرضية التصنيف الاقتصادي السياسي .. فكيف يمكن قبول هذه اللفظة على خلافة للمسلمين ؟. أين تتجلى مظاهر الامبريالية السياسية ؟ هل في دفاع الخلافة عن ديار الاسلام وصد الهجمات الصليبية المتوالية ؟! كلام كثير يمكن قوله في الرد على الاستاذ كاتب ياسين في مقولته مركبة الجهل : «الامبريالية التركية» .. ولكن يهمني هنا أن أبين علاقة الأمير بالخلافة وذلك من خلال رسالتين[35] ــ بمثابة وثيقتين كشف عنهما الاستاذ مولود قاسم نايت ــ بعث بهما الأمير الى دار الخلافة ورسالة من السلطان الى الأمير ولن أجد داعيًا لمزيد من التعليق وإن كان الامر يحتاج لشيء من التحليل فسيكون خلال الحديث عن علاقة الأمير بالحاج أحمد باي شديد الولاء للخلافة

34) كاتب ياسين (الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر)، ص 190، مجلة الثقافة، عدد 75.

35) مولود قاسم نايت (استمرارية الدولة الجزائرية في نظر الأمير عبد القادر)، ص 20، مجلة الثقافة، عدد 75.

حيث وجدت هذه العلاقة بعض المرجفين الذين أطلقوا لنواياهم السيئة العنان والخوض بغير علم.

الرسالة الأولى مع اختصار شديد.

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

من عبد ... ومقبل ترب أعتابكم، المستعصف لرحماكم، الراجي فضلكم وقضاكم، خادم حضرتكم وخادم المجاهدين عبد القادر بن محي الدين منحه الله رضاه ثم رضي رسوله ثم رضاكم في الدنيا ويوم الدين آمين .. الى سلطان سلاطين الاسلام وحامي بيته محمد عليه الصلاة والسلام طرد الملوك والشوامخ. وركنهم الثابت الراسخ وشمسهم التي تستمد منها كواكبهم والبحر المحيط التي لا تخوض لججة مراكبهم خير ملك قاد الجيوش ورتب العساكر .. سيدنا وابن سيدنا الى الجد عثمان، السلطان عبد المجيد خان أعانك الله على ما أولاك وكان لك وتولاك ونصرك على مر الدهور والأزمان وسلام على سيدي ورحمة الله وبركاته ..» ثم يواصل الحديث بمزيد من التودد والمحبة .. ويخبره عن أحوال المسلمين في الجزائر ويشكو له خيانة سلطان المغرب ثم يتوجه للسلطان قائلا .. «والمسلمون بهذا القطر لا ينظرون من غيرك إفراج ولا لهم ملجأ يلجئون إليه غير حصنك العالي الأدراج فأبصارهم لاعانتك وامدادك طامعة وقلوبهم بمحبتك وذكر لك طافحة ..» إلى آخر الرسالة الطويلة والهامة والتي تلخص معاناة الأمير والمسلمين في الجزائر.

32

كما أرسل رسالة أخرى للصدر الأعظم يؤكد فيها ولاءه للخلافة وولاء مسلمي الجزائر لجماعة المسلمين ويشرح فيها حال المسلمين المزرية.

ثم يرسل رسالة إلى كاتب السلطان حمدان بن عثمان جاء فيها « .. واستعطفنا سيدنا ومولانا السلطان عبد المجيد وعرضنا على حضرته العلية حالنا وعرفناه أفعالنا وأقوالنا لعله ينظر إلينا بعين الرحمة والاشفاق وينقذنا بكلمته المسموعة». ثم يكشف الاستاذ مولود قاسم عن وثائق هامة بمثابة رسائل من جمعيات خيرية من الجمعيات الخيرية التي كانت في إمارة الأمير أرسلت إلى الصدر الاعظم عبد المجيد تؤكد الولاء والحب والاخوة الاسلامية ويجعلون فيها محاربتهم للفرنسيين إنما هي استجابة لرغبة الخلافة «ثم الذي نعرضه على مراحمكم السنية وأخلاقكم الذكية بضرورة علم حضرتكم بأن أصل محاربتنا وعصياننا على أعدائنا كان باختيار ورغبة الدولة العلية ولا حصل منا التقصير في شيء لما رغبته الدولة العلية وأشارت به علينا».

وفي رسالة من الأمير موجهة إلى الوزير الأعظم في دولة الانجليز يقول «وأما السلطان العثماني فنحن منه وإليه ونحبكم أنتم أن تكونوا واسطة بيننا وبينه (للمراسلة) وتجعلوه يكون معنا ويعيننا على الفرانصيص لأنّ الأرض له وله الكلام فيها».

وفي رسالة من الباب العالي إلى الأمير جاء : «لقد أظهرتم شجاعة وإخلاصًا بقيادتكم أمر المسلمين، إنكم بذلك قد أطعتم رضى الباري ورسوله وكذلك الباب العالي ليجازيكم إليه .. أما نحن فسوف لا نتردد في مكافأتكم لما تستحقونه من الرعاية وسوف ننفذ كل ما نراه لائقا ..».

لقد كانت الخلافة العثمانية إذ ذاك تعيش وضعًا مهلهلًا حيث الدونمة (الصهيونية المتسترة بالاسلام» تحيك المؤامرة الواحدة تلو أختها لتخريب الخلافة وتقويض كيانها .. في الحين نفسه تتكالب الدول الصليبية جميعها ضد الخلافة .. في الوقت نفسه يواصل محمد علي حالته الانفصالية عن الخلافة.

ثم إنّ هناك موقفين يعبران عن عميق ولاء الأمير للخلافة :

الأول : عندما ثار (رعاع دمشق) ـــ حسب تعبير الأمير ـــ على النصارى سنة 1860 م وبلغ عدد الذين أنقذهم الأمير من الموت والعذاب ممن التجأوا الى داره وقلعة المدينة نحو خمسة عشر ألف شخص .. فسرَّ الأمير محمد بن الأمير عبد القادر ذلك الموقف «إنّ الباعث له على حمل تلك المشاق تأييد الدولة العلية والدفاع عن حوزتها. إذ لو لم يقف في وجه الغوغاء لاستأصلوا النصارى واستلحموهم وتفاقم الأمر أكثر مما وقع وبذلك يحصل للدولة العلية (الخلافة العثمانية) من الارتباك ما لا يخفى» فضلًا على أنه موقف اسلامي شرعي «إنني لم أفعل الا ما توجبه عليَّ فرائض الاسلام ولوازم الانسانية»[36].

الموقف الثاني : عندما دارت الدائرة على الدولة العثمانية وانتصر الروس عليها وكادت القسطنطينية تقع في أيديهم نهض نخبة من زعماء بلاد الشام وبحثوا في مصير سورية وعقدوا مؤتمرًا سريًا للنظر في استقلال سوريا وفصلها عن جسم الخلافة ولتتويج مؤامرتهم هذه بصورة مقبولة اختاروا أن يكون الأمير عبد القادر حاكمًا لسوريا[37] .. وكان من أنشط هؤلاء الزعماء يوسف بن بطرس كرم زعيم لبناني ماروني فلما أعلم الأمير قبل ذلك على أن يظل الارتباط بين البلاد الشامية والخلافة العثمانية قائمًا وأن يبقى الخليفة العثماني خليفة في البلاد الشامية وأن تتم البيعة الأولى للأمير من أهل البلاد ثم يجب أن يأخذ مباركة الخليفة[38] فلم يجدوا مناصًا من القبول وبقي الأمير على وفائه الى أن توفاه الله ..

(36) د. فؤاد صالح السيد (الأمير عبد القادر في دمشق)، ص 267، مجلة الثقافة، عدد 75.
(37) (38) نفس المصدر، ص 271.

أهم المعارك وكيف أدارها الأمير : إبتدأ الأمير عمله بتوسيع رقعة الامارة وضم القبائل اليها واتخذ مدينة «معسكر» عاصمة له وحرر ميناء «أرزيو» الهام واستطاع أن يفتك مدينة (تلمسان) من الفرنسيين وشدد الحصار على مدينة مستغانم واستطاع الأمير اقناع القبائل بقطع كل صلة لها مع جيش الكفار فقطع بذلك خطوط التموين الى مراكز الجيش الفرنسي بواهران حيث استصدر الأمير فتوى من كبار علماء الأزهر والقرويين تعتبر «كل من يتعاون مع الأعداء أو يقدم لهم مساعدة مهما كان نوعها متنصرًا مرتدًا عن دينه»(39).

أمام هذا الوضع اضطر (دي ميشيل) الحاكم العسكري الفرنسي لوهران توقيع معاهدة مع الأمير سنة 1834 إستفاد منها الأمير في توسيع رقعة الامارة واشتراء الاسلحة وتدريب الجند .. واشترط الأمير في المعاهدة أن تمده فرنسا بأسلحة وأن يمده دي ميشيل بمدربين وبالفعل وصلت بعض الأسلحة ووصل مدربون إلى الامارة .. واستمر تمدد الأمير شرقًا حيث اقتحم (المدية) و (مليانة) وكذلك (واحات بسكرة) .. ثارت في البرلمان الفرنسي ضجة كبرى وأدت الادارة الفرنسية أن الوقت ليس في صالحها وأنّ الأمير يحمل مشروع متكامل سيصفي الوجود الاستعماري إن أعطي الوقت .. لذا عزل الحاكم العسكري العام حاكم وهران (دي ميشيل) وعين الجنرال (تريزيل) في مكانه حيث قام هذا الأخير بالتحرش بالأمير وفرض هيمنته على بعض القبائل وطالبه الأمير برفع يده عنها فرفض (تريزيل) .. وتصدى الأمير لموسى بن الحسين (أبي حمار) الذي هاجم مدينة المدية مدعيًا بأنه (المهدي) وحرر مدينة المدية من شروره فثارت ثائرة تريزل واعتبر ذلك خرقًا للمعاهدة.

(39) د. بوعزيز يحيى (ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين)، ص 17.

اعتقد تريزيل أن الأمير أنهكته مواجهات العشائر والزعماء فعقد العزم على مهاجمة الأمير .. فاختار تريزل منطقة «سيق» كمكان لمواجهة الأمير .. تركه الأمير يتنقل بجيوشه حيث شاء مكتفيًا بمراقبة تحركاته فقد كان الأمير على معرفة جيدة هو وجنده بهذه المنطقة وتضاريسها .. وكان إذ ذاك تكتيكًا لتطويق تريزل وإيقاعه في المصيدة .. وحينما وصل تريزل الى الحميان ومستنقعات المقطع والتي سماها الفرنسيون فيما بعد «مأساة المقطع» وذلك سنة 1835 أرسل الجنرال تريزل في أعقابها رسالة الى الوالي العام جاء فيها «لقد أصنعت هذه المعركة المهلكة وأصنعت آمالًا كانت تبدو لي معقولة ..» وفي رسالة ثانية «إنّ هذا الفشل يجعلني أرغب في عدم الاحتفاظ بالقيادة التي أسندت إليَّ .. إنّ العملية انتهت بالفشل»(40).

وقد علق لاموريسيار عن الحالة المعنوية للجيش الفرنسي بقوله «عاينت حالة الجيش عن كثب، إنها حالة مؤلمة للغاية، فإن الروح المعنوية قد هبطت الى أقصى درجة ممكنة. وأما حالة الذعر الذي استولى عليه فهي أشد من الحالة التي عرفها الجيش عقب انسحابه من المدية، وكذلك كانت الخسائر أفدح» كما وصف كاميل روس نهاية المعركة بقوله : «لم يبق من جيشنا شيء يشبه جيشًا منظمًا، فإن الضباط والجنود يتصرفون وكأنهم أصيبوا بجنون فهم يتبادلون جملًا مقطعة غير مفهومة، هي أقرب الى الهذيان منها الى الكلام، وقد كان بعضهم يغنون ويرقصون في حالة عري كما ولدتهم أمهاتهم بعدما رموا بأكياس زادهم وتخلوا عن ثيابهم ولما وصلوا الى مدخل المضيق ولم يلح لهم (المقطع) ولا البحر الذي كانت تحجبه عن أعينهم التّلال الرملية توهموا أنهم قد دخلوا في مضيق لا مخرج منه فاستولى عليهم

(40) إسماعيل العربي (المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر) ص 99.

الرعب وهكذا راحوا يلقون بأنفسهم في المستنقعات مخاطرين بأنفسهم بالغرق وأما الجنرال تريزيل ورئيس أركان حربه فقد أعياهم المجهود المضاعف لتسكين أنفس الجنود»[41].

عينت الادارة الفرنسية بعد هذه المعركة الملحمة (الماريشال كلوزال) واليًا عامًا على الجزائر، وذلك لما لهذا الماريشال من حماس للاحتلال الكامل وخبرة بالجزائر حيث كان فيما سبق قائد جيش ..

عندما حلّ الماريشال الجديد أدرك الأمير أية مهمة جاء من أجلها هذا مزودًا بفيالق جديدة من الجنود الفرنسيين المعدين[42] إعدادًا خاصًا .. فاختار وسيلتين من وسائل المقاومة : وسيلة الحصار الاقتصادي الذي ضربه حول مدينة وهران، ومنطقة الجزائر ووسيلة فتح علاقات دولية للحصول على مزيد من الاسلحة والذخائر وفي الوقت نفسه أخذ يحصن مدينة (معسكر) عاصمة الجهاد وذلك لادراكه أنّ الفرنسيين عاقدين العزم الى إعادة هيبتهم وذلك بمعارك ضارية .. أخذ الأمير يراقب حركة كلوزيل ليكتشف كيفية تحريكه لمعاركه .. وأبدى الأمير من سرعة البديهة وحضور الفكرة ما أذهل .. فلقد رأى أن كلوزيل كان يحتل المدن ثم يخليها بعد أن يقضي على أنصار الأمير ويعين ما يتوسم فيه العمالة .. سار كلوزيل على رأس قوة كبيرة إلى مدينة (معسكر) في ديسمبر 1835 ليطعنه هناك في عرينه .. إلا أن الامير أخلى المدينة قبل أن يصل العدو الذي عمل فيها نهبا وسلبًا وحاول احراقها وما منعه من ذلك الا اشتداد هطول الامطار .. وعندما عاد الأمير بعد يومين تأثر تأثرًا شديدًا لحرق مكتبته .. وبعد شهر شنَّ كلوزيل هجومًا على مدينة (تلمسان) وكانت منشقة عن سلطة الأمير .. بعد

(41) نفس المصدر، ص 112.
(42) يحيى بوعزيز (ثورات الجزائر)، ص 20.

هذه الجولة من انتصارات كلوزيل قام الأمير بفرض حصار على مدينة تلمسان وأعاد اخضاع القبائل الخارجة عليه .. وقطع المواصلات بين وهران والمركز العسكري الذي أقامه الفرنسيون في مرسى (رشقون) وألحق بالفرنسيين هزيمة شديدة عند مصب نهر (تافنة) مما جعل الجنرال كلوزيل يعترف واصفًا إحدى هذه المعارك «استمرت المعركة خمس ساعات أبدى العرب خلالها ضروبًا من الشجاعة والاقدام بحيث أنهم كانوا يتقدمون إلى مدفعيتنا في تصميم وثبات بل واقتربوا من المدافع إلى حدٍّ أصبح معه من غير الممكن استعمال المدفعين واضطر المدفعيون الى رمي القذائف بأيديهم»[43].

وبذلك تحرج موقف الفرنسيين وبعثوا بصيحاتهم الى فرنسا طالبين النجدات السريعة فأرسلت الحكومة الفرنسية نجدات كبيرة بقيادة الجنرال بيجو في مايو/أيار 1836 وأسرع بها الى مدينة تلمسان ليفك الحصار عن الحامية الفرنسية الموجودة بها وقسَّم الى فرق ووزعها في عدة جهات لملاحقة قوات الامير المتوزعة وتمكن من التغلب على الجيش الجزائري في واقعة (سكاك) في شهر يوليو 1836 واستطاع أن يفك الحصار عن المعسكر الفرنسي الذي فرضه الأمير في وادي التفنة وكذلك فك الحصار عن مدينة تلمسان. ولكن في نفس الايام انتصر جيش الباي الحاج أحمد على الفرنسيين ورد هجومهم عن مدينة قسنطينة وكبدهم خسائر فادحة[44].

في ظل هذا التصعيد الجديد من قبل الادارة الفرنسية كان لا بدّ من وقت يعيد الامير فيه من جديد ترتيب جبهته .. وقد عرض عليه (بيجو) الهدنة والصلح فقبل الأمير ووقعت معاهدة (تافنة) والتي يبدو أنه من أهم ما تحققه

(43) إسماعيل العربي، مصدر سابق، ص 43.
(44) (45) د. محمود بوعياد (أهم الأحداث في حياة الأمير عبد القادر)، ص 230، مجلة الثقافة، عدد 75.

للأمير هو توسيع رقعة الامارة .. حيث لم تترك هذه المعاهدة لفرنسا سوى الساحل (متيجة والبليدة) .. أي لقد اعترفت فرنسا للأمير بالسيادة على ثلثي الجزائر(45) .

34

وقد استغل الفرنسيون هذه المعاهدة فهاجموا بقوات كبرى مدينة قسنطينة واحتلوها .. وتوسعوا في المنطقة الشرقية فاحتلوا جيجل وسطيف وغيرها(46) ..

استطاع الامير أن يستفيد من كل لحظة من عامي الهدنة في تنظيم جيشه وتدريبه وتسليحه وبناء إدارة نشطة والقيام بشتى أركان الحياة لمجتمع جهادي على أسس متطورة في مستوى التحدي المفروض .. وبدأ زحف الأمير الى الشرق حيث أنه يعتبر أن قسنطينة جزءًا من إمارته ليس للفرنسيين أي حق بالبقاء فيها «ولما أخذ الكافر قسنطينة من يد الباي أحمد ولم يبق في مقابلته أحد وقع النزاع بيننا وبين الايالة فالكافر يحتج بما أخذها من يد غيرنا وأنه أفنى عليها أمواله ورجاله ونحن نقول : المسلمون جسد واحد فاترك أمرهم إلينا فانتقض الصلح بيننا واشتعلت نار الحرب»(47) .

قبل أن تشتعل الحرب تمد وتعود الامارة الى بلاد القبائل حتى شرقي مدينة سطيف وتمكن الأمير من الدخول عنوة إلى قلعة عين ماضي حيث اعتصم محمد التيجاني صاحب الطريقة التيجانية الذي رفض الاعتراف بحكم الأمير .. وسيطر الأمير على معظم واحات الصحراء من البيض الى بسكرة وأصبح في وضع يسمح له أن يقطع على الفرنسيين طريق الاتصال بين الجزائر وقسنطينة وذلك لكي يتمكن من فرض الحصار عليهم وطردهم ..

(46) ثورات الجزائر، مرجع سابق، ص 23.

(47) من رسالة الأمير الى الخليفة السلطان عبد المجيد (ديسمبر 1841) سابقة الذكر.

تنبه الفرنسيون لهذه الخطة فاحتجوا عليه معتبرين أن هذه الاعمال تعد خرقًا للصلح بينهم. وسيروا قوات عسكرية الى قسنطينة عبر المناطق التي كانت ضمن الامارة فاحتج بشدة ولكن دون جواب.

جمع الأمير مجلس الشورى، وطلب إليه أن يتحمل مسؤوليته وكان رأي الأمير المحافظة على حالة السلم للتمكن من الاعداد بشكل أفضل الا أنهم في معظمهم اتخذوا قرار المواجهة فاستحلفهم جميعًا على السمع والطاعة واستنفر الناس للجهاد ثم كتب للحاكم العسكري الفرنسي يخطره بإعلان الحرب وينذره من شر عواقبه وذلك بتاريخ 18 نوفمبر 1839 «ان جميع الأهالي متفقون على الجهاد في سبيل الله وقد أجهدت نفسي في تغيير رأيهم، ولقد صدقتك وما غششتك وإني أحذرك بما وقع فابعث لي بوكيل وهران والزم نفسك حيث أنت. وإذا ما وقع منك شيء فإني لم أفهم عذرًا، إنني لك ناصح ولن يصدر مني ما يخالف كتاب الله ولقد كتبت الى ملكك فأجابني بأن أتصل بك في كل ما يتعلق بالحرب والسلم في البلاد فاعلم أنني قد أنذرتك وأنني قد اخترت الحرب»(48) .

وبذلك أعلنت الحرب وشن خليفة الأمير ونائبه ابن سالم هجومًا شاملًا على اقليم متيجة فأهلك الكثير من المعمرين الأوروبيين وخرب مزارعهم .. وتوالت الهجمات والضربات على الفرنسيين في كل مكان وحقق الأمير تفوقًا واضحًا في حين انهارت قوات الفرنسيين وسبب ذلك ضجة كبيرة في فرنسا داخل البرلمان الذي دعي للانعقاد في مايو/أيار عام 1840 م .. أمر تيير رئيس الوزراء على الاحتفاظ بالجزائر وأيده وزير الحربية الماريشال سولت .. ظلت الأمور على ما هي عليه حتى عين الماريشال سولت رئيسًا للوزراء

(48) د. يحي بوعزيز، مصدر سابق عن طريق الأمير محد، ص 26.

الفرنسية في آخر ديسمبر 1840 فاستصدر أمرًا من الملك بسحب فالي من الجزائر وتعيين الجنرال بيجو في مكانه قائدًا عامًا وأرسلت فرنسا مئة ألف جندي مجهزين بأحدث الاسلحة خاصة المدفعية[49].

هاجم بيجو القبائل المؤيدة للأمير والمناطق التي تخضع لسلطته بحرب إبادية ثم تقدم في مايو 1841 م نحو مدينة معسكر التي أخلاها الأمير وزحف على مدينة سعيدة واحتلها كذلك. وقد استولى الفرنسيون في اقليم الجزائر على (شرشال) و (المدية) وفي يناير/كانون ثاني 1842 إستولى الفرنسيون على تلمسان على تاقدمت أهم الحصون وتمكنوا لأول مرة من ربط الاتصال البري بين الجزائر ووهران .. كانت التضحيات التي يقدمها جيش الأمير باهضة للغاية.

وفي 11 نوفمبر 1842 م استطاع الفرنسيون أن يستولوا على (الزمالة) عاصمة الأمير المتنقلة التي كونها ليتمكن بفضلها من الانتقال بسرعة ومن تفادي ضربات العدو وكانت هذه ضربة قاسية للأمير ورفاقه الذين فقدوا في المرعكة أزواجهم وأولادهم حيث أسر ما يقارب عن ثلاثة آلاف شخص من الرجال والنساء. وقد دارت هذه المعركة الطاحنة في غياب الأمير وجيشه النظامي وقد استشهد في هذه المعركة خليفة الأمير محمد ابن علال من كبار قادة الجيش وأهم عمده[50]. ظل الأمير يراوغ العدو حتى استطاع أن يلجأ الى مراكش حيث قرر أن يتخذها قاعدة انطلاقة جديدة لأنه استطاع السيطرة على الدين — حسب تعبير سلطان المغرب — .. إلا أن بيجو واصل مطاردة الأمير وأوقع بالجيش المغربي *عسير المستعد* لحرب هزائم نكراء وتقدم الاسطول البحري الفرنسي وخرب ميناء طنجة واحتل المدينة وقد عقد

(49) نفس المصدر، ص 27.
(50) د. محمود أبوعياد، مرجع سابق، ص 233.

صلح بينهما في 12 سبتمبر 1844 تعهد السلطان بطرد الأمير أو اعتقاله أو تسليمه لفرنسا .. ألحق هذه الصلح باتقافية في مارس 1845 خططت بموجبها الحدود الممتدة من الساحل الى (ثنية الساسي)[51].

فخرج الأمير وجنده الى الجزائر ليتابع حركة المقاومة والتقى بكافينياك قرب سيد ابراهيم في سبتمبر سنة 1845 وفي معركة شرسة استطاع الأمير أن يلحق بالجيش الفرنسي هزيمة حقيقة ويقتل كثيرًا من الجنود الفرنسيين منهم الكولونيل مونتاياناك وأسر الامير حوالي 600 جندي فرنسي .. كان (بومعزة) قبل ذلك قد التحق بالأمير .. الا أنه بعد عودة هيبة الأمير انشق عنه .. وفي معركة له مع الفرنسيين ألقوا القبض عليه .. وما علم أهل الجزائر بعدوة الأمير حتى ثارت المناطق وكان أهم هذه الانتفاضات ثورة بعض القبائل في التطري واجهها الفرنسيون **بكل** قسوة حتى أن الكولونيل (بيليس)[52] زج بحوالي ألف شخص من الجزائريين أكثرهم من النساء والاطفال والشيوخ في مغارة (غار العقبة البيضاء) واشعل النار على فوهتها فاختنقوا جميعًا .. اشتد الضغط على الأمير فرجع على إثره الى مراكش لكن جيش السلطان كان بانتظاره وحصلت بينه وبين الجيش الشريفي معركة طاحنة على إثرها ادرك الأمير ألّا أمل يرجى من هذا السلطان (المسكين) .. كان الجنرال لاموريسير يراقب تحركات الأمير .. وكانت خيوله لا تفارق ظهورها السروج وحاصر لاموريسيير المضائق والطرق ووزع عشر فرق في صنع كمين ذو دائرة كحلقة حصان .. هذا كله حدث في عام 1847 الذي شهد من النكسات ألوان عدة : 1) استسلم في هذا العام بو معزة بعد معارك طاحنة، 2) استسلم في

(51) يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 30.
(52) نفس المصدر، ص 31.

نفس العام خليفة الأمير ابن سالم فضاعت بذلك جبهة الشرق .. وشهد هذا العام تشتت أتباع الأمير فمنهم من حصدتهم الحرب ومنهم من ألقي عليه القبض وكما أن الامكانيات المادية بدأت تضيق شيئًا فشيئًا من جراء حرق المحاصيل الزراعية والغلال من طرف الجيش الفرنسي(53) .. السلطان المسكين يخضع للضغط الفرنسي فيطارد الأمير .. باي تونس يصادر ما يصل من سلاح من طرف الخلافة عن طريقه .. ويتواطىء مع الفرنسيين .. محمد علي والي مصر مسكون بأوهام السلطة والتحالف مع الفرنسيين .. الخلافة العثمانية تعاني من ضغط شديد من قبل هجومات الصليبيين عليها في أكثر من مكان .. في الداخل في الجزائر العملاء والخونة يكونون جيوشًا تلاحق الأمير وتطارده كالجنرال (يوسف العنابي) و (عمر العيادي) و (أحمد بن فراع) وفي الداخل أيضا تجند فرنسا ثلث جيشها في مواجهة الأمير .. جيشها المزود بكامل الوسائل والامكانيات .. وأخيرًا يقع الأمير وثلة من المجاهدين في الكمين .. ما العمل ؟!! إلى أين؟. القرار هنا أصعب من أي مرحلة سبقت .. هل الهروب وإلى أين ؟ وكان القرار من طرف الأمير بالاستسلام العسكري .. قدم فرسه وسيفه للدوق دومال على أن يحمل الى (عكا) بفلسطين أو الاسكندرية .. وقف الأمير لحظات قبل تسليم سيفه تحت الشجرة التي تم عندها التسليم وخاطب الشجرة «اشهدي أيتها النخلة أن استسلامي لم يكن حفظًا لنفسي ولا جبنًا أمام الموت. إنما أنا رجل ككل الرجال، تحالفت ضدي قوى الشر في الداخل والخارج وجئت في زمان انتقلت فيه البطولة من القلوب الى المصانع. فهل حرارة ايماني تستطيع إذابة كل هذا الحديد الذي سُدِّد إلى وطني» .. تم ذلك في 24 ديسمبر سنة 1847(54).

(53) عبد الحميد بن دهوقة (الأمير عبد القادر)، ص 210، مجلة الثقافة، عدد 75.
(54) عبد الحميد دهوقة (الأمير عبد القادر والمجابهة اللامتكافئة)، ص 193.

لكن هل يمكن أن نمر على هذا الحدث ــ التسليم ــ بسهولة ؟! إن كثيرًا من الكتاب أولى بدلوه في هذا الموضوع فمنهم من أرى (أن رجل الدين في الأمير تغلب في نهاية الأمر على رجل الدولة وانطلست عليه حيل بيجو ولاموريسيير وعروضهم وفعلت بطول الزمان فعلها فوقع في أحبولة سلم الأبطال)(55) .. «ترى لو لم يستسلم الأمير ماذا كانت ستؤول اليه المقاومة الجزائرية»(56) .. ««وصدق في نهاية الأمر الأمير عبد القادر الوعود والعهود التي عاهده بها لاموريسيير وبيجو ودوق دومال)(57).

تقريبًا معظم انتقادات الكتاب لتسليم الامير تدور حول هذه النقاط .. ويرى الأخ عبد الحميد هدوقة أنّ الأمير خرج من المعركة والأوضاع أفضل مما بدأ فيها وعدد بعض ما رآه يدعم وجهة نظره.

ولمناقشة وجهة النظر هذه لا بدّ من تحديد الظرف التاريخي للغزوة الصليبية للجزائر .. وليس ذلك من أجل تبرير الاستسلام بل من أجل وضعه في اطاره الصحيح إطار الصراع الحضاري بين أمتنا الاسلامية والغرب الصليبي .. اذ في الحين نفسه كانت المعركة مشرقًا ومغربًا طاحنة ففي المشرق الخلافة تواجه انجلترا وفرنسا وروسيا في اليونان .. وفي الولايات الاسلامية (طشقند، أوزبكستان،..) يقود الامام شامل جهادًا اسلاميًا بطوليًا ضد الصليبية الروسية .. وفي المغرب العربي يقود الأمير جهادًا اسلاميًا ضد الهجمة الصليبية الفرنسية ..

كل هذا الجهاد كان منطلقه الروح الاسلامية ورفض حكم الكفار .. فكان عالم الدين في شخصي الأمير هو الباعث الحقيقي لكل طاقة جهاده التي واجه بها الكفار .. ومن الظلم للأمير ولـ «الدين» أن نقول أنّه عندما

(55) (56)، (57) عبد الحميد بن هدوقة (مصدر سابق)، ص 198، ص 211، ص 208.

تغلب رجل الدين في الأمير استسلم لأنّ هذا يعبر عن عدم دراية بحركة الأمير وجوهرها من جهة وعدم إدراك لرسالة الدين الاسلامي الذي يأمر بقتال الطاغوت والظالمين «حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله» من جهة أخرى.

ثم أي تصديق هذا الذي وقع فيه الأمير لجنرالات العدو ؟ إنها حرب استمرت خمسة عشر عامًا ذهب فيها آلاف القتلى عشرات المدن التي دمرت وأهلكت من الفرنسيين أعدادًا كبيرة حيث يذكر (بول أزان) وصفًا لهذه الحرب : «إنّ هذه الحرب المؤسفة هي نحسٌ علينا وعلى العرب سواء بسواء لقد لخص مآسيها ضابط معروف تبتعها طوال عشر سنوات بهذه الكلمات : «إنّ قتل عربي واحد يكلفنا مقتل 33 رجلًا و (150,000) فرنك فهل استسلم العرب»[58] ..

وقبل مناقشة نقطة الاستسلام نواصل مع الاستاذ عبد الحميد حيث يقول : «وفعلًا لم يكن يحركه للجهاد العامل الديني وحده والا لما عقد تلك المعاهدات مع فرنسا. ولما طلب العون من انقلترا .. إن كل الاعمال التي قام بها الأمير منذ بيعته الأولى في 27 نوفمبر 1832 من .. و .. و .. كل ذلك لا يعني فقط جهاد الكفار بالمعنى الديني الحنيف ولكن يعني بالدرجة الأولى محاربة المحتل والدفاع عن الوطن ووحدته».

ينظر الاستاذ هنا إلى الدي نفس النظرة الغربية الى الدين لأن أي معرفة عادية لسيرة رسولنا صلى الله عليه وسلم ترينا أنه عقد معاهدات مع المشركين والكفرة الى درجة أن بعض المسلمين ــ كالفاروق عمر ــ وجد في بعضها ذلًا للمسلمين .. وترينا سيرة الرسول كذلك أنه كان يجهز جيشه بسلاح

(58) نفس المصدر، ص 196.

يشتري بعضه من الكافرين .. وبالتأكيد أن كل عمل عمله رسول الله إنما هو سنة واجبة الاتباع مع معرفة الاسباب والدواعي .. إنّ تصرف الامير في المعاهدات وطلب سلاح من بريطانيا وإعطاءها مقابله حبوبًا، كل هذا لا يخرج عن الدين بالعكس تمامًا إنّ الدين يدفع الى مثل هذا السلوك.

أمّا الدفاع عن الوطن ووحدته ومحاربة المحتل .. فهذه أيضًا مما يحرص عليه الدين وهذا أمر معلوم. ولكن يبدو أن فهم مصطلح (الوطن) عند الاستاذ ليس هو مصطلح (الوطن) عند الأمير .. فالأمير يرى أن الوطن بالمعنى السياسي هو الذي يخضع لتوجه سياسي واحد تحكمه ضوابط واحدة بحاكم واحد .. وهذا الوطن هو الخلافة العثمانية الذائدة عن بيضة الاسلام. وهو ــ الأمير ــ بهذا الجهاد الذي قام به انما دافع عن ثغر من ثغور المسلمين وعن جزءٍ لا يتجزء من الخلافة محاربًا الغزاة الكفار الذين جاءوا لتحطيم الخلافة ونهب ثروات المسلمين والحكم فيهم بغير منهج الله .. بهذ يكون الدفاع عن الوطن ووحدته ومحاربة المحتل ضمن التكليف الشرعي الذي عليه الدين على الأمير .. هكذا فهم الأمير واجبه وبهذا طبع كل حركة من حركاته وكل سلوك من سلوكاته .. إنّ كل الأعمال التي قام بها الأمير منذ بيعته الأولى تخضع للآية الكريمة ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين لا تعلموهم﴾ فكيف يصبح إذن العمل على توفير أسباب القوة هو من مهمة دافع الدفاع عن الوطن وليس من مهمة الدافع الديني ؟!! الا اذا عزلنا (الوطن) عن الدين ثم عزلنا الأمير عن الدين.

إنّ الأمير ليس عالم دين فحسب أي ليس عارفًا بأمور الاصول وعلم التفسير وعلم الحديث فحسب بل إنه ابن زاوية صوفية عميق الايمان بأن العرفان بالله وبنور الله انما هو بداية كل خير ..

أما مسألة (الاستسلام) فهي كما سبق يجب أن تفهم ضمن سياق كفاح الأمة في تلك المرحلة ولا أقول ميزان القوى يومذاك .. لأنّ امتنا باستمرار لم تنتصر وعدوها أضعف منها انما ننتصر على العدو وهو الأقوى عدة والأكثر عددًا وذلك لتحقيق الأعجاز الإلهي ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾.

فالمهم في معركة الأمة مع أعدائها ليست قوة العدو أو ضعفه إنما هو حشد طاقة الأمة أو عدمه، وهذه مسألة ينبغي أن تدرك ويلفت اليها الانتباه .. بعكس ما يتم عليه الحال عندما ينتصر الاعداء على أمتنا .. إنهم لا ينتصرون الا اذا كانوا الأكثر عددًا والأكثر عدة وهذا في حد ذاته ليس سبب الانتصار الرئيسي .. إن سبب الانتصار الرئيسي لهم علينا هو ابتعادنا عن أوامر القرآن وسنة الرسول .. أوامر القرآن وسنة الرسول الشاملة لكل مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية والعسكرية والسياسية.

هذا مدخل فكري مهم لامكانية تحليل (استسلام) الأمير .. إذ أن الأمير جاء في ذيل منحنى حضاري لأمة عاشت مهيمنة حضاريًا لأكثر من 12,5 قرن .. ودبت فيها عوالم الانهيار لأهمها أسباب التواصل والتقدم على خط الاسلام .. واستسلمت الى الدعة والراحة الى حدٍ ما فجلبت هذه الحالة عليها أخلاقًا اجتماعية وقيمًا اجتماعية ليست من الدين وهذا دخل في كل المجالات الثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية.

جاء الأمير في مرحلة الانهيارات التي بدأت تدوي في كيان الأمة من جهة .. وفي مرحلة عنف الهجمة الصليبية التي جمعت قواها من جديد واندفعت باحقادها التاريخية وأطماعها التاريخية مستغلة تلك الظروف الخطيرة التي تمر بها الأمة نحو تحقيق انتصارات في كل مكان مشرقًا ومغربًا .. هذا من جهة أخرى ..

حاول الأمير جمع ما تبقى وحشد الطاقة لمواجهة هذه الصليبية المدججة بالسلاح ووسع جبهته واستنفر ما أمكنه من استنفار .. استنفر العلماء للفتوى بفرضية الجهاد واستنفر القبائل والعشائر لطرد الكافرين وحاول أن يجعل من مراكش عمقًا لهذه العملية الجهادية وعرض البيعة على سلطان المغرب .. استنجد بالخلافة .. استجلب الاسلحة وكان يلح في طلب المزيد .. نظم جيشًا وخاض حروبًا .. وعمل كل ما يمكن أن يعمله قائد مثالي عبقري.

ولكن الجبهة ممزقة .. السلطان تقوده سذاجته شيئًا فشيئًا الى محاربة الأمير وملاحقته .. باي تونس يصادر الاسلحة ويرجع الجنود العثمانيين .. الخلافة تعيش اخطر مراحلها وهي منهكة من جراء الحروب .. محمد على مأسور للنموذج الفرنسي طامع بتوسيع (امبراطوريته) .. أضف الى هذا حالة الضعف العام الذي كان سائدًا في الجزائر على كافة المستويات اذ أن المجتمع الجزائري يومئذ قد سادت فيه الروح القبلية والجهوية .. هذا في الحين الذي برزت فيه شخصيات عميلة للاجنبي مثل مصطفى بومزراق الطامع بالسلطة والجنرالات سابقو الذكر .. مجمل القول أنّ جبهة الأمير والتي هي متأثرة بالجبهة العامة للأمة ومؤثرة فيها لم تكن في مستوى تحقيق الغلبة والنصر على هجمة صليبية شاملة .. وقد كان الجيش الفرنسي يزيد عن (120,000) جنديًا بأسلحتهم المتطورة تطورًا نوعيًا بينما جيش الأمير النظامي وغير النظامي بلغ وهذا في أعز أيامه (58960) جنديًا منهم (5960) جنديًا نظاميًا فقط وكان الأمير لا يستطيع أن يجند للمعركة في أحسن الاحوال أكثر من (20) ألف جنديًا.

هذا هو الواقع الذي أعلن فيه الأمير الجهاد .. فقاتل قتال الفارس يكر ويفر يضرب يمينًا وشمالًا ينصب الكمائن ويضرب المؤخرات وهو في كل الأحوال يشغل العدو ويوقع فيه أفدح الخسائر الى الدرجة التي استدعت قدوم مزيد من

النجدات للعدو .. واستمرت المعركة أكثر مما يتوقع كل القادة العسكريين يومذاك .. أطالها الأمير بعزمه الدؤوب رغم فشله في أن يشرّك السلطان أو باي تونس التعيس في الجهاد أو أن يتحقق نهوض على مستوى الخلافة ..

في النهاية وجد الأمير بعين الوعي العميق وتحمل المسؤولية التاريخية أنّ الجولة انتهت بينه وبين الفرنسيين فقد سيطروا على كل مواقعه والسلطان يتابعه .. وأخيرًا ها هو يقع في الكمين ما العمل اذن ؟.. إن حرب 17 عامًا جلبت القهر لجموع الناس والبؤس والجوع ومزيد من البطش .. والأمير يفقد كل امكانيات المواصلة .. ما العمل ؟.

إنه حاربهم حرب الفارس .. فلا بدّ أن تنتهي الجولة كما يريدها هو .. إنها الهزيمة فيجب أن يبادر ويصرح بها بكل جرأة .. ويعلنها أنها هكذا انتهت بهزيمة عسكرية ويقدم دلائل على أنها عسكرية فيعطي سيفه وفرسه للدوق دومال .. ما الذي كان يمكن أن يفعله الأمير ؟ة الدخول في عملية انتحارية ثم تنتهي بمزيد من التشنيع الفرنسي فيمن يتبقى خلفه ؟! قدر الأمير الظروف العامة والخاصة فقرر أنه لا إمكانية على الاطلاق للمواصلة .. فالهزيمة شاملة وفي كل مكان أمام الهجمة الغربية وقد فعل هو كل ما يستطيع.

وأترك المجال للأمير يتحدث عن هذا الأمر : «لا أرى الا التسليم لقضاء الله والرضى به، ولقد أجهدت نفسي في الذبّ عن الدين والبلاد، وبذلت وسعي في طلب راحة الحاضر منها والباد، وذلك من حين اهتز عضدي شبابي، وافترّ عن شباة الهند نابي، وأقمت على ذلك ما ينيف على سبعة عشرة سنة أقتحم المهالك، وأملأ بالجيوش الجرارة الفجاج والمسالك، أستحقر العدو على كثرته، وأستسهل استصعابه، أتوغل غير خائف أوريته وشعابه، وأرتب له في طريقه الرصائد، وأنصب له فيها المكائد والمصائد، وتارة أنقضّ عليه انقضاض

الجارح، وأخرى أنصبّ عليه انصباب الطير الى المسارح، وكثيرًا، ما كنت أبيّته فأفنيه، وأصحبه فأبرد غليلي منه وأشفيه، ولازلت في أيامي كلها أرى المنية ولا الدنية، وأشمر على أقوى ساعد وبنان، وأقضي حق الجهاد بالهند والسنان، إلى أن فقدت المعاضد والمساعد، وفني الطارف والتالد، ودبت إليّ من بني ديني الأفاعي، واشتملت عليّ المساعي، والآن بلغ السيل الزّبى، والحزام الطيبين، فسبحان من لا يكيده كائد، ولا يبيد ملكه، وكل شيء بائد»[59].

أجل هكذا انتهى جهاد الأمير على أرض الجزائر .. وهو يعني إنتهاء مرحلة المواجهة المنظمة للهجمة الصليبية الى غلبة الهجمة على أمتنا .. لتبدأ فيما بعد انتفاضات ومقاومات جهوية تعبر عن تواصل الرفض للوجود الصليبي .. هذه المقاومات التي لن يبتعد عنها الأمير[60].

ما سبق ليس تبريرًا .. إنما هو محاولة لرؤية الواقع التاريخي لذلك الحدث .. لأنه من الظلم أن نحاكم الأمير لواقع ننعم فيه اليوم بالاستقلال وإندحار عسكر فرنسا .. فكل حادثة تاريخية ينبغي أن تدرس ضمن ظروفها التاريخية وبابعادها الحقيقية بعيدًا عن الأفكار المسقطة المسبقة .. وبعيدًا عن السيناريو الذي يصنعه العدو للحدث والله أعلم.

(59) محمد الطيب العلوي (مظاهر المقاومة الجزائرية)، ص 46-47.

(60) يراجع بأهمية كتاب (كفاح الجزائر من خلال الوثائق) للدكتور يحيى بوعزيز.

الباب الثاني

مقاومة الشرق الجزائري

الحاج أحمد باي

[إنّ هذا الباي ليس كما أوحي إلي عندما قدمت إلى الجزائر من أنه شخص لا قيمة له بل هو على العكس من ذلك يعدُّ صاحب الولاية والأكثر نفوذًا وقوة].

ـ الدوق دوروفيكو ـ

[اعلموا أنّ الموت عندنا تحت أسوار بلدتنا أحسن من حياتنا تحت سلطة فرنسا].

ـ الحاج أحمد ـ

1 ـ [أهمية دراسة دور الحاج أحمد تأتي ضمن سياق الحديث عن وحدة الأمة والمهمة الحقيقية للخلافة الاسلامية .. فلئن إنهزم الداي حسين والباي حسن وهم يمثلون الوضع الرسمي في الخلافة فإن الحاج أحمد يمثل أيضًا جزءًا من هذه الوضعية الرسمية .. بل إنه يمثل وجهها الحقيقي الذي قاوم طيلة ثلاثة قرون ضد الصليبية في البحر المتوسط ذائدًا عن ديار الاسلام .. أما الداي والباي حسن فهؤلاء يمثلون حالة الضعف والخور في

داخل هذه الرسمية .. وبهذا فإن الباي الحاج أحمد يعتبر إمتدادًا لماضي مجيد .. في حين يمثل الداي حسن الطارىء والاستثناء الذي بدأ يتمدد في داخل الأمة].

2 ـ [يعود اهتمام الادارة الفرنسية بقطاع الشرق الجزائري الى فترات سابقة عن الاحتلال منذ أن أسست لها قواعد نفوذ بسواحل الشرق (القالة) وذلك لأنّ هذا الاقليم غني بثرواته الطبيعية والحيوانية خاصة زراعة الحبوب بمختلف أنواعها بجانب الانتاج من الزيت والعسل والصوف والجلود بالاضافة الى الثروة الخشبية].

3 ـ [(إنه بدون السيطرة على مدينة قسنطينة ومنطقة الشرق لا يمكن البقاء لفرنسا بالجزائر) .. هذا ما أدركته الادارة الاستعمارية الفرنسية وهي تواجه وهي تواجه المقاومة والجهاد في وسط البلاد .. وعزز هذه النظرة استسلام الداي حسين والباي حسن .. أي استسلام الجزء الأكبر من السلطة الرسمية فغلب الظن عند الفرنسيين أنهم سيواجهون في قسنطينة بايًا مثله مثل الداي حسين أو الباي حسن ومن هنا كان الحماس شديد لدى الجنرالات الفرنسيين فها هو كلوزيل يصف امكانية احتلال قسنطينة «إنه لا يعدوا أن يكون مجرد نزهة»[62] .. ودعم هذا الحماس ما أجروه مع المملوك يوسف اليهودي الذي إدَّعى الاسلام وحرض الناس ضد الباي الحاج أحمد أثناء وجوده في العاصمة .. فنصّبه الفرنسيون على رأس قواتهم في (عنابة)].

وبعد احتلال العاصمة وسهل متيجة وجه وزير الحربية تعليماته يوم 10 ديسمبر 1837 الى القائد فالي على أن يعمل على احتلال قسنطينة

(61) الاستاد حميدة عميراوي، مرجع سابق، ص 48 وذلك على لسان الجنرال روفيكو.

(62) شارل أندريه جوليان (تاريخ الجزائر المعاصرة)، الجزء الأول، ص 123.

بأكملها، وعلى أن يخطط بشكل جيد لايجاد طرق ناجحة لربط الساحل بالداخل(63).

وفي الجهة المقابلة .. يعود الحاج أحمد بعد سقوط العاصمة واستسلام الداي .. يعود بمن بقي معه من جيشه الى عاصمة إقليمه قسنطينة ليجد مؤامرة يوسف المملوك .. تقضي الى خلع الباي أحمد .. الا أن حسن سمعته وتدينه حالا دون نجاح هذه المؤامرة .. وجد الحاج نفسه أمام عدة جبهات عليه أن يحارب عليها جميعًا.

1 ــ جبهة فرنسا إذ أنه يرفض الاحتلال منذ البداية ولم يتقبل الأمر الواقع الذي تريد أن تفرضه جيوش فرنسا «من الأمة المحافظة على شرفها وبلدها، الى العسكر الفرنسي المعتدي على حقوق غيره قد وصلتنا رسالتكم وفهمنا ما ذكرتموه فيها، نعم إن مركزنا أمسى في خطرٍ عظيم ولكن استيلاءكم على قسنطينة المحمية بالأبطال العرب الذين لا يهابون الموت موقوف على قتل آخر واحد منهم واعلموا أن الموت عندنا تحت أسوار بلدتنا أحسن من حياتنا تحت سلطة فرنسا»(64).

2 ــ جبهة الطامعين في منصبه وولايته وهم كثيرون وحاقدون استغلوا كونه تركيًا فاستضعفوا شأنه حيث لا وجود لقبيلة تحميه وتشدُّ أزره كما هو شأن زعماء المقاومة في كل وقت.

3 ــ جبهة الخونة الذين تآمروا على حياته وعلى الديار الى درجة التحالف مع الجيش الفرنسي.

4 ــ جبهة باي تونس النكد الذي كان الجنرالات الفرنسيون يحركونه عندما تحين المناسبات وحيث أعدَّ بايًا آخرًا لقسنطينة تآمرًا ضد الحاج

(63) حميدة عميراوي، مرجع سابق، ص 55.
(64) من رسالة بعثها الحاج ردًا على عرض الجنرال الفرنسي بالصلح (المصدر محمد الطيب العلوي)، ص 57.

أحمد مقابل غرامات فرنسا .. وحيث عرقل وصول الاسلحة والذخائر والمساعدات التي كانت ترسل الى قسنطينة.

فكان التوجه إلى أهل قسنطينة بدءًا لفضح مؤامرة الفرنسيين التي لا تستهدف شخص الحاج إنما تستهدف احتلال قسنطينة واخضاعها لحكم الكفار .. وأعاد أهل قسنطينة مبايعته على الجهاد وتخلص من العصبية القبلية تخلصًا أعانه على توحيد كلمة الأعراش وجمع شتات القبائل المتنافرة وتنظيم المقاومة.

فنظم أموره الادارية وألف مجلس شورى وكون مجلسًا عسكريًا، وخطط استرتيجية لمحاربة جيوش الاحتلال في كل السواحل التابعة لاقليمه، وتمكن في ظرف وجيز من توحيد السكان والقبائل المتناحرة، واكتسب محبة لم يكسبها يوم كان بايًا سميًا(65) ..

وأخذ الحاج يوزع المسؤوليات العسكرية فأولى أمر الدفاع عن قسنطينة الى الخزناجي (بن عيسى) و (محمد بن البجاوي) وأعد لهما ألف فارس وثلاثين مدفعًا كبيرًا. واستدعى من سائر مناطق البايلك قوات كبيرة بلغ تعدادها خمسة آلاف فارس وألفا وخمسمائة رجل(66) وجعل من (سيدي مبروك) معسكرًا لقواته.

تحركت القوات الفرنسية من عنابة وتمركزت في عقبة العشاري بين الحامة وقسنطينة .. وبعد الاصطدام الأول قرر الحاج أحمد أن يناوشهم لاستدراجهم .. حتى اذا ما اقتربوا من سفوح المدينة حيث طبيعة قسنطينة الوعرة أصبحوا بين فكي كماشة .. قوات المدينة المجهزة للدفاع وقوات

(65) محمد الطيب العلوي (مظاهر المقاومة الجزائرية)، مرجع سابق، ص 52-54.
(66) د. يحي بوعزيز (ثورات الجزائر)، مرجع سابق، ص 41.

الحاج أحمد التي اتخذت لها مركزًا في مؤخرتهم .. وبالفعل هاجمه الحاج أحمد من المؤخرة وقتل له عددًا من الجنود وغنم ما عندهم .. إنسحب العدو وتمركز في هضبة المنصورة وفي الكدية وذلك بقصد شن هجوم للاطباق على المدينة .. ونصب مدافعه لقصف المدينة.

أمَّا الحاج أحمد فقد تمركز في (مسلح) على الطريق إلى المدينة .. وبدأ الاشتباك واستمرت المعركة أسبوعًا كاملاً وتواصلت ليل نهار، ولما تأكد العدو من فشله وأوشكت ذخيرته تنفذ وخاب أمله في اقتحام باب الحديد وباب القنطرة تفطن الحاج أحمد لذلك فقرر مطاردتهم ببطء واستمر في مطاردتهم من بعيد حتى الى ما وراء قالمة ومجاز عمار(67).

عاد الحاج الى قسنطينة فنفذ حكم الاعدام في شيخ البلد وبعض أتباعه حيث قد حاولوا تسليم المدينة إلى الأعداء خلال الحصار .. وشرع في إصلاح وترميم ما أحدثه العدو من ثغرات في حصون المدينة واستحكاماتها لمواجهة هجومات العدو المتوقعة مستقبلاً.

أدرك الفرنسيون أنّ هذا الموقع الاستراتيجي الحساس قد يشكل بالنسبة لهم خطرًا حقيقيًا في المستقبل .. فأصبح من الضرورة لاستمرار الحالة الاستعمارية محاصرة هذا الخطر لتبديده فيما بعد .. فتحرك الفرنسيون على صعيد المفاوضات يرسلون وفودًا للحاج قصد توقيع اتفاقية أو هدنة حيث كلف (دامرمون) قائد الحملة على الشرق الجزائري اليهوديّ (بوجناح) بالاتصال بالحاج أحمد وتتلخص اقتراحات دامرمون في أن يدفع الحاج أحمد مليوني (دورو) كغرامة حرب وأن يسمح الحاج بتمركز حامية فرنسية في قصبة قسنطينة ومقابل هذا تبقى سيطرته على المنطقة التي تمتد غرب مجاز عمار إلى قسنطينة(68).

(67) د. يحي بوعزيز (ثورات الجزائر)، مرجع سابق، ص 42.
(68) نفس المصدر، ص 44.

قبل الحاج بعض الشروط مثل أن يدفع ضريبة سنوية ومبلغًا من المال صغيرًا كتعويض ولكنه رفض أن يترك الحرية للناس أن يخضعوا للسلطة الفرنسية(69) وأرسل وفدًا إلى دانرمون ليتفاوض معه مباشرة إلا أنّ الفرنسيين استغلوا هذه المدة للاعداد بشكل أوسع لهجوم جديد على قسنطينة .. وفي هذه المرة أعدّ الفرنسيون جيشًا ضخمًا مكونًا من (11000) جنديا ودعموه بضباط سامين معروفين بقدراتهم القتالية وبتجاربهم وحنكتهم في الميدان العسكري أمثال : تريزل، وولبير، لامي، هولد دي فلوي، كومب، لاموريسيار. تحت قيادة الجنرال دانرمون شخصيًا(70).

كان الاعداد في الجهتين اعدادًا واسعًا حيث اعتبر الفرنسيون أنّ انتصارهم في هذه المرة يعني إنهاء أخطر عقبة تواجههم في الشرق الجزائري .. وذلك ليمكنهم فيما بعد من التفرغ لمواجهة الأمير الذي استغل معاهدة الهدنة في تسليح جيشه وتنظيم دولته والتعبئة بشكل واسع. وكان الانتصار بالنسبة لأهل قسنطينة يعني إنهاء خطر الهجوم بشكل نهائي .. كما كانت الهزيمة تعني احتلال قسنطينة .. لذ عباء كل ما في الوسع وتورعت القوات على محيط قسنطينة ومداخلها الاستراتيجية.

أدرك الفرنسيون أخطاءهم في الهجوم السابق واستعوبو خطة الحاج أحمد في كيفية التصدي والمدافعة .. فظموا جيشهم تنظيمًا محكمًا وألقوا بثقلهم في المعركة.

وقع القسنطينيون في أخطاء فنية وذلك باعتمادهم خطتهم السابقة في التصدي للفرنسيين . حيث كانت المقاومة في أساسها مقاومة شعبية تفتقد

(69) نفس المصدر والصفحة.
(70) محمد الطيب العلوي (مظاهر المقاومة الجزائرية)، ص 55.

الى في الحروب ذ خبرة .. وكان قاده المجاهدين رجال أمناء ثقات لكنهم ليسوا من أهل الحرب خبرة مدرية .. فكانت المواجهة غير متكافئة.

بالرغم من هذ منجرد إبتدء الهجوم الفرنسي تصدت طلائع الجهاد ورماة المدفعية للجيش الفرنسي حيث قتل الجنرل مافرمون الحاكم العسكري العام وأصيب الجنرل فريكو وقتل العديد من الضباط الفرنسيين .. وكاد المقاومون يحققون النصر بعد هذا التصدي للفرنسيين وبعد نتائجه الأولية .. إلا أن الفرنسيين ستطاعو أن يفتحوا ثغرة وهي المنفذ الوحيد للتوغل في المدينة فقاتل المسلمون من بيت لبيت واستشهد قائدهم (البجاوي) في وسط المدينة وكانت معركة أشبه بالملحمة. كان ذلك سنة 1837 م.

إثر هذه الهزيمة العسكرية قر الحاج أحمد قطع الطريق بين عنابة وقسنطينة ليقطع الامدد عن القوات الفرنسية ليسهل عليه فيما بعد طرد الأعداء من قسنطينة[71] .. حيث «أن العدو خسر بالاضافة الى كبار الجنرالات عددًا آخر من الضباط المعتبرين وأنّ المؤن قد تكون نفذت وعليه فإذا استطعنا أن نتمركز في طريق عنابة بحيث نقطع حركة المرور وجميع الاتصالات بالمكان الذي يمكن أن يبعث التجدات فإنه يكون لنا أمل كبير في تحقيق النصر»[72].

وكاد مشروع الحاج أحمد هذا أن يدخل حيز التنفيذ إلا أنّ خاله (ابن قانة) اعترض على ذلك مدعيًا بأنّ هذا يعرض الجميع للهلاك وفي هذا الصدد يعقب الحاج على هذا الموقف قائلا : «وأكرر لقد اتبعت رأي بوعزيز بن قانة وكان ذلك هو مصابي الأعظم»[73].

(71) يحيى بوعزيز (ثورات الجزائر)، ص 45.
(72) د. العربي الزبيري (مذكرات أحمد باي)، ص 77، الترجمة العربية.
(73) نفس المصدر والصفحة.

يتوجه الحاج أحمد بمن بقى من رفاقه في الجهاد نحو الجنوب متخذًا من الأوراس وبعض مناطق الصحراء ميدانًا للجهاد ضد الجيوش الفرنسية الغازية .. خاض ضدها المعارك العنيفة حقق في بعضها انتصارات وانهزم في بعضها[74] .

كان الحاج أحمد يعتمد اعتمادًا أساسيًا في استراتيجية جهاده على المدد الخارجي والذي كان ينبغي أن يصله من الخلافة .. وفعلًا وصلت نجدات من الخليفة الى تونس على أربعة بواخر كلن الباي التعس باي تونس حجز المدافع الأثنى عشر والذخائر ورد الجنود العثمانيين على أعقابهم مدعيًا بأنّه سيرسل الاسلحة ولكنه يحتاج وقت لمراوغة فرنسا ومخادعتها[75] .

لذا وقع الحاج أحمد في ظروف صعبة وقاسية .. إلا أنه استمر في مقاومته ما يقارب من 18 عامًا دون كلل حتى أنه في احدى المعارك «اشتد به المرض ولم يستطع أن يشارك بنفسه في المعركة فأخفاه أصحابه في الغابة قريبًا من مكان المعركة حيث كان هناك يسمع بنفسه دوي الرصاص»[76] .

تقدّم السن بالحاج أحمد واشتد به المرض وانفض من حوله الناس وقد انتابهم شعور الملل من طول الحرب .. ولم تصله امدادات .. وكان مقطوع الصلة بالعالم الخارجي .. وبدأ التناحر يدب في القبائل والعشائر.

بقي الحاج أحمد عاميه الآخيرين في جبل أحمر خدو .. فكتب إليه قائد القوات الفرنسية في بسكرة يطلب منه وضع حد لحالة الحرب .. وكتب له قائد باتنة أيضا بنفس هذه الروح .. انتهى ذلك بتوقيع معاهدة الاستسلام

(74) محمد الطيب العلوي، ص 59، مرجع سابق.
(75) يحيى بوعزيز (ثورات الجزائر)، ص 43.
(76) نفس المصدر، ص 49.

في 5 حزيران 1848 م على أن يسمح له بالهجرة إلى أحد البلدان الاسلامية(77). إلا أنه مات في الجزائر العاصمة عام 1850 م.

الأمير والحاج :

إن فقدان بوصلة التحليل وعدم التيقظ الحذر المستمر تجعل الاقتباس ـــ أحيانًا ـــ مما كتبه المستشرقون أو المؤرخون الاستعماريون مادة أساسية في الحكم على مواقفنا التاريخية ورموزنا الاسلامية العظيمة .. ولما كان موقف هؤلاء المؤرخين الغربيين إما متحاملًا أو متآمرًا بحكم الموقع السياسي والفكري أو في أحسن الأحوال جاهلًا لطبيعة دوافعنا نحو الجهاد وكفاحنا

للمستعمر الكافر حيث يحاول فهم تجاربنا وفق المنهج الغربي .. لما كان هذا حاصلًا فإنه لمن الظلم للنفس أن نستشهد بكلام هؤلاء في المواقع التي تحتمل التأويل والتي ليس لدينا عنها وثائق كافية .. ففي هذه الحالة علينا أن نجتهد في البحث عن الوثائق الصحيحة التي تساعدنا على تحليل هذه المواقع بروح جادة ملتزمة منبعثة من منهج الأمة الخاص ووفق قيمها المتميزة .. وعلينا أن نقف موقف الحذر والشك من كل ما يكتب وراء البحر .. فها نحن اليوم وأمام أعيننا وفي الواقع الملموس نرى ونسمع تزييفًا وتحريفًا لا حدود له لواقعنا السياسي والاجتماعي الذي نعيشه من قبل أجهزة الاعلام العالمية وتقاريرها ودراساتها (العلمية والاكاديمية) وهي ستصبح في يوم من الأيام مصدرًا للبحوث التاريخية .. فكيف هي الحال إذن بأحداث ووقائع تمت مع الهجمة الغربية التي باركتها الكنيسة والرأسمالية الغربية ودعمتها فيما بعد الاشتراكية الأوربية .. وقائع قبل قرن ونصف في مرحلة حرجة من تاريخ أمتنا .. فهل يجوز الاستناد في البحث حولها الى الوثائق

(77) نفس المصدر، ص 50.

الموجودة عند الغرب دون تمحيص وتدقيق ونحن أول من وضع نظرية (الجرح والتعديل) و (السند والمتن) وتشدد فيها تشددًا جعلها من ثمرات العقل الانساني العظيمة هذا العقل الذي استجاب لنداء الله ﴿.. **إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾ ؟! هل يجوز أن نسحب تحليلات المؤرخين الغربيين على اختلافاتنا وكفاحنا كمادة علمية نزيهة ونحن نعلم بواعثهم لتلك التحليلات ؟!! إنّ هذا لا يجوز على الاطلاق !. وإنّ التساهل فيه يعتبر من أخطر عمليات الاختراق لوعينا فضلًا عما يثيره في نفوس هذه الأمة من الاحباط واليأس.

لقد كتب الدكتور يحيى بوعزيز في علاقة الحاج بالأمير .. ويعتبر ما كتبه ملخصًا لما هو شائع حول هذا الموضوع .. لقد جاء في (ص 46) من كتابه الهام (ثورات الجزائر في القرنين) : «وكان الأمير عبد القادر قبل احتلال قسنطينة بوقت قصير قد كتب إلى سكان بايليك قسنطينة رسائل أخطرهم فيها بإبرامه صلح (تافنة) مع الفرنسيين وطلب منهم أن يطيعوه هو ويخلعوا طاعة الحاج أحمد وإلا فإنه سيثير الفرنسيين ضدهم ويتعاون مع الفرنسيين لسحقهم .. ولم يستجب له سوى فرحات بن سعيد الذي كان ينتظر مثل هذه الفرصة ليستعيد منصب شيخ العرب .. وبعد هذا كلف الأمير عامله على التيطري محمد البركاني بمهاجمة الحاج أحمد في بسكرة».

كان مصدر الدكتور بوعزيز في هذا الحديث كتاب لـ (بول أوزان) بعنوان «الأمير عبد القادر من 1808 إلى 1883» .. ويبدو أن هذه المعلومة كانت وراء قول الدكتور في صفحة سابقة ص 23 : «وعلى إثر توقيع هذه المعاهدة ـــ (معاهدة تافنة) ـــ هاجم الفرنسيون مدينة قسنطينة واحتلوها وكان استيلاؤهم عليها بداية لتوسعهم في هذه المنطقة فاستولوا على مدينة

جيجل وسطيف وغيرها ولم يحرك الأمير عبد القادر ساكنًا ولم يحاول أن ينجد قسنطينة ولو فعل ذلك لتطورت الأمور تطورًا آخر. وكان سكوته وإحجامه عن نجدة قسنطينة سببًا قويًا لتفرغ الفرنسيين بعد ذلك لمحاربته بشكل أعنف وأخطر ..».

يبدو من هذا الكلام أن هناك عداءً مستفحلًا بين الأمير والحاج .. وأنّ هذا العداء أخذ من طرف الأمير شكلًا متصاعدًا الى الدرجة التي يبدي فيها استعداده للتعاون مع الفرنسيين لسحق أهل قسنطينة وماذا وراء ذلك ؟! (إنه حب الأمير للزعامة والسلطة) !!! بل ها هو يحجم عن نجدة قسنطينة ولم يحرك ساكنا !!.

لا بدّ من الاجابة على هذه المسألة من معرفة عبد القادر الأمير المسلم العالم العارف بحدود الشرع الذي يرى أن حربه ضد الفرنسيين هي حرب ضد كافرٍ معتدٍ .. والذي يطلع على رسائل الأمير أو خطبه الجهادية يتجلى له هذا الأمر بوضوح تام .. ولنحاول جعل هذه القضية على عدة محاور.

المحور الأول : **المعاهدات مع فرنسا** :

برغم ما كشف عنه الأخ الدكتور العربي الزبيري في كتابه الأخير «الغزو الثقافي للجزائر من عام 1962 إلى عام 1982» حيث شكك في اتفاقية (تافنة) .. برغم هذا فإن الذي جرى هو هدنة عسكرية بين الأمير والقوات الفرنسية تعترف فرنسا بموجبها بشرعية السلطة الجزائرية على تراب الجزائر هذا من جهة ومن جهة أخرى يُدعّم الأمير في هذه الفرصة من الوقت جيشه وقواته ولندعه يتحدث عن هذه المسألة «ولما فات المسلمين قتال الكفار في الذهاب اجتمعنا وقاتلناهم في الاياب قتالًا متعددًا، بقيت الكفار والمسلمين كأنهم خشب مسندة، ثم رجع الى وهران وترك بعض عسكره مع

الينشاوي الزين بتلمسان فأقاموا بها سنة ونصف في ضيق الحصار والهوان؛ فخرج الكافر ليبلغهم الزاد فتلقاه المسلمون وردوه بالهزم والنكاد. وبقى محصورًا على شاطيء البحر شهرين، ماورج، والمسلمون كل يوم يقاتلونه حتى جاءه المدد من سيده فخرج.

ولما رءا عدو الله ما بلغه من المشقة وما لحقهم من الحصار والقتال مع بعد الشقة طلب الصلح مع المسلمين على مالٍ يدفعه للمجاهدين فأجبناه رجاء أن نستريح لمثلها، ونستعد بالسلاح والكراع لنيلها ولقد جعل الله في ذلك للمسلمين صلاحًا ولأمور الدين نجاحًا»(78). هذه هي ظروف الصلح وهذه هي بواعثه .. وفي الحين نفسه كان الحاج أحمد يجري اتصالات مع الفرنسيين لتوقيع معاهدة صلح الا أن الفرنسيين قدروا أن قوة الحاج أحمد يمكن التخلص منها بسرعة فأعدوا لاقتحام قسنطينة واشترطوا للصلح شروط قاسية رفضها الحاج أحمد.

إذن فالمعاهدات من حيث المبدأ حاولها كل من الأمير والحاج أحمد .. قد وفق الأمير في فرض شروط الصلح .. في حين تعسف الفرنسيون في شروط الصلح مع الحاج .. فلو توفق الحاج في معاهدة صلح وكان هذا أمر ممكن بشروط معينة فهل يبقى حديث عن تفرد الأمير بتوقيع معاهدة صلح .. هذا من جهة ومن جهة أخرى لم يكن لأحدهما على الآخر سلطان !!.

وقد استغل الأمير كل لحظة من لحظات الهدنة الحربية في التعبئة وحشد الطاقات وتوحيد الجبهة الداخلية وهذا كله أمرٌ في غاية الأهمية في استراتيجية تقوم على ضرورة طرد المستعمر الكافر من كافة أرجاء البلاد.

المحور الثاني **موقف الحاج من الأمير** :

(78) مجلة الثقافة، عدد 75 الخاص بالأمير، ص 22-23.

يبدو أن الحاج عبّ على الأمير لتوقيعه اتفاقية ويبدو أنه اشتكى من هذا الأمر الى الخليفة العثماني .. وبالذات إثر سقوط قسنطينة وهذا يفهم من رسالة حمد - بن عثمان خوجة التي أرسلها الى الحاج «وقد كان الأمر على ما حررتم»(79) .. إلا أن تقدير الموقف جاء كما يلي ومن الخلافة موجهًا الى الحاج بهذه الصورة : «.. والآن تحولت (محبة) عبد القادر للفرنسوية الى المخاصمة واتحاده الى الحرب والعداوة فسلط عليهم صناديد العرب واوقع بهم وكسر شوكة الكفار وأوهنوا قوتهم ولله الحمد فنرجو أن يوافق ذلك مقترحكم ويكون فيه لكم راحة بل غنيمة ..»(80) وكانت رسالة الخليفة الى الأمير على هذا الشكل : «لقد أظهرتم شجاعة وإخلاصًا بقيادتكم أمر المسلمين .. إنكم بذلك قد أطعتم رضى الباري ورسوله، وكذلك الباب العالي. ليجازيكم إليه ..»(81).

الحاج أحمد قائد شجاع ومؤمن محافظ على ولائه للخلافة العثمانية قاوم ببسالة وشرف ولكنه بالتأكيد لا يمكن أن يحوّل (قسنطينة) مع خطورة موقعها الى ميدان يقرر مصير المعركة في كل الجزائر.

فإن الخطورة الحقيقية في مواجهة الفرنسيين متمثلة في الأمير الذي يحمل مشروعا متكاملاً لمواجهة الحملة الفرنسية على كل الأصعدة .. وكان الأمير يغطي مساحة جغرافية تقدر بثلثي التراب الجزائري واعترف له بذلك الفرنسيون.

والأمير في حاجة ضرورية للهدنة العسكرية .. برغم أنّ هناك أماكن تقاوم الهجوم الفرنسي في قسنطينة والأوراس .. ثم ما هي قوة الأمير لكي ينجد

(79) مجلة الثقافة، عدد 75، ص 19.
(80) نفس الصفحة والمصدر.
(81) نفس المصدر، ص 46.

قسنطينة وكيف ينجدها ؟. إن دراسة الواقع جيدًا والظروف بشكل شامل يرينا استحالة ذلك .. ثم إن قسنطينة تحارب وتواجه الفرنسيين والحاج يواصل امكانية عقد اتفاقية.

المحور الثالث : **سقوط قسنطينة** :

لقد سقطت قسنطينة بعد استبسال أهلها وجهادهم الدؤوب ولا أدري كيف تشكلت تلك الجملة «ولم يحرك الأمير ساكنًا» .. إن سقوط قسنطينة هي سبب نقض الصلح بين الأمير والفرنسيين ولنستمع إليه في هذا الصدد «ولما أخذ الكافر قسنطينة من يد الباي أحمد ولم يبق في مقابلته منذ ذلك الوطن أحد وقع النزاع بيننا وبين الكافر على تلك الايالة فالكافر يحتج بمأخذها من يد غيرنا وانه أفنى عليها أمواله ورجاله ونحن نقول : المسلمون جسد واحد فاترك أمرهم إلينا .. فانتقض الصلح بيننا واشتعلت نار الحرب ..»(82).

من أين تأتي إذن التهديدات (بسحق) أهل قسنطينة بالتعاون مع المستعمر الكافر وكيف يمكن التسليم بمثل هذا ؟! حتى لو كان هناك اختلاف بين الأمير والحاج هل هذا الاختلاف يسمح للأمير بمثل هذا القول !!؟.

كل ما كان يهم الأمير هو وحدة الكلمة ودفع المستعمر الكافر «وبذلت للمسلمين نصحي في جمع الكلمة والجهاد وصيوت وجهتي وجهتين؛ فتارة بجمع الكلمة وردع البغاة، وآونة للدفع عن المسلمين وقمع الكفار العتاة ..»(83).

(82) نفس المصدر، ص 43.
(83) نفس المصدر، ص 22.

وهذا ما جعله يعرض البيعة على سلطان مراكش لتوحيد جبهة الجهاد .. وهو رأى في قبوله لمبايعته على الجهاد أمرًا ما له أن يتردد عن إنفاذه .. وقد يكون الأمير رأى في جهاد الحاج أحمد مع ضراوته وقوته وشرفة واستبساله أنه محدود الآفاق .. وحتى الحاج أحمد نفسه لا يشكل حالة تجديد ولا يحمل رؤية متكاملة للمواجهة .. أجل إنه قائد عسكري ووالٍ لاقليم قسنطينة مجاهد شديد الولاء للخلافة، لكن كل هذا لا يكفي لمواجهة حملة منظمة تحمل رؤى تخطيطية متفوقة بالاسلحة والتنظيم .. ومع هذا الحاج يعتبر نفسه البقية الشرعية في البلاد ومعه الحق في هذا .. في حين كانت المسألة محتاجة الى روح جديدة تجديدية لها من الفتوة والعزيمة واللياقة ما يوفر لها سبيل المواجهة لهجمة شرسة وهذا ما مثله الأمير الذي بويع من جماعة المسلمين.

الحاج قاتل واستبسل في تحمل مسؤوليته كراعٍ مسؤول عن رعيته .. والأمير قاتل واستبسل في الدفاع عن شروط مبايعته .. وجهاد الاثنين يصب في هدف واحد .. هو مقاومة المستعمر الكافر.

لم يكن للأمير أن يفعل أفضل مما فعل .. فالمعركة غير متكافئة بأي مقياس حتى نسبة [واحد إلى عشرة] التي أشار إليها القرآن الكريم كحد أدنى لم تتوفر للأمير ..

إن رؤية الأمور التاريخية ضمن واقعها السياسي سيزودنا بمعرفة كيفية سير الأحداث وسيدلنا على نقاط الضعف ونقاط القوة .. وسيحررنا من اللجوء الى أعدائنا عندما نريد أن نحاكم تاريخنا.

الفصل الرابع

الباب الأول

الانتفاضات والثورات
حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

لم تنته المقاومة للاحتلال رغم غلبة فرنسا على الأمير عبد القادر والحاج أحمد ولئن كانت ــ المقاومة ــ قد خسرت بخروج الأمير القائد الديناميكي الذي اكتسب موقعه من خلال علمه وجهاده ووعيه السياسي وخبرته في الحروب خسارة كبيرة.

فلقد استمرت الانتفاضات في مواجهة الغزو حتى نهاية الحرب العالمية الأولى .. ولم يخلُ عام من مقاومة وجهاد ضد المشاريع الفرنسية بل والوجود الفرنسي ونظرة سريعة على جدول هذه الثورات تكشف أنّ المقاومة شملت كافة أرجاء الجزائر وإن أخذت شكل التتابع التاريخي ومحدودية المكان .. فما تكاد تهدأ في منطقة حتى تشتعل في أخرى، ويمكننا أن نستعرض وبإيجاز شديد أهم هذه الثورات على أن نصف بعضها وصفًا مقتضبًا بعد ذلك.

1 ــ ثورة بومعزة في منطقتي الشلف والونشرين استمرت عامًا كاملًا (1846-1847) وانتهت باستسلام بومعزة.

2 — ثورة الزعاطشة (واحة في الجنوب) بقيادة الشيخ أبو زيان أبيد أهلها وأزيلت من الوجود بعد مقاومة من بيت لبيت بدأت عام 1848.

3 — ثورة الأغواط (مدينة بالجنوب الجزائري) بدأت عام 1852 قمعت بعنف شديد.

4 — ثورة بلاد القبائل الصغرى عام 1852 فتكت فرنسا أثناء عملية اخضاعها بثلاثمئة قبيلة وقرية قتلا وتهجيرًا.

5 — ثورة الأوراس 53 و 1854 حيث استطاع أهل الأوراس منع الفرنسيين من الدخول الى جبالهم وحافظوا على استقلالهم حتى نهاية القرن التاسع عشر.

6 — ثورة تقرت في الجنوب الجزائري بدأت في 1854.

7 — ثورة بن سناسن بالقرب من الحدود المغربية عام 1859.

8 — ثورة أولاد سيدي الشيخ في جنوب غرب الجزائر وهي من الثورات الكبرى استمرت خمس سنوات (1864–1869).

9 — ثورة بلاد القبائل 1871 بقيادة الباش آغا محمد المقراني ومعاونه شيخ الطريقة الرحمانية الشيخ ابن حداد .. وتعتبر هذه الثورة أهم الثورات الجزائرية في القرن التاسع عشر بعد حرب الأمير عبد القادر؛ فلقد اجتاحت مراكز الفرنسيين في شمال شرقي الجزائر ووصلت إلى أبواب العاصمة .. وكان للأمير محي الدين ابن الأمير عبد القادر دور واضح في التنسيق بين الثوار في داخل الجزائر حيث كان موجود قبل الثورة بعدة أشهر في تونس على الحدود الجزائرية .. استمرت الثورة بعد استشهاد قائدها بقيادة شقيقه أبو مزراق ستة أشهر أخرى .. وشهدت بلاد القبائل إثر ذلك انتقامًا عسكريًا

واقتصاديًا مريعًا فقد فرض على أهلها غرامة جماعية بلغت 26 مليون فرنك ذهبًا وصودر لهم 500 ألف هكتار هي مجموع الأراضي الصالحة للزراعة في جبال (جرجرة) .. ووزعت هذه الأراضي على المستوطنين الأوربيين.

10 — ثورة محمد البدوي امتدت من قلب العاصمة حتى مدينة شرشال غربًا فقد استغل البدوي انشغال القوات الفرنسية بثورة المقراني واعلن في قلب العاصمة استقلال البلاد وحاول تسيير أمور المنطقة الا أن هذه الثورة خفقت باخفاق ثورة المقراني.

11 — ثورة أولاد بوعمامة في الجنوب الغربي عام 1881 وتعتبر الثورة الثانية لأولاد سيدي الشيخ كانت أحيانًا تشتد وأحيانًا تخبو. واستمرت حتى عام 1904.

12 — مقاومة الطوارق حيث أوقفوا توغل الفرنسيين في الصحراء وفتكوا ببعثات (فلاتيرس) سنة 1881، و «بلات» 1886، و (دولس) 1889، و «موريس» 1985.

13 — ثورة عين التركي عام 1901 بقيادة يعقوب بن الحاج، فقد هاجم الثوار مدينة «مليانة» إلا أنهم قمعوا بشدة .. وصدر في أعقابها قوانين إدارة قمعية خولت الحاكم العام ومساعديه كل صلاحيات الطرد والسجن للأهالي دون أي حق بالاستئناف أو الاعتراض.

14 — انتفاضة عين بسام عام 1906.

15 — ثورة بني شقران في ضواحي مدينة معسكر وذلك في بداية الحرب العالمية الأولى ..

16 — ثورة أولاد سلطان في الأوراس عام 1915 امتدت حتى الصحراء ودامت عدة أشهر تقريبًا. هذه هي أهم ثورات الجزائر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وهي تشترك جميعها في عدة سمات.

السمة الأولى : أنها جميعًا كانت بقيادة شيوخ الطرق الصوفية .. وكان أتباع الطرق يجدون أنفسهم تلقائيًا في ساحة الجهاد .. وقد شكلت الطرق الصوفية في تركيبتها الهرمية أهم تشكيلة اجتماعية في ذلك الحين .. فبعد أن سقط الحكم المركزي وأخرج الأمير من الجزائر .. لم يعد هناك أي وضع إداري يجمع الناس فكانت الطرق الصوفية وفق بنائها التاريخي الراسخ بين القبائل والقرى معوضًا حقيقيًا إكتسب شرعيته لمكانته الدينية .. فيكون القرن التاسع عشر بذلك قد شهد كفاحًا عظيمًا في الجزائر قادته الطرق الصوفية ..

السمة الثانية : لقد فقدت حركة المقاومة الجزائرية بعد غلبة فرنسا على الأمير امكانية التنسيق بين الجهات والزعامات .. لذا فقد كانت هذه الثورات جميعها ثورات جهوية تندلع في جهة ثم تعقبها أخرى من جهة أخرى.

السمة الثالثة : أنها حركة تعبر عن الرفض النهائي للاستعمار على اعتبار أنه عدو كافر .. فعلى مدار أكثر من سبعين عامًا تواصلت الثورات من مكان إلى آخر وبروح لا تعرف اليأس ولم تستسلم لحسابات ميزان القوى وكان قرارها الوحيد هو الاستقلال واخراج المستعمر الكافر .. ورفض النموذج الغربي رفضًا نهائيًا.

وهي بهذه السمات تبرهن على أن الامة في مقاومتها تندفع للجهاد من بواعث أخرى غير تلك التي يشغل المنظرون بها أوقاتهم .. فلقد عاد ميزان

القوى عند كثير من المنظرين حتى ممن يدعون الاسلام (إلهً) يحكم ويوجه ويقرر.

أما شعب الجزائر المسلم فقد اندفع الى الجهاد من دوافع العقيدة والغيرة على شرف المسلمين .. وبرهن على أنه شعب أبي وقدوة في كفاحه لكل شعوب العالم .. اذ خاض معاركه حتى نهاية الحرب العالمية الثانية مثبتًا انتصار الارادة على الامكانيات .. وسجلت له هذه المعارك رصيدًا جهاديًا ضخمًا سيرى حجم فعاليته في الثورة الأخيرة ثورة نوفمبر.

والآن نشير إلى بعض هذه الثورات ..

1) ثورة بومعزة «الشريف محمد بن عبد الله» 1844-1847 :

في حوض الشلف نشأ الشريف محمد بن عبد الله زاهدًا يجلب الأنظار ينتمي الى الطريقة الطيبية القادرية نسبة إلى (مولاي الطيب) .. وكان منعزلًا في وحدته .. ذكيًا فطنًا .. متفرغًا للعبادة يلبس ثياب مقطعة كعادة أهل التصوف ولم يكن يقاسمه عزلته سوى معزة يقتات على حليبها ويقال غزالة .. وكانت له مربية تقية زاهدة دربته على مسالك الزهد والتقوى.

إنتشرت سمعة زهده وورعه بين القبائل والقرى .. توجه الى الحاج (حامد اليونسي) طيب السمعة في منطقة السواحلية وقدم نفسه على أنه مندوب لطرد الفرنسيين الكفرة فرحب به الحاج وساعده في الاتصال بزعماء القبائل .. رحب أهل إقليم (الظهرة) بالشريف ابن عبد الله بومعزة وزودوه بكل ما يحتاج إليه في الجهاد ضد الكفرة.

وزع قواته وجنده وسار بهم الى منطقة (بعل) حيث خاض بهم معركة كبيرة ضد القوات الفرنسية .. ودخل أخيرًا إلى حوض الشلف فانضم اليه

سكان «الصبيحات» على ضفتي الوادي بزعامة قائدهم محمد بن هني وسكان جنوب مدينة «الأصنام» ــ الشلف حاليًا ــ واتسعت بذلك الرقعة الجغرافية للثورة .. وتعددت عمليات المقاومة ومواجهة الفرنسيين.

أمام هذا الوضع الذي بدأ يشكل خطورة على الوجود الاستعماري في الجزائر توجه الجنرال (بيجو) بنفسه لمواجهة الثورة.

كان الشريف في بداية أمره يخوض معارك منتظمة بإشغال القوات الفرنسية وتكبيدها خسائر معتبرة .. إلا أنّ هذه المعارك لم تكن فاصلة مما أحدث فشلًا في قواته وإدارته للقبائل التي تبعته.

تعقدت أمور التموين وتفلتت منه القبائل .. لكن مجيء الأمير من المغرب الأقصى عضد ساعده واتجها معًا إلى «جرجرة» حيث اشتركا مع أحمد بن سالم خليفة الأمير في مقاومة الفرنسيين في سنة 1845 ..

انتقل بعدها الى منطقة الحدود المغربية وحرض الناس هناك على قتال الكافرين ثم انتقل الى نواحي الصحراء مرورًا بـ «فليتة» .. وانتشرت الثورة بذلك في منطقة الظهرة وجبال (ديرة) بمنطقة (سور الغزلان) وامتدت الى أولاد نايل وأولاد جلال.

وإزاء خطورة الوضع الجديد وجه الحاكم العام الفرنسي قوات ضخمة بقيادة الجنرال «ماري مونج» لمواجهة قوات بومعزة .. وحصلت معارك شرسة بحوض الشلف خلال شهري يناير وفبراير من عام 1847 لكن أمام تفوق الفرنسيين عدةً وعددًا انسحب بومعزة الى جبال الظهرة .. ومن ورائه (مونج) الذي طبق الابادة الشاملة على أولاد نايل لمساعدتهم بومعزة.

وفي أوائل شهر مارس 1847 واجه بومعزة قوات (مونج) و (هيربيون) في معركة فاصلة بمنطقة «ثنية الحد» في قلب جبال (الونشريس) .. وغرر به

بعض الخونة وأوقعوه في كمين فرنسي أعزلًا بغير قوة .. نقل بعدها إلى (طولون) فباريس وحاول الهروب الا أنه أعيد الى السجن وأفرج عنه عام 1852 بعد الافراج عن الأمير .. سافر الى الاستانة وتطوع في الجيش العثماني خلال حروب القرم. وفي نهايتها اتجه الى العراق وأقام في بغداد مدة ثم عاد الى (باطوم) حتى عام 1878 وبعد ذلك ذهب الى دمشق وجاور الأمير مدة ثم توجه الى شمال افريقيا محاولًا إحياء المقاومة ولكن لم يحالفه التوفيق فعاد الى باطوم وبقي هناك حتى توفي في بروجه بمرض الكوليرا.

خلال هذه الفترة من مقاومة الشريف بومغزة ارتكب الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال «بيليسي» جريمة بشعة في حق (أولاد رياح) الذين اعتصموا في المغارات فرارًا من الاضطهاد وكان عددهم حوالي خمسمئة شخص فأشعل النار في أفواه المغارات حتى ماتوا جميعًا خنقًا أو احتراقا[1].

2) ثورة سكان واحدة «الزعاطشة» والشيخ بوزيان 1849[2] :

لقد عمت حالة المقاومة والثورة واحة الزعاطشة بمنطقة الزيبان الظهراوي على بعد 35 كيلومتر جنوب غرب مدينة «بسكرة» .. وكان زعيمها الرئيسي الشيخ بوزيان شيخ (الزيبان) المتصوف مقدم الطريقة الدرقاوية وأحد أعوان الأمير عبد القادر حيث كان هو ومحمد بن عبد الرحمن في الولاية الثامنة ــ (بسكرة) ــ من ولايات دولة الأمير.

انتشرت الثورة الى جهات الأوراس بفضل نشاط بوزيان ورسائله المتعددة التي كان يوجهها إلى زعماء السكان فظهر الشيخ حكمت بن الجودي شيخ أولاد زيان وظهر المرابط الشيخ عبد الحفيظ مقدم «اخوان بن عبد

(1) د. يحيى بوعزيز (ثورات الجزائر)، مرجع سابق، ص 52-58.
(2) نفس المصدر، ص 59-68.

الرحمن».. وكان للشيخ عبد الحفيظ دور هام في تحريض سكان المنطقة لدعم حركة الشيخ بوزيان وذلك في سطيف وباتنة .. وعضد هذه الانتفاضة الشيخ حامد بلحاج الذي التحق بقرية سيدي عقبة ثم ببوسعادة ليرأس حركة الثورة بها ويوسع رقعتها ويطور نشاطها.

حاول الفرنسيون حصار الواحة وجندوا لذلك عملاءهم .. إلا أن نشاط الشيخ بوزيان نجح في توسيع دائرته لتشمل الحضنة والزاب الغربي وكذلك جهات الأوراس.

حاولوا كذلك ضرب الواحة بعد الحصار وقصفوا زاوية الشيخ قصد استسلام سكان الواحة ولكن بلا فائدة .. ويعترف المؤرخ الفرنسي (هيربيون) : «أن ثوار الزعاطشة ليسوا أعداء متعصبين ضعفاء كما كان يشاع بل إنهم مكافحون حيويون نشطون وصبورون ونقل عن بعضهم قوله بأنه حرام على الفرنسيين دخول الزعاطشة كما يحرم عليهم دخول مكة المكرمة».

وامتدت أصداء الثورة لتشمل كل مقاطعة قسنطينة .. اشتد ساعد الثوار وتوسعت الرقعة الجغرافية لنشاطهم .. فضاعفت فرنسا من قوات الحصار بالواحة وجرت معارك طاحنة يوم 30 اكتوبر في (الزعاطشة) و (فرفار) و (طولقة) .. وخسر العدو خسائر فادحة في الضباط والجنود .. وتواصلت المعارك في مناطق عدة وكان الثوار باستمرار يحرزون انتصارات هامة تجاوبت البلاد لها .. وكادت أن تعبر عن منعطف جديد في المقاومة يشمل بقية المناطق إلا أن الفرنسيين عمدوا ومنذ 20 نوفمبر الى تدمير الواحة مركز قيادة الثورة ..وذلك بعد أن استجلبوا مزيدًا من القوات المزودة بأرقى أنواع المدفعية بعيدة المدى .. تواصل القصف عن بعد مركزًا على الاسوار لأحداث ثغرات تساعدهم على اقتحامها .. وفي يوم 26 نوفمبر ألقى الفرنسيون بكل ثقلهم على الواحة واقتحموا أسوارها واستمرت المعركة من الصباح الباكر حتى

منتصف النهار من زقاق لزقاق ومن دار لدار .. ودافع الشيخ بوزيان وابنه والحاج موسى نائبه حتى سقطوا شهداء فحزَّ الفرنسيون رؤوسهم وحملوها الى بسكرة حيث علقت هناك على أحد أبواب مداخلها.

3) في الوقت الذي كانت فيه ثورة بومعزة مندلعة بجبال الونشريس والظهرة والتيطري برز عدد من الزعماء حاولوا كلهم القيام بواجب التحريض على قتال الكفار أبرز هؤلاء الزعماء الشريف «بوعود» و «مولاي إبراهيم» (1845-1853) حيث جاهد بوعود مجاهدة الابطال وحاول وسعه جمع القبائل والعشائر في صفوف الجهاد. وكان من أهم أعوانه (سي الجودي) .. كثرت المناوشات بين المجاهدين والقوات الفرنسية.

جند الفرنسيون كثيرًا من الأعوان وحرضوا على (بوعود) بعض شيوخ القبائل .. ودفعت القوات الفرنسية بثقلها في معركة (بني منصور) .. باغتت القوات الفرنسية جيش (بوعود) الغير مدرب تدريبًا عسكريًا مناسبًا بأسلحة بعيدة المدى ففر الجند ولم ينفع فيهم التحريض والتثبيت فحمل الشريف بوعود وصاحبه (سي الجودي) مع ثلاثة فرسان وخمسين رجلًا على القوات الفرنسية فسقط شهيدًا وذلك في 3 اكتوبر 1849 وعلى إثر استشهاد الشريف (بوعود) برز الشريف مولاي ابراهيم كخليفة له ولكن تقاعس الكثيرين عن تأييده وصعوبة امكانية تجميع الصفوف في مرحلة يواصل الدعو هجماته على أكثر من صعيد .. كل هذا فت في عضده واختفت شخصيته ببروز الشريف بوبغلة سنة 1851[3].

---

(3) نفس المصدر، ص 69-74.

4) ثورة الشريف بوبغلة (1851-1855)[4] :

وكانت النتيجة التي انتهت اليها ثورة الزعاطشة محركًا فعالًا في اندلاع ثورة الشريف بوبغلة الذي وصل سور الغزلان سنة 1849 واسمه الحقيقي محمد الأمجد بن عبد الله.

وبعد محاولات تحريضية لجمع الناس إلتجأ الى بني مليكش ونزل عند زعيمهم الشيخ عبد الكريم بن علي بن عبد الله في قرية (إيعياش) ووصل معه في نفس الفترة الحاج موسى الأغواطي والحاج مصطفى بن محمد اللذان أصبحا من كبار أصحابه.

جمع الشريف الاتباع وعين أربعة قادة من (بني مليكش) لقيادة كتائبه والتحق به طلبة زاوية (ابن ادريس) وأتباعها.

وتصدى له ابن علي الشريف كما تصدى من قبل لحركة الشريف بوعود بدعم من فرنسا .. فهاجم الشريف بوبغلة زاويته وحقق انتصارًا حاسمًا مما فتح باب التجنيد واقبال الناس بتدفق عليه .. الا أن هذه الانتصار إرتد هزيمة أمام الحشودات الهائلة التى حشدها ابن علي الشريف .. رجع الشريف بوبغلة لتنظيم صفوف المجاهدين وجعل من قرى بني مليكش معسكرات للثوار وقلاع للمقاومة ركز فيها قواته واتخذها كمنطلق لنشاطه وأعماله وحاول توثيق الصلة بزعماء الثورة في جبال (البابور) .. وهاجم قرية (إيمولة) وزاوية شيخ (العراسن) الشريف محمد مزيان الموهوب الذي أخذ نفس موقع ابن علي الشريف .. ونجح (بوبغلة) أخيرًا في استمالة اتباع الطريقة الرحمانية في جبال التيطري ..

(4) نفس المصدر، ص 75-94.

في أحواز (بجاية) تم الصدام الذي أبلى فيه المجاهدون بلاء حسنًا أوقع بالجيش الفرنسي خسائر فادحة وهزيمة نكراء.

ودوّى خبر هذا الانتصار مساعدًا على تمدد ساحة المقاومة لتشمل حوضي بجاية ومنطقة البابور .. مما جعل بوبغلة يشكل حالة خطره أمام التمدد الاستعماري ..

فقام الحاكم العام الفرنسي بالجزائر (بيليسي) بنفسه بتجهيز حملة عسكرية على بلاد القبائل وفي أوائل شهر نوفمبر تم الصدام بالشريف بوبغلة في قرية «يتغليت محمود» في معركة غير متكافئة يمتاز العدو فيها بخطط محكمة وعتاد وعدد .. انتهت بأن أحرق الجيش الفرنسي 25 قرية من بينها «يتغليت محمود».

توجه بوبغلة الى منطقة «بني بحر» .. ورغم تفكك قواته وتفوق عدده عسكريا إلا أنه وصل تعبئته وحشد قواته بروح جلودة لا تعرف وهن ولا الضعف .. إلا أن ضربة عنيفة وجهت لـ (بوبغلة) عندما تسللت مجموعة فاقه ومعاونيه الكبا منهم بني الجودي نفسه حـ معه عدد كبير من لسكان بعد أن أصيب باليأس وخيبة الأمل.

حرش الفرنسيون لأعوان لديه تم تعبئتهم من قبل الأداة الفرنسية لمواجهة الشريف بوبغلة فأصبحت مواجهته مكشوفة بينه وبين هؤلا لأعوان الذين جعلوا جزاء من يأتيهم برأس الشريف بوبغلة .. واشتد لحصار على بوبغلة لأنه رفض الاستسلام فانتقل إلى (أولاد علي) واستطاع لفرنسيون (أوريش) في (لودية) بالصحاء جرح على إثر هذه المعركة جرحا بليغا وحمله أصحابه الى (مسرين) للعلاج .. وعاد الى بني مليكش بعد أن تمكن من جرحه ـ فحاول تنظيم قواته من جديد .. وعاود

الشريف بوبغلة معارك ضارية مع القبائل المناوئة والمتواطئة مع السلطات الفرنسية مثل قبيلة (بني عباس) و (بني مندس).

اتجه الشريف بوبغلة إلى (تابلاط) وتنقل بين القرى والجبال يعد للثورة من جديد .. ولم يتوقف الجهاد في هذه الفترة على عنصر الرجال فكما كان دور أم الأمير عبد القادر السيدة فاطمة بارزًا في الجهاد ضد الاستعمار فكذلك برز دور لزعيمة الشجاعة (فاطمة نسومر) بقرية «وجة» وشاركت في مقاومة حملة «ماكماهون» على المنطقة حتى صيف 1857. وبعد أن تنقل بوبغلة الى بني (بحر) تطورت الأمور تطورًا سيئًا ضده فقد تمكن خصومه من تهديم منازله.

وفي مساء يوم 26 ديسمبر 1854 نشبت معركة بينه وبعض خصومه في بني عباس استولى فيها على ما بأيديهم الا أن الحامية الفرنسية الموجودة بالمنطقة أطبقت عليه وعلى جنده القلة .. فرّ (عبد القادر المذبوح) بمعظم الجند وبقي الشريف بوبغلة مع قليل من أعوانه يقاومون إلى أن أصيب فلحق به (بومزراق المقران) وأخوه (لخضر المقران) وقتلاه وحزّ رأسه وحملوها الى (برج بوعريريج) وعلقوها على عمود يوم 28 ديسمبر ووضعوا الى جانبه ألبسته وسلاحه وطابعه .. ويحكى أن حصانه وقف على قبره بعبرة وتحمحم.

حركة سي الصادق في الخنقة وبسكرة (1858-01859) :

تعتبر هذه الفترة فترة الثورات والانتفاضات في عمالة قسنطينة خاصة في المناطق الجنوبية منها وذلك لمواجهة نظام نابليون الثالث : (نظام وزارة الجزائر والمستعمرات) حيث أطلق للمستوطنين العنان للسيطرة على شمال البلاد .. وللعسكر السيطرة على جنوب البلاد حيث تحركت فيالق الجيش الفرنسي بعد احتلال جبال جرجرة سنة 1857 الى التوسع في الجنوب

مستعينة ببعض من اصطفوهم من العملاء والأعوان .. إلا أن السكان لم يستكينوا لهذا الوضع ولم يقبلوه، وقاوموه بكل الوسائل.

وبرز في هذه المنطقة سي الصادق (أو سي صدوق) بن الحاج الذي ينتمي الى أولاد سيدي منصور). شيخ وزعيم أولاد أيوب في جبل أحمر خدو، بسفوح الأوراس قرب بسكرة .. وعندما اندلعت ثورة سكان الزعاطشة عام 1849 شارك في مقاومة الزحف الفرنسي عليها مع عدد من رفاقه واتباعه الذين كانوا حوالي سبعمائة فارس، الى جانب الشيخ عبد الحفيظ مقدم الطريقة الرحمانية وعملوا جميعًا على مساندة زعيم الثورة الشيخ بوزيان وسكان الواحة.

47

وبعد هذه الحوادث بمدة عين سي الصادق مقدمًا للأخوان الرحمانيين بهذه المنطقة وأخذ يحرض ضد الوجود الفرنسي .. وبمرور الزمن انتشرت سمعته وقوى تأثيره على السكان .. ولعب ابنه سي ابراهيم دورًا هامًا في التحريض ضد الفرنسيين (المسيحيين).

استطاع سي الصادق أن يوسع دعوته وحركته في منطقة الصحراء الشرقية ويقنع الناس بحمل السلاح ضد الفرنسيين رغم أن الامكانيات المادية للمقاومة محدودة.

أدرك الفرنسيون خطورة هذه الدعوة التي تسير على خطى ثورة الشيخ بوزيان فقرروا مواجهتها بسرعة وبقسوة في آنٍ واحد .. وتعاون ضدها كل من الجنرال قاستو والجنرال ديفو. وجندا قوات كبيرة واتجها بها الى بسكرة ابتداء من يوم 19 ديسمبر 1858 وعملا على محاصرة المقاومين الجزائريين .. وخاض سي الصادق ورجاله ضد الجيش الفرنسي معركة شرسة في

«مشونش» كانت فوق طاقتهم عدة وعددًا فاضطروا للانسحاب نحو الجنوب. ولكن القوات الفرنسية والمتعاونين معها من رجال القوم (بالقاف المضمومة) بقيادة القائد (الموهوب بن شنوف) اعترضوا سبيلهم في حوض «وادي العرب» واعتقلوا سي الصادق وجمعًا من اخوانه في 20 يناير سنة 1859 وبعد ذلك قامت القوات الفرنسية كعادتها بحرق الديار والخيام وبالقتل جملة .. وبمصادرة الاملاك على غرار ما فعلته بالزعاطشة قبل عشر سنوات.

لم يمض عام حتى انطلقت ثورة أخرى مسلحة في غرب المنطقة وذلك في (المسيلة) وجبال مضنة وتزعم هذه الحركة (محمد بن بوخنتاش) الذي قام للثأر مما لحق بالمسلمين في زعاطشة وبسكرة والخنقة .. وقد التحق بحركته علماء الدين والقضاة والطلبة مما جعل حركته أكثر خطورة من حركة سي الصادق وامتدت حركته من سطيف الى المضنة.

زحف الكولونيل (بان) الى «بريكة» وخرج الجنرال «ينم» من سطيف على رأس قوات أخرى متوجهًا قريبًا من مكان الثوار .. التحم الفريقان في معركة ضارية وحاسمة صباح يوم 25 مارس 1860 انتهت بتخريب معسكر بوخنتاش وأرغم (أولاد سي عمر) على تسليم بوخنتاش .. ودمر الغزاة العمران وخربوا الحقول وعاثوا في الأرض فسادا، وتنكيلًا بالعزل من الناس.

على غرار هذه الثورات استمرت الثورات في منطقة الباطور شمال قسنطينة التي استمرت حتى سنة 1864 وكذلك أحداث قبائل بني سناسن بمنطقة الحدود الغربية حيث كان الصدام في هذه المنطقة بالاحتلال الاسباني سابقا والذي ألقى بأثره على سلطان مراكش.

ثورة الشريف محمد بن عبد الله (1895-42) :

مكتوبًا على الجدران في مدينة تلمسان «محمد بن عبد الله ناصر أبقاه الله وسلطه على رقاب الكافرين» هذا ما وجده الفرنسيون في صبيحة احدى أيام سنة 1844.

محمد بن عبد الله هذا (اشترك مع الفرنسيين في الهجوم على المغرب أثناء ثورة الامير عبد القادر) حيث ينتمي الى زاوية أولاد سيدي يعقوب والتي يديرها أولاد سيدي الشيخ على المعارضين للأمير .. وقد كانت العلاقة طيبة بينهم والفرنسيين وقت الصراع الناشب بين الفرنسيين والأمير .. ويبدو أن الشريف محمد بن عبد الله كان يريد الحصول على ثقة الفرنسيين كي يبلغ مرماه كما صرح للجنرال (بيدو» حاكم تلمسان : «إنني معكم إلى أن يحكم الله بافتراقنا» .. إلا أنه ليس هناك ما يؤكد اشتراك الشريف مع الفرنسيين وهي رواية ضعيفة !! وبالعكس فلقد كان يقضي أوقاته في مداومة الاعتكاف في ضريح ومسجد سيدي أبي مدين شعيب بحي العباد حيث يجري اتصالاته بأنصاره وأتباعه تهيئًا لثورة ..

أثار الشريف محمد ظنون الفرنسيين الذين اقترحوا عليه الذهاب الى الحج تخلصًا منه .. فذهب إلى الديار المقدسة واتصل هناك بالمطرودين والمنفيين والفارين من الضغط الفرنسي .. فأنشأ مع السيد محمد علي السنوسي الذي طرد سنة 1849 زاوية كانت مقرًا لكل الجزائريين وكانت الأخبار القادمة من الجزائر تفيد أنّ اتباع الحاج أحمد باي قسنطينة مازالوا يقاومون الاحتلال الفرنسي(6).

(5) د. يحيى بوعزيز، ص 103-106، نفس المصدر.
(6) ثورات الجزائر، مصدر سابق، ص 123.

وأبدت الخلافة العثمانية لهما كل دعم وتأييد حيث أرسلت لهما هناك عزت باشا حاكم طرابلس الذي أقنعهما بالعودة .. وبالفعل لقد كان محمد بن عبد الله التواق إلى العودة لمباشرة الكفاح والثورة من داخل الجزائر في أرض الوطن بعد أشهر قليلة في أوائل عام 1850 وصل الى «سوف» واستقر بزاوية «الرويسات» .. ووصل السنوسي الى طرابلس وأخذ يراسله من هناك ويراسل غيره لتأييده في الثورة .. فاتجه بداية الى ورملة مستوليًا عليها ولقد وقفت السيدة الصالحة الحاجة «الزهرة» موقفًا هامًا لاستمالة الناس إليه : «إنّ بن عبد الله مبعوث من الله ليحرر البلاد من الكافرين» .. وبايع الورقليون بن عبد الله في شهر أغسطس سنة 1851 وبايعته تقرت فيما بعد .. وانضم اليه سكان قليلي ودخل الشريف محمد بن عبد الله في غزوات للقبائل المجاورة والقرى والمدن لارغامها على الخضوع له.

وبدأ معركته ضد الفرنسيين في 22 ماي سنة 1852 جنوب بسكرة فحشد الفرنسيون فرق كبيرة لمحاربته من وهران .. ومعسكر والمدية وفي معركة كبيرة في «عين الرق» في أول اكتوبر سنة 1852 قتل للفرنسيين 200 رجلًا وغنم منهم 20 ألف رأس غنم وألفا جمل فاستقبله الاهالي في الأغواط استقبال الفاتحين(7).

استقدم الفرنسيون نجدات ضخمة وأعدوا إعدادًا كبيرًا وشنوا هجومًا شرسًا على «الأغواط» يوم 4 ديسمبر وكان من ضمن المشتركين في الهجوم على المدينة سي حمزة ولد سيدي الشيخ الذي عينه الفرنسيون فيما بعد خليفة على المنطقة.

(7) Henri Ganer «Histoire de l'Algérie» (1910), pp. 890-891.

ولمدة ثمانية أيام تواصل قتل الناس مجموعات مجموعات حتى حفيت السيوف(8). ومارس الجنود الاعتداء على عفاف النساء وحرمتهن وسلب حليهن.

وهزم بن عبد الله في معركة ثانية وهو في اتجاهه لاستعادة الأغواط مرة أخرى من العميل سي حمزة اذ جندت فرنسا عساكرها وبطشها في مواجهته مدعومة بطابور العملاء .. فاتجه بن عبد الله إلى تونس ولكن الباي أحمد باشا باي تونس أمر بطرده وأرسل الى قنصل فرنسا بتونس رسالة فيها هذا المضمون : «بحجة أنه يثير قلاقل هناك .. ورجع بن عبد الله الى الجزائر متجهًا إلى ورقلة ولكن حاكمها سي الزبير رده عنها واعترضته قوة فرنسية أخرى في «مقارين» وحصلت معركة كبيرة في 29 نوفمبر 1854 وعاد مرةً أخرى الى الجزائر واتجه الى الأغواط في محاولة لاستعادتها لكن رجحان قوة الباشا عاسي بوبكر ولد حمزة ولد سيدي الشيخ [سلالة عملاء بعضها من بعض] .. جعل المسألة تنتهي لغير صالحه .. فظل بوبكر يطارد الشريف الى أن اعتقله سنة 1861 وسلمه للفرنسيين الذين نفوه الى فرنسا معتقلا في سجن عسكري بساحة روبيرتون .. أفرج عنه في سنة 1864 أو قد يكون فرَّ من السجن والتحق بثورة المقراني وبعد محاولات لتجميع الصفوف توجه الى تونس حيث اعتقله الباي سنة 1876(10).

وأفرج عنه بعد تدخلات أصدقاء له وتوفي سنة 1895 بعد أن احتلت فرنسا تونس بأربعة عشر عامًا كافح فيها الاستعمار الفرنسي لتونس.

(8) ثورات الجزائر، مصدر سابق، ص 125.
(9) أرشيف الدولة التونسية، صندوق 212، ملف 239، وثيقة رقم 4، 5.
(10) Garrot, pp. 191-192 et 894.

ثورة الشريف بوشوشة (1869-1874) :

في سنة 1869 تمركز بوشوشة في «عين صالح» وأعلن نفسه كشريف فبايعه الشّعانبة المواضي وفي العام الموالي بايعه شعانبة ورقلة. وكان بوشوشة من أتباع السنوسية[11].

وفي شهر أبريل سنة 1870 وبعد صدامات عنيفة استولى على «المنيعة» وحاول الاستيلاء على تقرت دون جدوى وكذلك الحال في «سوف» في حين فتحت ورقلة له أبوابها دون أي عناء. اتجه بعد ذلك إلى «قمار» مقاومة شيخ الزاوية التيجانية محمد الصغير ..

وفي يوم 13 مايو وصل بوشوشة بقواته الى «توقرت» أمام باب عيسى ففتحت المدينة له أبوابها في اليوم الموالي في جوٍّ من الزغاريد .. ولّى عليها «بوشمال بن قوبي» آغا عليها واتجه الى الجنوب وحاصر زاوية التيجانيين المعارضين لكن بلاد فائدة.

بدأ بوشوشة يجمع الاسلحة ويشتريها حيث راجت تجارتها بواسطة اليهود والمالطيين فطلبت السلطات الفرنسية من يهود تونس الكف عن الاتجار بالاسلحة فامتثلوا للأمر .. وحتى السوافة بقمار و «الواد» و «دبيلة» أمتنعوا عن ذلك بأمر من زاوية تيماسين التيجانية .. وحصلت مشاكل كثيرة بينه وبين القبائل والقرى ..

في يوم 2 يناير سنة 1872 انتزع الجنرال (دولاكسروا) «ورقلة» من أنصار بوشوشة ثم زحف على توقرت وسيطر عليها .. وفي 9 يناير التحم الثوار بالقوات الفرنسية في معركة تاريخية بالنسبة لحركة المقاومة في تلك الرحلة .. شُتت على إثرها شمل جيش بوشوشة الذي اتجه بعد الهزيمة الى

(11) Garrot, pp. 945-946

«عين صالح» .. ومن هناك حاول الانطلاق لتأديب من لم يعنه في حركته .. فتشتت قواته تشتاً أوسع .. ويبدو أن هذا المنهج الذي رأيناه عند بوشوشة وبوبغلة أفقدهما كثيرًا من توسيع بيكار الثورة .. ألا وهو الانشغال في معارك مع زعماء القبائل أو المتعاونين مع الاحتلال في مرحلة لم تصل فيها الثورة الى مرحلة السيطرة التامة على الأوضاع الجماهيرية .. مما أوقعه أخيرًا أسيرًا في يد (بعج بن قدور) أحد رجال السعيد ابن ادريس في معركة «الميلوك» جنوب «عين صالح» وصدر في حقه حكم الاعدام ونفذ الحكم في في قسنطينة 29 جوان سنة 1875.

ثورة المقراني والحدّاد (1871 ــ 1872) :

بعد أربعين عاما من بداية الجهاد الباسل والمقاومة الاسلامية التي خاضها مسلمو الجزائر رفضا لهذا الدخيل المحتل الذي لا يرقب في مؤمن إلّاً ولا ذمة.. وكإستمرار لتواصل الجهاد انبعثت ثورة الحاج محمد المقراني أعظم ثورة من حيث التخطيط والدقة بعد ثورة الأمير عبد القادر الحسني.

وإذا كان الاستعمار قد اغتصب آلاف الهكتارات منذ أن وطأت أقدامه أرض الجزائر وسلمها إلى لقطائه الذين جلبهم من مداشر أوروبا وصعاليكه إلّا أنه ضاعف عمليات الاغتصاب بين سنتي 1844 ــ 1854 حيث بلغ ما اغتصبه 3 ملايين هكتار من أيدي الفلاحين الذين كان مصيرهم الطرد... وتوزعت هذه الأراضي على «المعمرين» والشركات الاحتكارية.. وضمت الغابات إلى أملاك الدولة.

لقد استمرت الحرب بين قبائل سيدي الشيخ في الجبال الجنوبية الغربية والفرنسيين... خمس سنوات حتى عام 1869 مما ترك أثره البالغ على مجموع الشعب...

فازداد القحط واليبس حيث تم تحويل الانتاج الزراعي إلى عمولات تجارية للتصدير على حساب المواد الغذائية اللازمة لقوت الشعب الجزائري بعد أن وضعت الشركات الاستعمارية و«المعمرون» أيديهم على 3 ملايين هكتار من الأراضي الزراعية تستغلها في إنتاج الأنواع الزراعية الرائج سوقها في أوروبا.. حيث أدت هذه السياسة إلى المجاعة والكارثة العظمى التي حلت بالشعب الجزائري خلال سنوات 63 ــ 1867 والتي قضت على خمسمائة ألف من أبنائه»[12].

في هذه الأثناء جاء دور الإرساليات المسيحية لكي تقوم بدورها في تجريد الشعب الجزائري مما تبقى له «من شخصيته المستقلة» بعد أن أدركت الصليبية أنه لا إمكانية للسيطرة على هذا الشعب وعلى حسب قول الماريشال «بيجو» فيما يخص تخريب القرى وإحراق الغلّات في قبيلة بني مناصر (في رسالة إلى الماريشال سلت شهر أبريل 1842).

حيث قال : «ليس هناك وسائل أخرى لقهر ذلك الشعب العجيب واخضاعه»[13].

قامت الارساليات المسيحية لكي تؤدي «واجبها المقدسي ولكي تقوم برسالتها الشريفة الطاهرة مثلما نسمع الآن مما يحدث في افريقيا التي نهبوها وأماتوا أهلها جوعا».

قام الكاردينال لافيجري اسقف (الجزائر) بجولة في الجزائر الصليب في يمينه والخبز في شماله مبشرا بالديانة المسيحية فجمع 1500 يتميا ويتيمة وربّاهم في ظل الكنيسة.. وعلى مذهب المسيحية.. وهي هي رسالة التمدين الفرنسية الأوروبية المسيحية في هذه البلاد ــ هذا على مذهب

(12) «ثورة المقراني»، الزبير سيف الاسلام.
(13) «الجزائر بين الماضي والحاضر»، مرجع سابق.

أنجلز ــ.. التي واصلت مهمتها في تحطيم الأسر والعائلات ذات السمعة الطيبة..

هذا كله جعل من موضوعه لثورة تأخذ نفسا جديدا عند الحاج المقراني هذه الشخصية العظيمة ويعطيها زخما وتواصلا فذا كرد فعل أصيل وحقيقي على الهجمة التجويعية النذلة التي استهدفت آخر معاقل المقاومة لديه.

نادى منادى الجهاد في كامل الشرق الجزائري : في الأوراس، في تبسة، في سوق أهراس، في الوادي الكبير، في جرجرة الباسلة، في برج بوعريج، في كل واد من أبواب الجزائر العاصمة الى الحدود التونسية[14] بعد أن أنفق الحاج المقراني ما كان لدى عائلته من مؤن وحبوب على المسلمين الجياع!!

ومع إشراقة شمس صباح يوم 16 مارس 1871 كان الحاج المقراني يزحف نحو مدينة برج بوعريريج على رأس حوالي سبعة آلاف فارس وامتدت الثورة الى مليانة وشرشال غرب الجزائر العاصمة والى الحضنة والمسيلة وبوسعادة وتوترت وباتنة و«عين صالح» جنوبا.

وأظهر الحاج المقراني قدرة فائقة في إرساء عرف من الاتصالات ببقية المناطق وتهيأت الفرصة لإعلان الثورة والمواجهة.. وكان لحيوية الحاج الفذة وحزمة وسمعته الطيبة عند المسلمين الأثر الهام في توحيد الصف وحشد الطاقات.. والتحق بالحاج الشيخ الحداد والزاوية الرحمانية وقد عمل الرحمانيون على إذكاء روح الثورة وتوسيع رقعتها.

أجل لقد كان الحاج وأخوه بومزراق والحداد قادة عظاما لثورة شعبية على طول وعرض الجزائر استمرت عاما كاملا.. وقد تكون هي المحاولة الأولى

(14) «ثورة المقراني»، مرجع سابق، ص 28.

على طول الكفاح الاسلامي في الجزائر في القرن التاسع عشر التي استطاعت قيادتها من توحيد صفوف المجاهدين عبر كامل الاقليم... تنقل الحاج من موقع إلى موقع في مكافحة الفرنسيين الكفرة عاما كاملا حيث قتل شهيدا يوم 20 يناير 1872 بواحة الرويسات قرب «ورقلة» فانتهت بذلك الثورة حيث قد استسلم قبل ذلك الرحمانيون للقوات الفرنسية بالجملة وعن طوع اختيارهم.

إنتفاضة الأوراس (1879) :

بعد ثورة واحة العمري على بعد 48 كلم جنوب غرب بسكرة بقيادة الشيخ محمد يحي بن محمد الذي استشهد في معركة مع الفرنسيين في صباح 11 أبريل 1876.. بعد هذه الثورة انطلقت ثورة الأوراس بزعامة الشيخ محمد أمزيان بن عبد الرحمن الذي كان إماما بجامع قرية الحمام وشيخا للزاوية الدينية بها كرئيس للرحمانيين حيث رفع راية الجهاد على منارة مسجد سيدي فتح الله بالقرية وخلع على نفسه لقب محمد بن عبد الله المهدي «المهدي المنتظر صاحب الزمان».

وقرب قرية (الربعة) دارت معارك حامية الوطيس أبلى فيها المجاهدون بلاء حسنا وتميزت باشتراك المسبلمات الجزائريات في هذه المعركة مشاركة فعالة(16).

وفي يوم 24 يونيو هاجم الثوار قافلة فرنسية كانت في طريقها الى معسكر «كاجار» في قرية مدنة إلّا أن النصر لم يحالفهم.. فاشتد ضغط الفرنسيين على الأهالي وكثر التخريب.. فانسحب محمد أمزيان الى الجنوب الشرقي

(15) «ثورات الجزائر»، ص 202، مرجع سابق.
(16) «ثورات الجزائر»، ص 141.

ومن هناك إلى الجريد التونسي وفقدوا في هذه الرحلة الشاقة ثلاثمائة شخص ماتوا جميعا من الجوع والعطش ومن شدة الحرارة والاجهاد فعثرت عليهم القوات الفرنسية التي كانت تطاردهم هياكلا عظمية ممسوكة بالجلود اليابسة عليها(17).

وفي نفس الوقت سلمت السلطات التونسية محمد أمزيان بن عبد الرحمن زعيم الثورة ورفاقه إلى السلطات الفرنسية التي قدمتهم إلى المحاكمة بمدينة قسنطينة سنة 1880 وأعدم محمد أمزيان مع ثلاثة عشر من أخوانه.

ثورة الشيخ بوعمامة (1881 ــ 1883) :

نحن الآن مع قائد من القادة العظام الذين أدركوا مهمتهم التاريخية وقاموا بواجبهم دون تلكؤ أو تردد.. هو الشيخ بوعمامة بن العربي بن التاج من أولاد سيدي التاج..

كان لدعوة السيد جمال الدين الأفغاني وحركة السلطان عبد الحميد العثماني الداعية إلى جمع الشمل وتوحيد الأمة ومواجهة الخطر العربي تأثيرا بالغا في نفس بوعمامة عالم الدين الرباني وصاحب الزاوية الواعي.. وكان للدعوة السنوسية النشيطة في المناطق الصحراوية دورا هاما في تشجيع بوعمامة.. حيث كان رجال السنوسية دؤوبين في الدعوة لمقاومة الاستعمار الفرنسي خاصة والأوروبي عامة متأثرين بالحروب الصليبية التي كانت تشنها روسيا القيصرية والدول الأوروبية ضد الدول العثمانية والولايات الاسلامية وخاصة الحرب الروسية ــ التركية سنة 1877 التي حارب الروس فيها تحت بيارق الروح الصليبية مما أثار حماس المسلمين وثأرهم حتى في المغرب العربي بفدة لأخوانهم في الدين(18).

(17) Henri Garrot, p 994.
(18) «ثورات الجزائر»، ص 248.

فجاءت حركة الشيخ بوعمامة في إطارها العالمي والاسلامي والمحلي بوعي واقعي فذ بلا شك فشهدت أشهر سنة 1881 زيارات واتصالات هامة للاعداد للثورة حيث الشعب على استعداد مستمر والحاجة فقط الى من يرفع الراية.. تفجر الوضع بمقتل «وانبرونز» نائب رئيس المكتب لمدينة «البيض».. وكانت المعركة الأولى بينهما هي معركة سفينية جنوب عين الصفراء يوم 27 أبريل ثم معركة الشلالة يوم 19 ماي وأحرز بوعمامة انتصارا هاما أهله للتقدم شمالا نحو «البيض».

أبدى بوعمامة سياسة حكيمة مع التابعين للآغوية حيث تجنب الوقوع في اسالة الدماء في مرحلة ليس له فيها السيطرة على الوضع الشعبي.. مما جعله يكسب صفوف الثورة كثيرا من السذج المغرر بهم.

جعل الشيخ بوعمامة ضرب المؤسسة الاقتصادية الفرنسية هدفا من أهدافه الاستراتيجية فكثرت الحوادث والتخريب لها وقتل العديد من «المعمرين» المخربين الاسبان والفرنسيين[19] فانتشرت الثورة إنتشارا واسعا وشملت كل مناطق تيارت وفرندة وسعبدة والمنطقة الجنوبية منها فجندت فرنسا أعوانها من الأقوام والأغوات ليشنوا الغارات على أتباع بوعمامة من السكان والثوار.

ولم تغد هذه الاجراءات في وضع حد للثورة التي أخذت تمتد إلى الشمال بعد أن عمَّق كل الجنوب الوهراني.. فقام الفرنسيون في أواخر يونيو بإعداد أربعة كتائب عسكرية كبيرة لحماية التل ومنع الثورة من اكتساحه واكتفى الفرنسيون بالدفاع فقط تحسبا لهجومات الثوار.. وأصبح الموقف كله لصالح بوعمامة الذي أخذ المطاردون الى المغرب في الانضمام اليه.. فركز الفرنسيون قواتهم المزودة بأحدث الأعتدة العسكرية في «عين الصفراء»

(19) Garrot, p. 998.

و«عين خليل» و«العريشة» و«رأس الماء» و«مشرية» و«البيض» و«سبدو» و«الضاية» و«سعيدة» و«خيثر» و«فرندة» لوضع شبه حاجز على التل الوهراني من أجل حمايته.

وبفعل هذا الضغط الفرنسي انسحب بوعمامة الى منطقة فيقيق داخل المغرب فقلّ نشاطه وتشتت أتباعه وفقد ساحته الحقيقية من ناس وجغرافيا.

لكنه في اليوم الثاني من شهر أبريل سنة 1882 خاض وأخوانه معركة في «وادي فُندي» غرب «فنقيق».. إلى أن أخذ الثوار مواقعا لهم خارج الجزائر كان يفقدهم فعاليتهم.. ومن حين لآخر كان يتسلل الثوار من الحدود ينفذون عمليات ويناوشون قوات الاحتلال الفرنسي واستمرت هذه الأعمال حتى نهايات القرن التاسع عشر.

استمرت الانتفاضات تنفجر في وجه المحتل من فينة الى أخرى.. ففي عام 1906 اندلعت ثورة (عريوة) و(مليانة) وفي عام 1912 اندلعت ثورة بني الشقران وفي سنة 1916 اندلعت ثورة الأوراس.

الباب الثاني

طبيعة الهجمة الفرنسية من خلال الأحداث

لقد كانت الهجمة الفرنسية على الجزائر في القرن الثامن عشر استمرارا للمعارك التاريخية بين الصليبية وأمتنا الاسلامية.. لذا فقد كانت كسابقاتها مسلحة بروحها الدينية المتعصبة والعنصرية المقيتة.. ولقد كانت كذلك مع بدايات الهجمة الحديثة على أمتنا والتي شكل العامل الاقتصادي والهيمنة الاقتصادية السياسية أحد أهم بواعثها لذا فقد كانت هذه الهجمة هجمة استيطانية توسعية.. فهي من القديم أخذت روحه، ومن الحديث أخذت أساليبه ووسائله؛ فحدث التزاوج بشكل محكم بين الصليبية : هذا المعتقد الديني القادر على صنع الاحقاد والدفع الى أكثر الأعمال بشاعة دون إحساس حتى بمجرد الندم.. وبين الاستعمار هذا المشروع الاستكباري الرامي الى نهب ثروات الشعوب الاسلامية وإلحاقها بعجلة التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية له.

ولما كانت الحملة صليبية فإنها عمدت إلى تحطيم خصمها الخطير مكمن المقاومة المتجدد عند أهل البلاد المستعمرة ألا وهو الاسلام الذي ردها على أعقابها مرات عدة.. فكان لا بدي ـــ كي يتقدم هذا المشروع الغربي ويضمن إستمرارية هيمنته ـــ من تحطيم الاسلام بكل مقوماته المعنوية والمادية وإنشاء مركب من الثقافة والدين المزيف لاحلالهما محل الاسلام

عقيدة التوحيد ورسالة الله للخلق أجمعين.. والذي يجعل من قبول حكم الكفار كفرا يخرج من الملة.

ولما كانت الحملة استيطانية فإنها عمدت الى مصادرة الحبوس والأوقاف وتجريد سكان البلاد من أملاكهم وعقاراتهم وإنشاء نظام (كولونيالي) إستيطاني معتمد على التهجير المستمر للمسلمين واستجلاب همل أوروبا ولصوصها وقطاع الطرق فيها للاستيطان في الجزائر...

وفي الحالة الأولى كما في الحالة الثانية كان العنف والإرهاب[20] هما الوسيلتين المتبعتين لتحقيق الأهداف الاستعمارية.

صليبية الحملة :

كما كان للبعد الصليبي دور هام في التحريض للحملة الفرنسية استمر هذا البعد لمواصلة هذه الحملة لمهامها التي رسمتها لنفسها فها هو (المونسنيور دوبانلوب) يحث كتائب الجيش الفرنسي على المضي في الحرب : «تقدمي، تقدمي أيتها الكتائب الفرنسية! إرفعي الصليب في «هيبون» (عنابة)!.. فكي خلاص سوريا، إرجعي القسطنطينية إلى المسيح! إن وطنيتي المتحمسة لتحي هذا الفلاح الخافت الذكر، هذا الجنرال البارع، هذه الحرب العادلة! (حرب الجزائر) هذا الجيش العصري، لأني أحب التضحية والعبقرية وتقدم فرنسا. بكل هذه العناوين أقول الشرف لجيش فرنسا في افريقيا.. لقد تسلمت فرنسا من يديه أرضا (الجزائر) يمكن أن تكون أجمل مستعمرة في العالم، وواحدة من أشرف أماني الحضارة المسيحية»[21].

(20) د. أبو القاسم سعد الله «الحركة الوطنية الجزائرية» الجزء الثاني، ص 19.
(21) الأستاذ عبد الحميد بن هدوقة «المجابهة غير المتكافئة» مصدر سابق ص 200.

أما المونسنيور رئيس أساقفة باريس فقد خطب على أعتاب كنيسة «نوتردام» بعد إحتلال مدينة الجزائر مخاطبا ملك فرنسا قائلا : «مولاي! كم من كرامة قد اجتمعت في واحدة أي موضوع أحق باعترافنا بالجميل وباعجابنا غير ذلك الذي يقوم به اليوم جلالتكم في بيت الإلهٰ وعلى أقدام هيكل مريم! إن فرنسا قد انتقمت لنفسها وأدركت أنها يمكن أن تعتمد عليكم مرة أخرى، سواء في إعلاء مجدها، أو في تحقيق سعادتها.. لقد انتصرت الانسانية على البربرية والصليب على الهلال! إن قفار افريقيا تتردد فيها الآن أناشيد الإيمان.. يا ابن (سان لوي) أي مشروعية أكبر من ترضية وإفراح قلبكم الكريم والشريف! وأي مناسبة أبلغ وأحق بإدخال البهجة والسرور في نفسكم ونفوس رعاياكم! هكذا أعان الإله القوي الملك المسيحي القح الذي طلب عونه. إن يده معك يا مولاي! فلتزدد روحك الكبيرة يقينا. إن ثقتكم في العون القدسي وفي حماية مريم أم الإله لكم لن تذهب سدى..»[22].

هذه هي الروح التي واجه بها جنرالات فرنسا أهل الجزائر المسلمين ويكفي للتدليل على إفرازات هذه الروح ضرب مثال المجاعة التي عمت الجزائر عام 1870 إذ نتج عن هذه المجاعة موت مئات الآلاف من المسلمين وبلغت المجاعة ذروتها فزحف سكان الجنوب نحو مدن الشمال التي استوطنها (الكولون) والأوروبيون بشكل عام بحثا عن مصدر للعين.. وعوض أن يقدم لهم الأوربيون المساعدة منعوهم حتى من التفتيش في المزابل وأكوام القمامة على بقايا الأطعمة.. وكثر صياح الأوزبيين ونداءاتهم للسلطات الاستعمارية حتى تبعد هؤلاء الجياع عنهم فجمعتهم في محتشدات عامة في مليانة والأصنام وغيليزان وأبقتهم للجوع والعطش وشدة الحر مما ضاعف

(22) نفس المصدر، ص 201.

بؤسهم وتفشي الأمراض بينهم وموت المزيد منهم وقد اضطر الكثير منهم الى النبش عن الموتى في القبور لأكل لحومهم كما يعترف بذلك الفرنسيون أنفسهم[23].

ولقد استغلت الكنيسة هذه المجاعة وأخذ زعيمها (لامنجري) يجمع الأيتام الجزائريين المسلمين، ويقدم لهم فتات الخبز مقابل تخليهم عن دينهم الاسلام واعتناقهم للنصرانية وجعل لذلك مخيمات وذهب في هذا شوطا بعيدا.

أما كيف كان يتعامل ضباط الحملة مع النساء والرجال من أهل البلاد فهذا أمر في منتهى النذالة العنصرية يكشف عن طبيعة هذه الحملة ورسالتها.. يقول سانت أرنو وهو أحد الضباط الفرنسيين : «إن بلاد بني مناصر رائعة جدا.. لقد أحرقنا ودمرنا كل شيء آه، الحرب، الحرب، كم من نساء وأولاد لاجئين إلى ثلوج الأطلس قضوا من البرد والبؤس» ويقول سانتآرنوا أيضا : «إنك تركتني في قبيلة البراز، لقد حرقتهم كلهم وأتيت على الأخضر واليابس، اليوم فإن في قبيلة بن شويد فأتيت فيها على الزرع والضرع»[24].

ويقول الكولونيل «دي مونتياك» في رسالة الى الجنرال «لاموريسيار» : (طلبت مني في مقطع من رسالتك أن أخبرك عن مصير النساء اللواتي نسبيهن. إننا نحتفظ ببعضهن كرهائن ونستبدل بعضهن بالجياد، ثم نبيع الباقيات بالمزاد العلني باعتبارهن حيوانات لنقل الأحمال.. ولكي أطرد الأفكار السوداء التي تنتابني بعض الأحيان، أقوم بقطع رؤوس... لا، ليس رؤوس نبات «الأرض السوكي» بل رؤوس رجال حقيقيين»[25].

(23) «الجزائر بين الماضي والحاضر»، مرجع سابق ص 372 — 375.
(24) فرحات عباس «ليل الاستعمار»، ص 63 — 64.
(25) د. أحمد الخطيب «الثورة الجزائرية»، ص 162.

هذه «الروح الصليبية» وجهت جنرالات الحملة لتدمير المؤسسة العلمية والثقافة في الجزائر وذلك قصد تدمير إمكانية تجدد المقاومة والجهاد التي شكلت الروح الاسلامية عصبها وباعثها الأساسي.. فها هو الجنرال «لاموريسير» الذائع الصيت يقول : «لما انتصرنا في الجزائر أخذنا المدارس لنجعها مغازات وثكنات واصطبلات. وضعنا أيدينا على أملاك المساجد والمعاهد»[26].

وذكر مفتش التعليم «لوبيشو» وصفا مقتضبا لكيفية تعامل الحملة مع مؤسسات الأمة المقدسة : «كم من كتاب دمر وتشتت من جراء الاحتلالات المتعددة للمساجد.. إنّ المخطوطات التي يعتمد عليها في التعليم دمرت»[27] وسنتحدث عن هذا الجانب في حينه من هذا البحث.

إستيطانية الحملة :

شهدت الجزائر منذ بداية الاحتلال هجرة إستيطانية من مختلف أنحاء أوروبا.. وبعد قانون 22 تموز يوليو عام 1834 الذي نص على أن الجزائر (أرض فرنسية) قسمت الادارة الفرنسية الجزائر إلى ثلاث عمالات.. ولم يرحل (بيجو) من الجزائر في شهر سبتمبر 1847 إلّا وقد خلف وراءه (1090.400) مستوطنا أوروبيا.. وتواصلت بعد ذلك بشكل أوسع حالة الاستيطان والتوسع هذه أنشأتها عمليتان متعاكستان في آنٍ واحد.. عملية الهجرة الأوروبية إلى الجزائر وعملية الهجرة الجزائرية الى بلاد المشرق أو تونس. وكل عملية من هاتين العمليتين مشفوعة بأسبابها ودواعها وأهدافها. ففي حين يجلب الأوروبيون من أنحاء أوروبا الى الجزائر للتمسك والاستيطان وإدارة شؤون البلاد اقتصادية وسياسيا.. في هذا الحين يُهجّر المسلمون

(26) عبد الحميد هدوقة، مصدر سابق، ص 201.

بحرق محاصليهم الزراعية وبمصادرة أراضيهم وبفرض حالة تجويع قاتلة.. هذا فضلا عن عمليات الإبادة وسياسة الأرض المحروقة التي كان يمارسها قادة الحملة الفرنسية!

فبعد قيام الجمهورية الفرنسية الثانية وسقوط ملكية لويس فيليب في مطلع عام 1848 صدر قرار في شهر مارس ينص على أن الجزائر جزء من التراب الفرنسي ويسمح للمستوطنين الأوروبيين بانتخاب مستشارين بلديين لهم بالجزائر ويقسم الجزائر إلى منطقتين أساسيتين : الجزائر الشمالية والجزائر الجنوبية.. وربطت مصالح العلم والدين والقضاء والجمارك بالوزارات الفرنسية.

اهتمت الجمهورية الثانية بأمر التهجير والاستيطان الأوروبي[27] ووضعت خطة لتهجر مائتي ألف أوروبي إلى الجزائر في ظرف عشر سنوات خاصة المشاغبين واعتمد مجلس النواب الفرنسي مبلغ 50 مليون فرنك لتنفيذ المرحلة الأولى من الخطة على أمل إسكات أصوات العمال التي فشلت الحكومة في إيجاد عمل لهم وهجرت من باريس وحدها حوالي 15 ألف شخص من مجموع المهجرين الأوربيين الذي بلغ عددهم 131 ألف مستوطن عام 1851.

وفي يوم 26 أبريل 1851 صدر قانون يقضي بتنظيم عمليات تمليك الأراضي للأوروبيين ثم اتجهت حكومة الامبراطور عام 1861 إلى تشجيع الاستيطان الرأسمالي الواسع عن طريق الشركات الرأسمالية التي وعدت بإنشاء قرى إستيطانية كبيرة لأعداد كبيرة من المهاجرين الأوروبيين.

وحصلت 51 شركة رأسمالية متوسطة على 50 ألف هكتار في خلال عشر سنوات وحصل المهاجرون الأوروبيون على حوالي 250 ألف هكتار وارتفع عددهم في الأرياف والمناطق الداخلية الى 189 ألف شخص»[28].

(27) د. يحي بوعزيز «سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية»، ص 14.
(28) شارل روبير جون، «تاريخ الجزائر المعاصرة»، ص 50 ــ 51.

وحصلت شريكة جينفواز السويسرية على 25 ألف هكتار في أحواز سطيف عام 1858 وعلى 281 هكتار خلال عشر سنوات وهجرت اليها 956 مستوطنا أوروبيا.

وحصلت الشركة العامة الجزائرية على 160 ألف هكتار من الأراضي.. وهكذا تواصل نشاط الشركات الاستعمارية في تملك الأراضي عن طريق جنرالات الحملة الذين وضعوا أيديهم على أملاك الدولة الجزائرية العثمانية وحبوسها وأوقافها.. وعلى عقارات المسلمين.. وكان أعنف عمليات السطو تلك التي حدثت بعيد ثورة المقراني التي تواصلت عامين كاملين.. حيث انتزعت من سكان القبائل ما يزيد على 453.000 هكتارا من الأرض ليحل فيها المستوطنون الفرنسيون[29]. وذلك في عام 1872.

وبالنظر إلى الجدول الآتي [30] يتضح أن مساحة أراضي البايلك تقدر برقم 1.5 مليون هكتار ومساحة أراضي الملك تقدر برقم 3 مليون هكتار وذلك في السنة السابقة للاحتلال.

ويتضح من الجدول أن المعمرين وضعوا أيديهم منذ البداية على أراضي البايلك والتي تعتبر من أكثر الأراضي خصوبة.. ثم بدأ نهب أراضي الملك متصاعدا حسب أعداد المهاجرين الأوروبيين الى الجزائر وذلك تحت أغطية عدة منها العقاب ضد المتمردين.

(29) د. فلانزي «سياسة فرنسا نحو الجزائر في القرن التاسع عشر» ترجمة أبو القاسم سعد الله، ص 104 من (أبحاث وآراء).

(30) الأستاذ حميدة عميراوي، مصدر سابق، ص 75. وانظر كذلك الصفحات الأولى من دراسة الحافظ ستهم، «التحولات في الريف الجزائري منذ الاستقلال»، ترجمة مروان القتواتي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

السنوات	أراضي البايلك (هكتار)	أراضي المعمرين (هكتار)	أراضي الملك (هكتار)
1850	1.500.000	115.000	3.000.000
1880	1.500.000	1.245.000	3.000.000
1900	1.500.000	1.912.000	2.588.000
1920	1.500.000	2.581.000	1.919.000
1940	1.500.000	3.045.000	1.455.000
1954	1.500.000	3.028.000	1.472.000

ويوضح الجدول أن أراضي الملك والذي يمثل الملكيات الزراعية الخاصة للجزائريين اتجهت مساحتها نحو التناقص ابتداء من القرن العشرين..

وفي الواقع أن اقتسام أراضي البايلك بين المعمرين كان قد انتهى أمره قبل تاريخ سنة 1850.. وأن السطو على أراضي الملك قد بدأ أيضا قبل بداية القرن العشرين خصوصا في السنوات الثلاثين الاخيرة من القرن التاسع عشر كما سبقت الاشارة في أكثر من موضع.

ويمكن أن يوضح الجدول التالي[31] سياسة التهجر الأوروبي الى الجزار وذلك حتى 1870 م مأخوذا من تقارير قيادة الأركان العامة سنة 1870.

(31) الأستاذ حسن بهلول «الغزو الرأسمالي الزراعي للجزائر»، ص 31.

السنة	المهاجرون الأوروبيون	الفرنسيون
1840	28.000	؟
1849	122.000	60.000
1851	131.283	66.006
1856	159.282	92.738
1861	192.746	118.804
1866	218.000	122.119
1870	220.000	125.000

وقد تم لأجل إنجاز هذا المشروع الاستيطاني تحطيم العائلات الجزائرية وتفتيت الأبنية الاجتماعية التي كانت تمثل ضمانة استمرار حركة المجتمع الجزائري وفق قيمه.. وتمزيق المجتمع الجزائري وتفقيره.. وهكذا وجدت الهجرات الجزائرية إلى المشرق مبرراتها الموضوعية والحديث يطول لو استعرضنا نتائج سياسة الاستيطان.

وانتهى الحل بالمسلمين الجزائريين بأن أصبحوا خاضعين تماما لسلطة (الكولون) الذي انطلقت أيديهم بإعلان الحكومة الفرنسية قيام الحكم المدني في الجزائر بتاريخ 9 مارس آذار 1871.. انطلقت أيدي الكولون سياسيا واقتصاديا.. حيث لم يعد لازما إعتبار الجزائريين كالفرنسيين. ومن هنا كان قانون (الأهلي) الرهيب الذي حوى مجموعة من القوانين الاستثنائية ضد الشعب الجزائري منذ عام 1874 بعد تحطيم مقاومته المسلحة بقيادة المقراني... وسنتناول الحديث فيما بعد حول هذا القانون.

في أثناء معركة الاستيطان هذه كانت الحملة تتوجه إلى كل مقوم من مقومات حياة المجتمع الجزائري الروحية والمادية قصد تدميرها أو إلحاقها.. وذلك كان واضحا في المجال الثقافي والعقائدي كما سيأتي ذكره فيما بعد(32).

أما الهجرة الجزائرية لفرنسا فيكفي أن نشير الى الجدول الآتي ليكشف عن طبيعة المعاناة التي يعيشها المسلمون في الجزائر على الصعيد السياسي والاقتصاد والنفسي وهو مأخوذ على مدار عشر سنوات من 1914 ــ 1924.

السنة	عدد المهاجرين الى فرنسا	عدد العائدين إلى الجزائر	عدد المتخلفين في فرنسا
1914	7.444	6.000	1.444
1915	20.092	4.970	15.222
1916	30.755	9.044	21.711
1917	34.985	18.849	16.136
1918	23.340	20.489	2.851
1919	5.568	5.568	—
1920	21.684	17.380	4.303
1921	17.259	17.538	—
1922	44.466	26.289	18.177
1923	58.586	36.990	21.596
1924	71.028	57.467	13.561

(32) الجدول والأرقام ترجع الى كتاب «حزب الشعب الجزائري»، ص 88 ــ 90 د. أحمد الخطيب

وتذكر بعض المصادر أن عدد العمال الجزائريين بلغ ــ خلال الحرب العالمية الأولى ــ في فرنسا 130.000 شخصا. والبعض الآخر يعطي رقما آخر 142.000 عاملا... وتركز وجود هؤلاء العمال في مناجم الشمال وضواحي باريس حيث تتركز الغالبية العظمى من المهاجرين.. و60% من مجموع العمال كانوا يعملون في مصانع الغاز وورش الفحم والمرائب وكعمال تنظيف في البلديات و25% منهم كانوا يعملون في المترو وأحواض موانىء السفن.. والنسبة الباقية يعملون في التخزين..

أجل إن رقم 140 ألف عامل جزائري في فرنسا من شعب لا يزيد عدد أفراده عن 4 مليون نسمة يكشف طبيعة العوامل التي ضربت المجتمع ودفعت شبابه إلى الهجرة إنها عوامل سياسية وعكسرية واقتصادية بشكل أساسي.

الفصل الخامس

الوضع في الجزائر
في النصف الأول من القرن العشرين[1]

مـدخل :

يعتبر نصف القرن العشرين الاول مرحلة من أصعب ما واجه الأمة الاسلامية على طول تاريخها اذ كانت الهيمنة الغربية شاملة وتتقدم يوميا فيها الأوضاع الرسمية في الأمة تعيش إنهياراتها المدوية : الخلافة العثمانية تنتقص أطرافها والقلاقل تثيرها الفتن ليل نهار ضد نظام الخلافة.. والروح المقاومة تلفظ آخر ما تبقى لها من نفس في مقاومة حملة مزودة بالتكنولوجيا والتفوق المادي والعلمي مدفوعة ببواعث صليبية وأطماع إستعمارية...

لقد جاء القرن العشرين ليشهد نكسات إسلامية في أكثر من مكان... عاصمة الخلافة تكاد تسقط أمام الهجمة الغربية... إنتهاء المقاومة الاسلامية المسلحة في جبال القوقاز وفي السودان وفي الجزائر... المشرق العربي يتوزع بإتفاقية سايكس بيكو... تبدأ الهجمة في تركيز قاعدة متقدمة ضد أمتنا بالتهيئة لانشاء كيان صهيوني في فلسطين.

لقد كان النصف الأول من القرن العشرين قاتلا يطحن كل طموح بالتغيير... لا أمل يلوح في الأفق... العدو ملأ البر والبحر بخيله ورجاله... ولم

(1) انظر : مالك بن نبي، «أيام شاهد للقرن»، ترجمة مروان القنواتي، في «الثقافة»، 1989.

تفلح مقاومة الأمة طوال القرن التاسع عشر من طرد المستعمر أو مواجهته... وهذا بالتأكيد له أسبابه ونواميسه... لقد كان الفارق في ميزان المواجهة فارق جوهري : الغرب يتقدم ويبني كل مشاريعه على أطروحة التوسع والتطور على حساب الأمة... فيما الأمة تتراجع على صعيد الإنشاء والتنامي وتعيش مرحلة سكونية من الروح... مكتفية على الصعيد النفسي بالحفاظ على ما هو في اليد... فتمت المواجهة وقدمت الأمة ــ على غير عادة الشعوب والأمم الأخرى ــ وفي مرحلة ضعفها وخورها دليلا عظيما على رفضها للخضوع والاستعباد... وإن البقية الباقية في نفوسها من روح الجهاد دفعتها للمقاومة على طول القرن التاسع عشر مقاومة باسلة وعظيمة.

جاء القرن العشرين ليشهد وضعا مأساويا على كل الأصعدة تعيشه الأمة... وكانت الجزائر من أكثر هذه المواقع الاسلامية معاناة واضطهادا لأنها كانت أكثرها مقاومة واستبسالا... لقد قدم شعب الجزائر المسلم ملايين الشهداء وشرد منه أعداد هائلة الى المشرق العربي وفرنسا والمستعمرات الفرنسية... وجرّد من كل أملاكه العقارية والحيوانية وطعن في كرامته الوطنية والدينية.

ووصلت الحالة إلى إنهاك تام وإرهاق منظم مارسته سلطات الاحتلال الفرنسي من خلال عسكرها واللفيف الأجنبي المستعمر وارسالياتها التبشيرية وغزوها الثقافي المكثف كما سترد الإشارة إلى ذلك بعد قليل.

إلّا أن هذه الحقبة من الزمن اثبتت استحالة تذويب الأمة مهما كان ميزان القوى في صالح عدو الأمة... وبدأت البنى الاجتماعية تلملم شعثها وتحسس شخصيتها وهي ترفض المدرسة الفرنسية والاندماج في الحياة (المسيحية).

فبعد مرحلة الجهاد الطويل كان لا بد من فترة لتجميع القوى ولَمِّ الشتات وكأن الضمير الجماعي والعقل الجماعي يقولان : نحن بحاجة الى تكثيف

الذاكرة وإعداد العدة وإكتاشف عدونا بشكل أعمق وتجديد فكرنا ومنظومة حياتنا وذلك من أجل جولة أشمل اتساعا وأكثر حسما.

وهذا كله يحتاج بلا شك إلى وقت طويل نفحص خلاله مقولاتنا وأفكارنا ونكتشف طبيعة الغرب وأركانها الفلسفية والفكرية لكي يتحقق لنا بعد ذلك تحديد معالم ردنا الحضاري على الهجمة الغربية الحديثة :

وفي هذه المرحلة الصعبة انبعثت حركة ابن باديس وجمعية العلماء المسلمين تبعث الأمة وترد عنها الغزو الثقافي القاضي بالاجهاز عليها... إنها كانت ــ حسب تعبير مالك بن نبي ــ «معجزة الحياة في الجزائر التي بدأت بصوت (الشيخ ابن باديس) ونداءه الذي أيقظ الوعي وحول مناجاة الفرد الى حديث الشعب»[2] أو حسب وصف الكاتب الفرنسي (ديباري) سنة 1933 «ان الجزائريين يعتبرون ابن باديس : (مرشد الأمة).. و(إمام البلاد)... ولأب النهضة)...»[2].. لقد شهدت الساحة الجزائرية نشاطا سياسيا قبل نشوء جمعية العلماء كما شهدت نشاطا مرافقا للجمعية.. لكن يرجع للجمعية الدرو الرئيسي في تحديد إطار المعركة الحضارية ضد الهجمة الغربية.. وبالتأكيد لقد أسهمت كل القوى الوطنية في إنضاج حالة الوعي التي انتهت بطرد الأوروبيين نهائيا من ديار المسلمين ــ الجزائر ــ بفعل يشبه الأسطورة تجسد في ثورة نوفمبر الكبرى.

ولقد كان النصف الأول من القرن العشرين شاهدا كذلك على إنبعاث حركة الاصلاح الاسلامية في العالم الاسلامي ومقاومتها للغزو الغربي.. فلئن شهد القرن التاسع عشر جهاد الحركة الصوفية في المشرق العربي والمغرب العربي.. جاء النصف الأول من القرن العشرين ليسجل لحركة الاصلاح

(2) «شروط النهضة»، مالك بن نبي، ص 30.

الاسلامية مواقفا لا تقل روعة عن التي سجلت لسابقتها.. في المغرب الأقصى المجاهد الفذ عبد الكريم الخطابي.. في العراق ثورة العشرين، في فلسطين ثورة القسّام في طرابلس الغرب عمر المختار.. في مصر حركة البنا.. وهكذا.. وكإستجابة لأعظم صيحة للنهوض الاسلامي تلك التي دوى بها جمال الدين الأفغاني قبيل سقوط الخلافة... هذه الصيحة التي عضده فيها تلميذه وصديقه محمد عبده والتي أثرت بعمق في الواقع الاسلامي.

ولقد كانت الجزائر من بين البلدان التي تأثرت بهذه الصيحة تأثرا عميقا.. وترجمت صيحتها واقعا ملموسا كأفضل ما ترجمت في تلك المرحلة.. بل لقد جمع إبن باديس في شخصه روح الأفغاني الثائرة المتعشقة للحرية والانعتاق وطريقة عبده في إصلاح التعليم.. بل أكثر من ذلك استطاع ابن باديس أن يتقن إدارة الصراع مع العدو إذ أنه كان قائدا على مستوى عالي من الوعي والاحاطة.. الأمر الذي لم يتسن بمثل هذا التكثيف لغيره على طول نصف القرن العشرين الاول وسيأتي الحديث تفصيلا عن ابن باديس.

من المهم قوله أنّ هذه الحقبة الصعبة لم تكن سوداوية تماما رغم غلبة الغرب وفرنسا ورغم أننا خسرنا المعركة المسلحة بعد أكثر من سبعين عاما من الكفاح المتواصل والذي لم ينقطع ورغم ما أنتجته هذه الخسارة على الصعيد النفسي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي... لقد جهدت فرنسا أن تتوج إنتصارها العسكري بانتصار لها على عقيدتنا وشخصيتنا الحضارية.. وجهدت الأمة على إبراز هويتها الحضارية وفي هذا الاطار تواصلت المعركة وعلى هذا المحور الساخن نصف قرن... كيف حدث ذلك؟ هذا ما سنحاول إلقاء الضوء عليه.

الباب الأول

الوضع السياسي

1 ــ السياسة الفرنسية في الجزائر :

لقد اتجهت السياسة الفرنسية الاستعمارية في الجزائر من حالة نهب واستحواذ على الممتلكات الى إيجاد حالة اجتماعية غريبة في يدها الحكم والاقتصاد لتسيير الأمور في كل شؤون الحياة بما يشبه حكم ذاتي في الجزائر.. وهذه الحالة الاجتماعية مثلها اللفيف الأجنبي والذي كان يدعم باستمرار عن طريق الهجرات المتواصلة الى الجزائر.

ومع حالات الإبادة والتدمير والنهب صدرت القوانين والمراسيم التي تعمل على دمج وفرنسة شعب الجزائر المسلم إذ ضربت الحملة الفرنسية بعهودها لمسلمي الجزائر عرض الحائط وارتكبت المذابح الجماعية وكما جاء في تقرير اللجنة الافريقية سنة 1833 ان الحكومة الفرنسية ــ التي كلفتها بالتحقيق في الجرائم المشكو منها وتبيان الوضع على حقيقته ــ : «لقد حطمنا ممتلكات المؤسسات الدينية وجردنا السكان الذين وعدناهم بالاصرام وأخذنا الممتلكات الخاصة بلا تعويضات.. وذبحنا أناسا كانوا يحملون عهد الأمان وحكامنا رجالا يتمتعون بسمعة القديسيين في بلادهم.. لأنهم كانوا شجعانا لدرجة أنهم صارحونا بحالة مواطنيهم المنكوبين»[3].. ومع حالة العنف هذه صدرت قوانين

(3) د. أحمد الخطيب، «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي»، ص 147.

الأحوال الشخصية لإبعاد المسلمين عن هويتهم الحضارية وحتى لإخراجهم من حالة (رعايا فرنسيين) إلى حالة (مواطنين فرنسيين) حسب قرار (الساناتوس كنولت) الذي أصدره نابليون عام 1865.. إلّا أن الاحصاءات خلال 1865 ــ 1875 لم تسجل إلّا بضع حالات من التجنيس... وفيما عدا اليهود الذين منحهم الوزير الفرنسي اليهودي (Crémieux) حق المواطنة الفرنسية مع احتفاظهم بأحوالهم الشخصية اليهودية فيما عدا هؤلاء كانت مسألة التجنيس تواجه بالرفض التام على الصعيد الشعبي الذي كان يرى في التجنيس تخلي عن دين الاسلام.

كان هذا يتم في الحين الذي ترك للمعمرين (الكولون) الحرية في السيطرة والنهب كيفما شاءوا.. ولقد استمرت مطالبتهم بحكم ذاتي للجزائر أي باستقلالهم في تسيير الأمور في الجزائر عن الحكومة المركزية في باريس... وقاموا بتمرد على حكومة الجمهوريين الذين وعدوهم قبل استلامهم الحكم بحكومة ذاتية للجزائر... وهددوا الحكومة باستقلالهم بالجزائر.. واستجابت الحكومة للتهديدات فأعلنت في 9 مارس سنة 1871 عن قيام حكم مدني في الجزائر(4).. وهذا يعني مزيد من سيطرة الكولون التي سيرافقها المزيد من مصادرة الأراضي وبناء المستوطنات على حساب أراضي الفلاحين الجزائريين.. مما مهد لثورة المقراني.

بعد تحطيم ثورة المقراني.. وبعد الممارسات القمعية التي وصل الحد بها إلى تهجير آلاف العائلات خارج أرض الجزائر كما انتزعت أملاك أهل القبائل التي تبلغ عشرات آلاف الهكتارات.. بعد هذا صدر قانون الأهالي سنة 1874 والذي توسع إلى أن يشمل 27 مخالفة في سنة 1897 وذلك ردا على المواطنين الجزائريين عقب ثورة المقراني ومن أبرز نقاط هذا القانون :

(4) د. أبو القاسم سعد الله، «الحركة الوطنية الجزائرية»، الجزء الثاني، ص 16 ــ 17.

أ ــ سلطة الوالي الفرنسي في توقيع العقوبات على الأهالي دون محاكمة وقد استمر العمل بهذا القانون حتى عام 1944 م.

ب ــ سلطة المسؤولين الاداريين بسجن الأفراد أو مصادرة ممتلكاتهم دون حكم قضائي وقد استمر العمل به حتى عام 1927 م.

أما المخالفات التي يسجن مرتكبوها وتصادر أملاكهم فهي :

ــ التلفظ بعبارات معادية لفرنسا.
ــ رفض السخرة أو العمل في المزارع الأوروبية.
ــ الخروج من منطقة إلى أخرى بدون إذن خاص.
ــ زيارة أحد الأولياء أو إقامة وليمة خاصة على روحه دون إذن خاص.
ــ فتح أي مركز ديني أو مدرسة للتعليم بدون إذن خاص.
ــ رفض إرسال الصبيان أو إهمال إرسالهم الى المدرسة الابتدائية الفرنسية التي لا تبعد أكثر من ثلاث كيلومترات عن محل السكن إلّا لعذر معقول [لم ينفذ هذا البند إلّا في بلاد القبائل حيث كان هناك تخطيط لفرنستهم ثقافيا].
ــ رفض اعطاء المعلومات اللازمة الى أعوان السلطة الادارية أو القضاء.
ــ الامتناع عن الحراسة المجانية للغابات...(5).

وكان من الواضح أن هذه القوانين والمراسيم انما تقصد القضاء على السمات المميزة للمجتمع الجزائري المسلم... وجعله قطعانا من العبيد يعملون لصالح المستوطنين الاستعماريين حيث تشبه هذه القوانين القوانين الصادرة في حق رقيق جزر الأنتيل.

ب بالطبع لم تمر هذه الاجراءات كما كان يتصور الأوروبيون.. بل إنّ مقاومة باسلة تصدت للمخططات الفرنسية.. مقاومة روّت تاريخنا الحديث بصورة

(5) جمعية العلماء المسلمين، مرجع سابق، ص 21 ــ 22.

البطولة والمجد على طول القرن التاسع عشر... وسبق التعرض إليها بالاشارة في موضع سابق.

توقف الكفاح الجزائري المسلح مع انتهاء الحرب العالمية الأولى ليحل محله الكفاح السياسي المرير على طول نصف قرن من الزمن يخوض من خلالها أوسع ثورة ثقافية ذات هدف سياسي عظيم.

وقبل الانتقال عن دائرة السياسة الاستعمارية نريد أن يكون واضحا أن قوانين الدمج [الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا] لم تكن تعني في واقع الأمر الجزائريين وإنما القصد منها فرنسة الأرض لخدمة (الكولون) الذين لم يقبلوا (المتربول) حكومة ونوابا على هذه الأرض [المقاطعة الفرنسية] وذلك لأنها كانت نفخات ليبرالية تهب من حين إلى آخر من بعض الحكام والنواب الفرنسيين تثير الرجفة في أوصال المستوطنين لذلك كان لا بد لهؤلاء من أن يسعوا إلى الانفراد بالجزائر بعيدا عن المجالس الفرنسية.. وكان الانتصاف دوما حليف الكولون أصحاب السطوة والنفوذ فمن أجلهم صدر قانون 29 دسمبر 1900 الذي يعطي الجزائر الحكم الذاتي وخاصة في المال(7).

وهكذا شكل قانون سنة 1900 نكبة قاسية على المسلمين الجزائريين في الحين الذي اعتبره الكولون انتصارا كبيرا منحهم السلطة الكاملة على الأهالي.

وحسب قانون الساناتو ــ كونسولت السابق الذكر وإنطلاقا منه أعطت السلطات الفرنسية الدواوير والعشائر حق التمثيل في «مجلس الجماعة»، ويضم هذا المجلس رؤساء العشائر ويرأسه نظريا «القايد» وهو موظف جزائري لدى الادارة ولكن المسؤول الاداري والفرنسي هو المسؤول القانون والفعلي عن

(6) جمعية العلماء المسلمين، مرجع سابق ص 241 (أحمد الخطيب).
(7) نفس المصدر، ص 31.

المجلس.. وبعد أن ألغي هذا المجلس في عهد الجمهورية الثالثة عاد الى الظهور سنة 1919 بأكثر فعالية.

وأنشئت المجالس البلدية سنة 1884 فكان الممثلون الجزائريون يعينون تعيينا وهم على كل حال لا تزيد نسبتهم عن ربع أعضاء المجلس حيث يشكل الكولون ثلاثة أرباعه.

أما على مستوى العمالات (المحافظات) فكذلك الحال يعين ربع أعضاء المجلس من قبل الوالي العام واستحدث الفرنسيون للجزائر سنة 1898 نوعا من البرلمان الخاص أطلقوا عليه إسم «مجلس النيابات المالية في الجزائر» والقصد منه تمثيل دافعي الضرائب حيث كان يتوجب على المسلمين الجزائريين أن يدفعوا زكاة العشر التي كانت تدفع قبل الاحتلال ويدفعوا الضرائب القانونية وفقا لنظام الضرائب الفرنسي واستحدثت جملة من الضرائب التعسفية منها مبالغ من المال وبعض المواد الغذائية تقدم للقياد وأعوان..(8).

2 ــ الأحزاب السياسية الجزائرية :

لقد بدء النشاط السياسي ضعيفا مترددا مع بداية القرن العشرين.. بدء بالمحافظين و«النخبة».. «المحافظون» : زعماء الطرق الصوفية الذين عارضوا في البداية التجنيس والتجنيد الاجباري وانتهوا لفقدهم معيار كشف طبيعة الغرب وأهدافه الى «التربع» على كراسي القضاء والإفتاء وتصدوا لجمعية العلماء تصدٍ شرس من رموزهم «بن موهوب».

أما النخبة فكانت نقيض سياسي وإجتماعي مع المحافظين.. حيث تركزت مطالب النخبة منذ البداية حول المساواة في الحقوق السياسية مع الفرنسيين وكانوا يهدفون الى توحيد الجزائر مع فرنسا.

(8) جمعية العلماء المسلمين، مصدر سابق، ص 34.

أما حياة النخبة الاجتماعية فقد قامت على تبني أفكار الغرب ووسائل عيشه وطريقته في العمل وثقافته وتعليمه وكانوا يرغبون في تحويل المجتمع الجزائري الى مجتمع أوروبي ـــ حسب ما يلاحظ أبو القاسم سعد الله ـــ.. ولقد ظهرت مجموعة من صفوف النخبة كانت أقرب إلى حزب سياسي منها الى طبقة إجتماعية مميزة عرفت باسم «لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين» وذلك سنة 1908.. ودارت كل مطالبها وأهدافها حول أهداف ومطالب النخبة»[10].

وبعد الحرب العالمية الأولى وبسبب قبول جماعة ابن التهامي وهو من مؤسسي (لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين) الجنسية الفرنسية دون الاحتفاظ بالأحوال الشخصية إنقسمت النخبة على نفسها حيث رفضت جماعة الأمير خالد الهاشمي حفيد الأمير عبد القادر ربط التجنس بالتخلي عن الأحوال الشخصية الاسلامية.

وهكذا برز إلى الساحة الجزائرية نتيجة هذا الانقسام حزبان «وطنيان» ثم ظهرت بعدهما أحزاب أخرى كان لها تأثير في مجرى الأحداث السياسية.. وسيعطينا العرض التالي لنشأة هذه الأحزاب وتبيان مبادئها صورة واضحة عن الجو السياسي الذي ظهرت فيه «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين».

أ ـــ حزب الشباب الجزائري[11] :

ويرأسه الأمير خالد وبرنامجه يتمحور حول إلغاء القوانين الاستثنائية وإعطاء الجزائريين حقوقهم في التمثيل البرلماني والمساواة في الخدمة العسكرية وحقهم في تقليد جميع المناصب الدينية والعسكرية بدون تمييز

(9) و(10) نفس المصدر، ص 37 ـــ 39.
(11) سعد الله، مصدر سابق، ص 319.

وفصل الدين عن الدولة.. وكانت جريدة الإقدام هي الجريدة الرسمية الناطقة بلسان الحزب.

ب ـــ الحزب الليبرالي :

ويرأسه إبن التهامي لم يختلف برنامجه عن برنامج الأمير خالد سوى في نقطة واحدة وهي دمج الجزائر بفرنسا دمجا كاملا ومنح الجنسية للجزائريين بغض النظر عن التمسك بالأحوال الشخصية الاسلامية»[12].

وتنافس الحزبان على استقطاب أصوات الناخبين في بلدية الجزائر سنة 1920 وفازت لائحة الأمير خاليد في البلدية مقابل هزيمة لائحة أبن التهامي... فصدر قانون 4 أغسطس سنة 1929 أعاد العمل ببعض أحكام قانون «الأهالي» سابق الذكر.. واشتد التضييق على الأمير خالد الذي أسس حزبا جديدا عام 1922 هو :

ج ـــ حزب الإخاء الجزائري :

كانت أهدافه كلها لها علاقة بالمساواة مع الأوروبين (الكولون) في التمثيل والحريات السياسية ومشاركتهم في الأراضي الفلاحية إلّا أن هذا الحزب ركز على المطالب الاجتماعية واهتمامه بأوضاع الفلاحين والعمال وميزانية العشيرة... ولم يلبث أن أبعد الأمير الى فرنسا في حزيران 1923. وبعد انتصار اتحاد اليساريين في الانتخابات قدم مذكرة الى رئيس الجمهورية «هيريو» سنة 1924 مشددا على مطالبه السابقة ولكن الحكومة الفرنسية نفته إلى المشرق العربي فما لبث أن حوكم في الاسكندرية أمام محكمة

(12) أحمد الخطيب، مصدر سابق، ص 41.

القنصلية الفرنسية في أوغسطس 1925 بتهمة محاولة الهروب من منفاه ولم يعد إلى الجزائر وتوفي في دمشق سنة 1936[13].

بغياب الأمير عن الساحة السياسية في الجزائر اختلطت الأوراق السياسية وانقسم أنصار الأمير قسم اتجه لإبن التهامي وشكلوا حزبا جديدا[14] سنة 1927 أطلقوا عليه اسم «فيدرالية نواب مسلمي الجزائر»، وقسم آخر اتجه طريق آخر رافض للاحتلال الفرنسي المسلح وداعية لإلغاء القانون الأهلي وهو الذي يشكل القاعدة التي قام عليها حزب «نجم شمال افريقيا».

د ــ (فيدرالية نواب مسلمي الجزائر) :

وهي برئاسة الدكتور ابن التهامي وتنطق باسمها جريدة «التقدم» والتي استمرت في التعبير عن أهداف هذه الفئة منذ أيار 1923 حتى فبراير 1931... وتتركز نقاط برنامج هذا الحزب حول المساواة لكنهم طالبوا بإلغاء قانون «الأهالي».

من أهم رجالات هذا الحزب الدكتور إبن التهامي والصيدلي عباس فرحات والدكتور إبن جلول والليثاني وطاهرات والفاسي والزناتي وبلحاج[15].

لم يستمر هذا التجمع موحدا نتيجة التعنت الذي قابل مطالبه من قبل المستوطنين الأوروبيين فانقسمت الفيدرالية إلى ثلاث فيدراليات ابتداء من عام 1930 في كل من عمالات قسنطينة والجزائر ووهران.

لقد كانت هذه النخبة في شبه غيبوبة بفعل تغريبها الثقافي وانبهارها بالحضارة الفرنسية!! حيث فتشت عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم تجد لها من أثر!! هذه النخبة صدمت بهم الادارة الفرنسية أذنها عن تمنيات

(13) و(14) نفس المصدر، ص 42.
(15) أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 391.

هؤلاء المتجنسين لذا نرى انهم كانوا العصا التي اتكأت عليها جمعية العلماء في نهوضها الأول وكانوا المساندين لها ضد الادارة عندما واجهت الجمعية بالضغوط... ولكنهم عندما تبلوت أهداف الجمعية السياسية تحولوا إلى أعداء لدودين [وذلك حسب رؤية الدكتور أحمد الخطيب].

هـ (الفدرالية الشيوعية الجزائرية) :

أنشئت هذه الفيدرالية عام 1924 م... وفي عام 1926 م أخذت شعارات الفيدرالية تعلن بوضوح نضالها... وقد نشط الحزب الشيوعي الفرنسي منذ بداية الثلاثينات لتجنيد عدد من الجزائريين ومن مسلمي شمال افريقيا.

أما فيدرالية الجزائر فقد استمرت كفرع للحزب الشيوعي الفرنسي وكان أغلب المنتسبين إليها من العمال الأوروبيين وقلة من العمال الجزائريين ولم يظهر الحزب الشيوعي الجزائري كحزب مستقل عن الحزب الشيوعي الفرنسي إلّا بعد مؤتمر «فيللربان» عام 1935 م.

لم يتمكن الحزب من استقطاب الجماهير الجزائرية التي كان يهمها بشكل أساسي عودة شخصيتها الاسلامية الحضارية بعيدا عن الشعارات البراقة المخادعة[16].

إلّا أن الحزب الشيوعي والذي سجل مواقف سيئة كثيرة ضد الشعب وقضيته فساند جمعية العلماء ونسق معها بشأن المؤتمر الاسلامي عام 1936 الذي دعا إليه الإمام ابن بادريس.

(16) أحمد الخطيب، ص 45.

و ــ (نجم شمال إفريقيا)[17].

أدرك الحزب الشيوعي الجزائري الفرنسي أنه لا إمكانية في كسب العمال الجزائريين المتواجدين بفرنسا والعرب في الجزائر بشكل عام إذ أنه من الصعب أن يتحول الحزب الشيوعي في أي بلد من بلاد المسلمين إلى حركة جماهيرية أو الى مركز استقطاب لطاقة الأمة في بلد من بلاد الاسلام.

لذا رغب أن يحتويهم في تنظيم عربي لا شبهة عليه ويحتفظ بهم في ظله... هكذا بدأت ولادة هذا الحزب في مارس سنة 1926 وكان أعضاء في الحزب الشيوعي أمثال الحاج علي عبد القادر وسعيدون وشابيلا من بين الأعضاء المؤسسين؛ وفي يوليو من نفس العام انتخب النجم رئيسا له الحاج علي عبد القادر وكاتبا عام للحزب مصالي الحاج[18]، إلّا أنه عندما قدما معالي الحاج المطالب الجزائرية أمام «الجمعية المناهضة للإضطهاد الاستعماري» اعتبرت خروجا نهائيا عن الخط الشيوعي ذي اللون الباهت.. ولذلك قلب له اليسار ظهر المجن في أوروبا فانتقل إلى الجزائر في العشرينات وبرز في الثلاثينات باسم «حزب الشعب الجزائري» بعد أن خرجت منه الزمرة الشيوعية وعلى رأسهم الحاج علي عبد القادر رئيس نجم شمال افريقيا.. وقبل كوّن هؤلاء الوطنيون الجزائريون مع مصالي الحاج «الإتحاد الوطني لمسلمي شمال افريقيا» وذلك تخلصا نهائيا من الشيوعيين[19].

خرج مصالي الحاج من السجن سنة 1935 فارًّا إلى سويسرا حيث يلتقي هناك بالأمير اشكيب ارسلان الذي أيقظ الحس الاسلامي لديه ودفعه إلى الانفصال عن الوسط الذي ترعرع فيه والدخول إلى الوطن قصد توجيه

(17) يراجع كتاب «حزب الشعب الجزائر» للدكتور أحمد الخطيب.
(18) جمعية العلماء المسلمين، مصدر سابق، ص 46.
(19) العربي الزبيري، «الثورة الجزائرية»، ص 73.

النشاط مباشرة نحو الجماهير الشعبية بمختلف فئاتها لينشىء أخيرا (حزب الشعب الجزائري) الذي عقد مؤتمره تحت شعار (لا إندماج ولا إنفصال ولكن دعوة الى التحرر والتطور).

وكان مصالي الحاج مدركا لخطورة التبعية لما كان يسمى باليسار الفرنسي ويبدو أنّ مصالي اقتنع بأن (عميش) وأنصاره في نجم افريقيا ينفذون مخطط الشيوعيين الفرنسيين الذين كانوا يهدفون باستخدامهم المطالب الجزائرية الضغط على حكومتهم ومساومتها على الانفصال عن المعسكر الغربي لصالح الاتحاد السوفياتي[20].

وانتقل هذا الحزب الى الجزائر سنة 1937 ووجد إنتشارا هاما ويبدو أن السلطات الفرنسية تغاضت عن وجوده ونشاطه في بداية الأمر في محاولة لتجزئة عملية الكفاح المغربي حيث تحول من كونه كفاحا لتحرير شمال افريقيا إلى كفاح لتحرير الجزائر.. لكنها ــ السلطات الفرنسية ــ عندما وجدت أن انتشاره يتعاظم أصدرت يوم 26 يوليو سنة 1939 قرارا بحله وحظر نشاطه إطلاقا.

وهكذا تبين لنا في هذه العجالة التاريخية الوضع السياسي الذي عاشته الجزائر حتى عام 1931 تاريخ إنطلاق حركة جمعية العلماء المسلمين.. ويتوضح لنا الطريق الذي ستسلكه هذه الجمعية في تأدية رسالتها السياسية، طريق محفوف بالمخاطر والمشاق.

فكما أنه كفاح ضد السياسة الفرنسية الاستعمارية فهو معني كذلك بمواجهة تيار التغريب الذي صرفته الموجة الغربية وألقته على الشاطىء مهمشا بلا شخصية.. وإذا أدركنا حجم التحدي الملقي على الجمعية أدركنا كم هي عظيمة هذه الجمعية.

(20) العربي الزبيدي، نفس المصدر، ص 75.

الباب الثاني

الوضع الديني والثقافي

أ ــ الوضع الديني

الجزائر بلد محافظ دينيا لم يتأثر قبل الاحتلال بالتيارات الفلسفية المشككة التي ظهرت في أوروبا كما أنه كان مغلقا أمام الارساليات التبشيرية التي كان لها تأثير ظاهر في المشرق العربي.

لذا شكل الدين الاسلامي الهدف الرئيسي الذي ان تحقق القضاء عليه إما بتحويل المسلمين إلى المسيحية وإذا لم يكن هذا فإلى الانحلال والتمييع.. ان تحقق هذا الهدف فستضمن الهجمة الصليبية استمرارها الاستعماري في الجزائر. وكما جاء في خطاب العرش الذي ألقاه الملك شارل العاشر في 31 يناير سنة 1830 أمام مجلس الشيوخ قوله : «ان التعويض الكبير الذي ستحصل عليه حكومتي ردا لشرف فرنسا سيؤول بحول الله وقوته لأخواننا في الدين المسيحي»[21].

وبالفعل فما أن بدأ الاحتلال الفرنسي حتى اتبع المحتل سياسة واضحة للقضاء على الشخصية الاسلامية للجزائر التي ظهرت في المجالات التالية : القضاء على المساجد أو تقليصها، الاستيلاء على الأوقاف الاسلامية،

(21) أحمد الخطيب، «الثورة الجزائرية»، ص 42.

السيطرة على القضاء الاسلامي، دعم التبشير المسيحي، تشجيع الخرافات والبدع.

1 ــ المساجد :

كانت القوات الفرنسية بمجرد احتلالها المدن تهرع الى مساجدها فتهدم بعضها وتحول الآخر إلى كنائس أو مستودعات عسكرية أو مستشفيات عسكرية... الخ.

ففي العاصمة الجزائرية أغلقت سلطات الاحتلال سنة 1830، 13 مسجدا كبيرا و108 مسجدا صغيرا و32 جامعا و12 زاوية. وفي عام 1862 لم يكن مخصصا للمسلمين لاقامة شعائرهم الدينية سوى 4 مساجد كبيرة و8 مساجد صغيرة وتسع جوامع فقط[22].

وأهم المساجد التي عبثت بها الادارة الفرنسية في العاصمة هي :

ــ مسجد كتشاوة : حول بتاريخ 18 ديسمبر سنة 1832 الى كاتدرائية «سيدة الجزائر» وذلك بعد أن قتل الجنود الفرنسيون حوالي أربعة آلاف جزائري إعتصموا بداخله منعا لتحويله[23].

مسجد السيدة أقيم على أنقاضه فندق «دي لاريجانس».

ــ مسجد علي بتشيني تم تحويله إلى كنيسة «سيدة الانتصار».. وهكذا.

وفي وهران حوّل مسجد «سيدي محمد الهواري» الى مخزن عام للعسكريين.

(22) جمعية العلماء المسلمين، مصدر سابق، ص 49، عن كولت وفرنسيس جونسون، «الجزائر الثائرة».

(23) جمعية العلماء، عن سردار، وزارة الارشاد القومي، (القاهرة 1957)، ص 40 ــ 41.

وفي قسنطينة حوّل مسجد صالح باي إلى كنيسة.

وفي تلمسان حوّل مسجد سيدي أبي الحسن المشاد سنة 1279 م إلى متحف.

وفي مدينة معسكر حوّل مسجد العين البيضاء، الذي أعلن من على منبره الأمير عبد القادر الجهاد الى مخزن حبوب للجند[24].

وكان يرافق تحويل المساجد الى كنائس في أغلب الأحيان خطابات استفزازية عنيفة مثل الخطاب الذي ألقاه سكرتير الحاكم في قسنطينة أثناء الاحتفال بتحويل مسجد صالح باي إلى كنيسة وجاء فيه : «إن آخر أيام الاسلام قد دنت وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا فلا يمكننا أن نشك على أي حال أنها قد ضاعت من الاسلام الى الأبد أما العرب فلن يكونوا مواطنين لفرنسا إلّا اذا أصبحوا مسيحيين جميعا»[25].

2 ــ الأوقاف الاسلامية :

منذ بداية الغزوة الاستعمارية الفرنسية وضعت سلطات الاحتلال يدها على الأوقاف الاسلامية وعلى المساجد المتبقية في الجزائر[26] وبالتالي أمسكت برقاب الأئمة والمفاتي والقضاة وغيرهم من الموظفين الدينيين الذين يتقاضون رواتبهم من عائدات الأوقاف.. «وأصبحت حالة الدين الاسلامي كما وصفها مدير مكتب الشؤون الاسلامية في الولاية العامة وهو فرنسي : «لقد أذللنا الدين الاسلامي» وبلغ الأمر أنه لا يعين إمام أو فقيه إلّا إذا شارك

(24) «كتاب الجزائر»، أحمد المدني، ص 246.
(25) كوليت وفرنسيس جونسون، ص 41، مصدر سابق.
(26) نفس المصدر، ص 172.

في أعمال الجاسوسية الفرنسية ثم عليه لكي يرتقي في الرتبة أن يثبت قدرا كبيرا من الحماس والإخلاص للادارة»[27].

وعندما صدر في فرنسا قانون سنة 1905 القاضي بفصل الدين عن الدولة وجرى تطبيقه في الجزائر بموجب مرسوم 27 سبتمبر 1907 لم يشمل هذا القانون الدين الاسلامي بينما شمل اللفيف الأوروبي واليهود.. واحتفظت السلطة بما تبقى من الأوقاف الاسلامية وأنشأت جمعيات دينية إسلامية شكلية.

3 ــ القضاء الإسلامي :

إن القضاء الاسلامي في الجزائر قبل الاحتلال هو امتداد للقضاء الاسلامي العريق المشهور بالنزاهة والكرامة المبني على الدراية والعدل.. وهو بمثابة ضمانة لاستمرار تماسك المجتمع المسلم ونشر العدل والحق فيه وهو بذلك ضمانة تواصله ومناعته.

لذا أصدر المحتلون الفرنسيون قرارا في سنة 1834 يقضي باستئناف الأحكام التي يصدرها القاضي المسلم أمام مجلس الاستئناف الفرنسي وفي فبراير سنة 1841 صدر قانون بنزع سلطة القاضي في أحكام الجنايات والجنح وجعلها من إختصاص محكمة الاستئناف الفرنسية.. وفي 13 ديسمبر سنة 1866 صدر مرسوم حطم القضاء الاسلامي بفرضه على المسلمين التقاضي لدي قضاة الصلح الفرنسيين وأصبحت مهمة القضاة المسلمين تنفيذ أحكام قضاة الصلح ليس أكثر.. وفي عهد الجمهورية الثالثة صدر قانون 26 يوليو 1873 نزع من القضاة المسلمين حق النظر في الملكية والاستحقاق وبتاريخ 28 أوت (آب) 1874 صدر أمر بالغاء

(27) نفس المصدر، ص 172.

المحاكم الاسلامية في منطقة القبائل[28].. وأخيرا صدر مرسوم 25 مايو 1892 حصر من القاضي المسلّم بالنظر في دعاوي الزواج والطلاق والمواريث.

ولم تتغير هذه الحالة طوال عهد الاستعمار بل تواصلت الممارسات الفرنسية في نفس هذا الاتجاه الذي حدده الأميرال (دي جيدون L'amiral de Gueydon) بقوله : «يجب أن يزول القاضي المسلم أمام القاضي الفرنسي.. إننا نحن الغالبون»[29].

4 ــ التبشير :

لقد أدرك الصليبيون الجدد الدرس التاريخي الذي لحق بهم شره سابقا فجندوا قواهم التبشيرية جنبا إلى جنب مع عسكرهم الجدد؛ في محاولة لإلغاء إسلام الأمة لتحقق الضمانة الوحيدة بإنهاء المقاومة ضد وجودهم الاستعماري... هذا ما عبر عنه الجنرال بيجو عندما سلم الأب بريمو أطفالا جزائريين وقال : «حاول يا أبي أن تجعلهم مسيحيين، وإذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار»[30].

وقد كانت المجاعة الكبرى عام 1867 التي قضت على نصف مليون مسلم فرصة ذهبية لهؤلاء المبشرين فقد أسس الكاردينال لافيجري «كاردينال الجزائر» جماعة «الآباء البيض»[31] وجعل بلدة الحراش القريبة من العاصمة مركزا رسميا لها وأقيمت دُور للأيتام الجزائريين برعاية المبشرين

(28) جمعية العلماء المسلمين، مصدر سابق ص 54، عن أجيرون، ص 62.
(29) أحمد الخطيب، جمعية العلماء، ص 55، عن أجيرون، ص 61.
(30) أحمد الخطيب، «الثورة الجزائرية»، ص 118 ــ 119.
(31) من أنشط البعثات التبشرية في الجزائر وكان الهدف من تأسيسها منافسة البعثات البروتستانتية التي تدفقت على الجزائر من أوروبا، يرجع إلى عبد الحميد زوز «نصوص ووثائق»، ص 234.

في كل من حي بن عكنون وبوزريعة على أطراف العاصمة.. وكان شعار هذه الدور هو تصريح لافيجري «علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية مهدا لدولة مسيحية تضاء أرجاؤها بنور مدينة منبع وحيها الإنجيل.. تلك هي رسالتنا الإلهية»[32].

5 ــ الطرق الصوفية :

على الثغور والممرات الاستراتيجية المؤدية الى أرض الاسلام أقام العلماء والقادة رباطات جهادية في بلاد المغرب العربي.. وعرفت هذه الرباطات فيما بعد بالزوايا وسميت كل زاوية بإسم مؤسسها الأول أو بإسم المنطقة المتواجدة فيها.

وكانت الزوايا مركز تعليم ووعظ كما كانت مركز تحشد عسكري لأبناء المناطق المجاورة وهذه مهمتها الرئيسية وقد كان للزوايا دورا مهما في محاربة الغزاة البرتغاليين والأسبان الذين كانوا يهاجمون ثغور المغرب العربي كما قامت بدور كبير في نشر الاسلام في أواسط افريقيا.

كما أن لكثير منها دور شريف في مواجهة الحملة الفرنسية.. بل يكاد يكون جهاد القرن التاسع عشر حكرا على الزوايا وأتباعها.

وأهم الطرق الصوفية في الجزائر هي :

الرحمانية : ومركزها في قسنطينة وعنابة أسسها محمد بن عبد الرحمن الجرجري من قبيلة آيت اسماعيل القبائلية شاركت هذه الطريقة بشكل رئيس في ثورة المقراني سنة 1871 فتعرضت لانتقام شديد بعد فشل الثورة وقد احتواها الاستعمار بعد تحطم الثورة وإستسلام بعض شيوخها.

(32) أحمد الخطيب «الثورة الجزائرية»، ص 120.

التيجانية : وتواجدها يأتي بعد الرحمانية في عمالتي قسنطينة والجزائر.. أسسها في مدينة فاس في المغرب أحمد التيجاني[33] امتدت الى السودان وقلب إفريقيا.. لم تقف مع الأمير عبد القادر..

القادرية : تنسب إلى الشيخ محي الدين الجيلاني المولود في مدينة جيلان (حزيران) سنة 1079.. وانتقلت الى افريقيا وأسس الشيخ مختار الكبير زاويتها الكبرى في «مزارات» ثم انقسمت الطريقة بعد وفاته وقد قامت هذه الطريقة على الفقه والعلم والدعوة الدينية.. وقد حملت السلاح منذ الساعات الاولى للاحتلال.. ومن أهم رموزها الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر ويأتي تواجدها في الدرجة الثانية بعد الطريقة الطيبة في عمالة وهران ولها تواجد في بقية العمالات.

الطيبة : أسسها مولاي عبد الله بن ابراهيم من أشراف المغرب بمدينة (وزان) وكانت خاضعة لسلاطين المغرب لذا فقد كانت قبيلتا الدوائر والزمالة اللتان تركزت فيهما الطريقة متعاونيتن ضد الأمير عبد القادر.. وكان تواجدها الرئيسي في عمالة وهران المجاورة للمغرب.

الحنظلية : تعتبر فرعا منشقا من الشاذلية تتواجد في قسنطينة.

الدرقاوية : اشتهرت هذه الطريقة بالشدة، تمردت على الأتراك قبل الاحتلال الفرنسي ثم شاركت في الحرب ضد الفرنسيين تواجدها موزع على العمالات الثلاث.

الشاذلية : مؤسسها أبو الحسن الشاذلي التونسي المتوفي سنة 1258 في مصر ومن أبرز دعاتها العربي الدرقاوي وقد جاهدت ضد الفرنسيين ولهذه الطريقة فروع في بلدان المشرق الاسلامي.

---

(33) أصله من الأغواط.

الزيانية : تضم حوالي 3000 مريد.

الزرواقية : يقدر عدد أتباعها بحوالي 3700 مريد.

العيسوية : أسسها محمد بن عيسى الادريسي في مكناس بالمغرب يقدر عدد مريديها بحوالي 3500 رجل أما تواجدها فيكاد يكون محصورا في جنوب وهران تحولت في عهد الاستعمار من طريقة صوفية الى جماعة شعوذة.

العمارية : يبلغ عدد مريدها حوالي 6000.

السنوسية : أسسها الشيخ أحمد حليوة بمدينة مستغانم ويعتبر العليويون أن أساس طريقتهم الشاذلية، لها فروع في المغرب العربي والمشرق العربي خاصة في مصر وسوريا كما أن لها فروعا في أوروبا.

بعد زوال مؤسسي الزوايا الأولين تحولت الى طرق صوفية أصبحت لحلقات الذكر «الحضرة» قدسية تكاد توازي قدسية الصلاة وأدعى مشايخها أن لهم من الكشف والسلطة ما يجعلهم في مرتبة الأنبياء مبتزين بذلك مريديهم وأتباعهم وأدرك المستعمر هذا فاستمالهم بعد أن قهرهم عسكريا وأخذ يغدق عليهم الأموال ليقيموا (الولائم) وأصبح اعلام المستعمر يروج لهؤلاء (الموصولين بالله) وانتشرت بين صفوف الشعب أفكار الشرك بالله والاستلاب والشعوذة.. وأصبحت الطريقة لها مريدها في كل بيت.. وكان هؤلاء المشايخ الأداة الاستعمارية في محاربة جمعية العلماء ودعوتها الاصلاحية تقف من ورائهم الادارة الفرنسية ومكاتبها[34].

---

(34) جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 56 ــ 61.

ب ــ الوضع الثقافي

لقد عمل الاستعمار الفرنسي للجزائر على تفكيك الأبنية الثقافية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العسرين.. لقد دمرت المدائن أساسا أو أفرغت من محتواها وقد قاد قمع الانتفاضات الريفية الى إنهاء معظم الكوارد الاجتماعية ــ الثقافية.. وسادت الأميَّة في كل مكان.. وترعرت براعم من الثقافة الفرنسية.. وأصبح واضحا أن فلكا ثقافيا جديدا يأخذ مكان الفلك الثقافي الذاتي.. شيئا فشيئا إنطلاقا من الوضع الاستعماري الراهن ومن أشكال المقاومة.

على صعيد أهل الفكر الانتلجنسياني بني هذا الفلك الثقافي الجديد انطلاقا من أشكال مستعادة من العدو محاكية نموذجه.. لتقود هذه النخبة سياقها على الصعيد الثقافي إلى ميدان آخر هو الميدان السياسي.. وعلى الصعيد الشعبي انسحبت الثقافة خطوات للوراء تدافع عن كرامتها!!

ولمعرفة كيفية حصول هذه النهاية من الأجدر أن نتابع العملية الاستعمارية في تحطيم الفلك الثقافي الذاتي وبناء فلك ثقافي آخر يخدم الحالة الاستعمارية..

محاربة التعليم الاسلامي :

كانت الجزائر قبل الاحتلال تعج بالمساجد التعليمية والمدارس والزوايا التي كان الطلاب يتلقون فيها التعليم وكانت نسبة تعليم الأولاد سنة 1830 تبلغ وفقا لاحصاءات بعض المسؤولين الفرنسيين 20% من مجموع الأولاد الجزائريين وهي نسبة عالية إذا ما قورنت بالمجتمعات (المتقدمة) يومذاك[35]

(35) جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 62، عن طريق كلود بونتيم، مصدر سابق، ص 80.

ولقد كان في العاصمة وحدها 12 مدرسة ثانوية وكان عدد الزوايا التعليمية 349 زاوية أما الانفاق على التعليم الاسلامي فكان أساسا من دخل الأوقاف (الحبوس).

ومع الاحتلال الفرنسي انحسر التعليم من المدن والمناطق البعيدة عن مراكز الاحتلال وانحسرت بذلك المادة الثقافية التي كان يتلقاها الأولاد في مدارسهم [الأصول والبيان والمنطق ومصطلح الحديث والفقه والحديث والسيرة والتصوف. والحساب.. وعلم الوقت][36].

وإنحسر عدد المدرسين بفعل الحرب والإرهاب والهجرة الى الخارج.. ومع ذلك فإن الادارة أصدرت بتاريخ 18 أكتوبر 1892 مرسوما يقضي بعدم فتح مدارس عربية إلّا برخصة من الحكومة وكان هذا المرسوم غطاء لاغلاق ما تبقى من مدارس. حيث كانت الرخصة تشترط أن يكون طالبها «مخلص لفرنسا» وينتمي لطريقة مخلصة لفرنسا وبعد ذلك يشترط أن لا يزيد عدد التلاميذ عن ثمانية وهناك رخص تفرض عدم قبول أكثر من تلميذين في المدرسة[37].. وأن تجرى الدروس خارج أوقات التعليم في المدارس العامة (الفرنسية).

61

وفتح أمام التلاميذ باب واحد هو باب المدارس الفرنسية حيث كان التلاميذ العرب يضطرون الى إنشاد نشيد «المارسيلاز» ويلقنون في حصص التاريخ : «فكانت بلادنا تسمى قديما غاليا La Gaule وأجدادنا يسمون Les Gaulois».

ويتحدث ابن باديس عن هذه الفترة من الحياة الثقافية حيث شاهد : «هذا القطر قريبا من الفناء ليست له مدارس تعلمه وليس له رجال يدافعون

(36) «كتاب الجزائر»، مرجع سابق، ص 93.

عنه ويموتون عليه، بل كان في اضطراب دائم مستمر.. كان أبناؤنا يومئذ لا يذهبون إلّا إلى المدارس الأجنبية التي لا تعطيهم غالبا من العلم إلّا ذلك الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف حتى اذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم وقد ينكرونها»[38].. ومن المعلوم أن المسلمين في الجزائر لم يقبلوا بواقع المدارس الفرنسية ورفضوه بشكل عام.. وكان من الصعب الانتقال إلى بلاد المشرق العربي.. وكثيرا ما كان يخفق التلاميذ في التسلل والهروب حيث كانت الرخصة لطلب العلم مرفوضة... وقانون «الأهالي» يكبلهم.

ولقد كان الحال في بداية القرن العشرين كما وصفه محمد فريد الذي زار الجزائر سنة 1901 : «وكانت تدرس معالم اللغة العربية الفصحى، وتطرقت الى اللغة العربية العامية الكلمات الأجنبية بل أصبحت اللغة الفرنساوية هي لغة التخاطب في العواصم مثل وهران وقسنطينة وعنابة وغيرها»[39].. حيث لم يكف الرفض الثقافي في مواجهة التحدي الثقافي الغربي.

وحتى المدارس الفرنسية لم تكن بابا مفتوحا باستمرار أمام التلاميذ المسلمين حيث أن «الكولون» كانوا يرفضون باستمرار حالة التدفق من قبل الطلاب المسلمين على المدارس حيث فرضت الادارة فيما بعد الضرائب والرسوم الباهضة التي كانت فوق طاقة عموم أبناء المسلمين الفقراء.. وعندما حاول الواليين العامين اللذين حكما الجزائر في فترات متقاربة جونار سنة 1919 وفيولين سنة 1927 أن يدفعا عجلة تعليم الجزائريين في المدارس الفرنسية الى الامام [بالطبع نحو مزيد من التغريب] إلّا أنهما

(37) جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 63.
(38) جريدة البصائر، يونيو سنة 1931.
(39) أنو الجندي «الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا)، ص 133.

اصطدما بتعنت كولونيالي شرس ومعارضة أدت إلى ابعادهما عن الحكم.. حيث كان يرى (الكولون) «أن تعليم السكان الأصليين خطرا حقيقيا يهدد المستوطنين من الناحية الاقتصادية ومن ناحية توطين الفرنسيين في الجزائر فإنهم لذلك يطالبون بالغاء التعليم الابتدائي للسكان المسلمين»[40].

فكان نتيجة هذا الضغط الكولونيالي والارادة الاستعمارية الفرنسية أن 6% فقط ممن بلغوا سن الدراسة وجدوا باب الدراسة الابتدائية مفتوحا أمامهم سنة 1922.. وكان الباب موصدا أمام المرأة الجزائرية.. والتعليم الثانوي أكثر بؤسا حيث لم تسجل سنة 1914 سوى 34 حالة تخرج من كلية الجزائر بشهادة بكالوريا و12 مجازا في علوم مختلفة مع العلم بأن عدد السكان حسب الاحصاءات الرسمية كان يبلغ حوالي خمسة ملايين نسمة[41].

الصحافة :

تمثل نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حقبة بالغة الأهمية تتميز بأزمة عميقة في الفلك الثقافي الجزائري فإنهيار الاطار التربوي والديني جزئيا وإقامة جهاز تربوي استعماري.. هذه الأزمة تقود إلى سياق مثلث يقوم على تجهيل جماعي وتحوّل جزئي محافظ وبروز حس لعناصر فلك ثقافي جديد.. لقد كانت السنوات الأولى من القرن العشرين شاهدة تأرجح المجتمع الجزائري بعد أن نخره التطور الاستعماري، مجتمع يحكمه قانون التبعية الأهلية.. مجتمع مفكك البنى عاجز عن المقاومة الفعالة لهيمنة سلطة الدولة الاستعمارية. لقد برز من الكفاح الاسلامي المجيد.. أدبرزمن

(40) جمعية العلماء، مصدر سابق ص 41، من كوليت وفرنسيس جونسون، ص 129.
(41) جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 51.

النضالات السياسية والنقابية فلم يحن بعد.. إلّا أنها سنبي ميلاد نهضته التاريخية.. ومحاولته الفذة لإعادة صياغة شخصيته حضاريا رغم النكبات.

وتظهر العناصر الأولى من إنتلجنسيا جديدة ترتب جزئيا على الأقل في الجهاز الثقافي الاستعماري يتنازعها الغرب الذي يفرض نفسه ماديا والفكر الاسلامي الذي لا زال المحرك الوحيد للناس وترياق خارق في مواجهة المحتل على حد سواء.. لذا فهي انتلجنسيا هشة : نخبة صغيرة من الأطباء والمحامين دون قاعدة إجتماعية مهمة لذا توشك أن تنقطع عن المجتمع الجزائري وتندمج بشكل فردي في المجتمع الاستعماري. إنتلجنسيا عطوبة[42] تتكون شيئا فشيئا انطلاقا من حالة التفكيك لبنى الأجهزة الثقافية الذاتية في المجتمع الجزائري ومن إحلال جهاز ثقافي إستعماري. حاولت هذه المجموعات النخبوية استبدال المقاومة الجريئة في رفضها القبول بالأمر الواقع بنمط جديد من المواقف والتصرفات (يجب إستخدام أسلحة المحتل ومحاولة توجيهها إليه ومنحه ضمانات في الوقت ذاته).. سلوك موازي يقضي بالتخلي عن ساحة المجابهة المباشرة للاستعمار ونقل الصراع الى الجبهة المطاطة[43] حيث إستبطان القيم الاستعمارية ثم نقلها ونشرها لاقامة مجتمع مدني غربي!!!

فكانت الصحافة أوّل السُبل التي سلكها أصحاب هذا الاتجاه.. للتعبير عن آرائهم الفكرية والاجتماعية والسياسية.. وبدأت هذه الصحافة في الجزائر بالمصباح والحق.. وجريدة (الجزائر) التي أسسها الفنان عمر اسم.. وجريدة (الفاروق) الاصلاحية.. ولقد شهدت الجزائر تدفقا صحفيا وطنيا عبر عن كل المواقف المختلفة للأحزاب والتشكيلات السياسية برغم أن عددها

(42) عبد القادر جغلول، «الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر»، ص 61.
(43) نفس المصدر، ص 62.

ضئيل بالنسبة لما كان يصدر من قبل (الكولون) والادارة الفرنسية لكن مما لا شك فيه أن نشاطا صحفيا ميز هذه الفترة من الزمن في محاولة لايجاد منابر إعلامية تجمع أنصار حولها وتوصل مطالبها للادارة الاستعمارية.. وكانت هذه الصحافة تجد تجاوبا هاما لدى شعب يتلمس سبل التعبيرعن ذاته.

إنفتح باب الصحافة ــ فذا دقيقا ومنظما.. ورغم تعدد مشارب الصحافة العلمانية والطرقية والحكومية يومذاك نرى أن صحافة الحركة الاسلامية استطاعت أن تصل الى حالة التمثيل للرأي الشعبي. ولقد كان الفن الصحافي ومستوى الكتابة (متخلفا بوجه عام في جميع الصحف الجزائرية ومليئا بالأخطاء في اللغة والأسلوب ولم تسلم من ذلك إلّا صحافة جمعية العلماء»[44]. ولم تحتمل الصحافة الكولونيالية هذا الوضع فشنت حربها الاعلامية والتحريضية ضد الصحافة الوطنية..

الآداب والفنون :

يرجع د. عبد القادر جغلول بداية الأدب الجزائري الحديث إلى نهايات القرن التاسع عشر بعكس التفكير السائد عن كون مولود فرعون أو طاوس عمروش هم البادئين بهذا العمل.. حيث ترجع الأقصوصة الأولى «إنتقام الشيخ» إلى سنة 1891 والقصة الأدبية الأولى نشرت في السنة نفسها ومن المرجح أن الرواية الأولى بالمعنى الدقيق للكلمة تعود إلى سنة 1912 حيث الحلقات المنشورة في صحيفة الحق لرواية أحمد بوري : «مسلمون ومسيحيات».

مع سنة 1930 يحتفل الاستعمار بالذكرى المئوية حيث رسخ سيطرته على مجمل الأرض الجزائرية واختفى النظام الثقافي لما قبل الاستعمار ومعه

(44) د. عواطف عبد الرحمن، «الصحافة العربية في الجزائر»، ص 23

اختفت أشكال المقاومة العنيفة والصريحة.. واقع من السيطرة الاستعمارية متعددة الأشكال ينتج عنه مقولات إيديولوجية تبرر شرعيته فوجد ما يعرف بالأدب الاستعماري قداة الأدباء الاستعماريون [لوي برتاران ولوي لوكول..] اندمجت فيه أقلام الانتلجنسيا الجزائرية حاج حمو سنة 1925 حيث مجموعة أقاصيصه وساهم ولد الشيخ في مختارات شعرية نشرت بمناسبة الاحتفال بالذكرة المائة كان هذا الأدب الجزائري الناطق بالفرنسية مناهض للاحساس الاستقلالي.. إنها نواة من الكتاب أنشأتهم المدرسة الفرنسية والذين ينشرون في مجلاتها ودور نشرها فلا يمكنهم ذاتيا أو موضويا إلّا الدفاع عن القضية الفرنسية هذا يظهر من جهة وهو صحيح ومن جهة أخرى فهم يحاولون إظهار وتأكيد الهوية الجزائرية وذلك خفية[45]. في الأعمال الفنية والأدبية المتنوعة.

مع بدايات القرن العشرين وفي عشريناته برز بشكل متزامن قطبان ثقافيان قطب ناطق بالفرنسية يحاول التعبير بلغة الغرب وذوقه ومنهجه عن مسائل ومطالب الشعب الجزائري. فانتشرت الصحافة باللغة الفرنسية فيما أخذ الأدب الناطق بالفرنسية ينتج أعماله الهامة يحمو وشكري جوجة.. وقطب آخر ناطق بالعربية منحدر من الجامعات الاسلامية (الزيتونة) و(الأزهر) يحاول تحطيم الغلاف التقليدي والنبخوي بلغة عربية متجمدة للوصول الى التعبير عن حاجات مجتمع متغير.. محاولا التعبير بلغته وذوقه ومنهجه عن مطالب الشعب الجزائري.. فانطلقت الصحافة العربية وعادت الأعمال التاريخية إلى الظهور مع مبارك الميلي وكتابه «تاريخ الجزائر القديم والحديث» ومع توفيق المدني وكتابه «كتاب الجزائر» وانطلقت نهضة الأدب مع مجموعة من الأدباء الشبان : أبو اليقظان والطيب العقبي وسعيد

(45) عبد القادر جغلول، مصدر سابق ص 24.

زهيري ورمضان صمود وإبراهيم بن نوح[46]. ومن بين هؤلاء كان محمد العيد الأكثر هيبة الصحافي والمدرس المكافح وحسب رأي عبد القادر جغلول أنه صانع إرادة نهضوية ثقافية أمينة لكبار روّاد الأدب الغربي لا بتكرارهم بل بالاستناد إليهم بغية إبداع أشكال ومضامين جديدة قادرة على التعبير عن حلق الحاضر وآماله.. وتشكل بجنب هذا أعمالا مسرحية لعلالو سنة 1926 ولكنها هشة المستوى.. وانسحب الوعي الشعبي الى الحكايات والشعر الملحون الفلكلوري عن تمجيد الماضي..

(46) نفس المصدر، ص 82.

الباب الثالث

الوضع الاجتماعي

في السياق الطويل من مقاومة الشعب الجزائري للاحتلال يشكل الربع الأول من القرن العشرين حقبة بالغة الأهمية اكتمل فيها تركيز جهاز الهيمنة الاستعمارية المتعددة الأشكال والأساليب والذي يقابله تفكيك بنى التنظيم الاجتماعي الجزائري حيث كان العمل دؤوبا على اغتصاب وفرنسة الأراضي حيث كان الهدف من ذلك القضاء على التنظيم القبلي من أسسه وتعميم المؤسسات السياسية ــ القمعية الاستعمارية التي تحوّل استقلالية الشعوب إلى حالة من التبعية المحكمة.. حيث اخضاع الجهاز الثقافي والديني القديم المبني على الجمعيات الدينية.

والاستعمار لا يقوم فقط بتفكيك أبنية المجتمع وتفتيه بل هو أيضا يعمل على إعادة بناء وخلق جزئي وجنيني لقوى اجتماعية جديدة.. حيث أن المجتمع ــ ما قبل الاستعمار ــ والذي فكك الاستعمار بنان تفكيكا عميقا لم يعد قادرا على مشروع سياسي هجومي متناسق يحبط محاولة الاستعمار التخريبية..

سلب الاستعمار الأرض من الجزائريين وساد الاستعباد الجميع بلا استثناء وانهارت القيادات السياسية والدينية المنتمية الى تلك الطبقة من القيادات

التي قاومت الفرنسيين الغزاة.. وبإنهيارها افتقد الشعب قياداته التقليدية فضاع وارتمى في أحضان البؤس والفقر(47).

وقضى الاستعمار على الحرف اليدوية والصناعات الخفيفة أمام هجمة المصنوعات الفرنسية واختفت التجارة الوطنية تحت وطأة الضغط الاستعماري الكولونيالي.

63

إن عملية اغتصاب الأرض المدبرة مكنت صعاليك أوروبا من الاستحواذ على ثلاثة ملايين هكتار من أخصب أراضي العالم والتي سوف تجعل منها السياسة الاستعمارية مساحات عادية موجهة لخدمة الاقتصادي في (الوطن الأم).. لقد كان الفائض من إنتاج الجزائر من الحبوب يصدَّر إلى جنوب فرنسا وإيطاليا لإنقاذ الأهالي هناك من المجاعة القاتلة... إلّا أن مرور قرن من الغزو الفرنسي جاء ليطالعنا.. بحقائق مرة مفادها أن الجزائر مضطرة لاستيراد المواد الغذائية الضرورية لحاجات سكانها.

ان لقطاء أوروبا من الرعاع والصعاليك كانوا يجهلون الاعتناء بالفلاحة ولم يهدفوا لغير الاثراء بأية طريقة. ولأجل ذلك ركزوا مجهوداته لتسخير الأرض بدون حساب كما أنهم لم يستصلحوا الأرض البور.. وبالاضافة الى هذا الاهمال فان المعمرين وجهوا ضربة قاسية ما زالت بصماتها واضحة المعالم على فلاحتنا في الجزائر.. حيث خصص المعمرون نصف مليون هكتار من أحسن الأراضي لغراسة الكروم المنتجة لعنب الخمور مع العلم بأن الجزائريين مسلمون ولا يستهلكون المشروبات الكحولية(47).

وذلك كله على حساب زراعة الارز والقمح وأنواع الحبوب في «المعسكر» و«الجزائر»(48) استمر العمل الاستعماري على جعل الجزائر

---

(47) «المجتمع والتاريخ»، الأستاذ مرتضى مطهري، ص 142.
(48) العربي الزبيدي، «الثورة الجزائرية في عامها الأول»، ص 40.

أحادية الانتاج.. تنتج ما يجد سوقا له في المستعمرات الفرنسية الأخرى أو ما يسد به حاجة (الوطن الأم) وحليفاتها الأوروبيات.

وهنا نجد أن المجموعات النظرية المبنية على افتراضات هشة والمنطلقة من التعميمات الماركسية تصطدم بواقع الاستعمار وما آلت اليه أحوال المستعمرات.

حسب التفسير الماركسي فلقد كان من المفترض أن يعمل الاستعمار على تطور البلاد المستعمرة وبناء على هذا التفسير رحب ماركس وأنجلز بالاستعمار الفرنسي (المتحضر) للجزائر المتخلفة).. وكان حسب تسمية ماركس يمكن للاستعمار أن يشكل المرحلة التاريخية «التراكم الأولي لرأس المال» والتي عرفتها أوروبا بدءا من القرنين الخامس عشر والسادس عشر حيث أن إخلال السياق المجتمعي الفلاحي والتشكيلات الاجتماعية التابعة له يعتبر هو المنشيء للتطور الصناعي والتراكم الرأسمالي المركز ــ ذاتيا.. أجل لقد فكّكت الرأسمالية المجتمعات الأوروبية القديمة الزراعية، لكن الطاقات التي تحررت بفعل هذا التفكيك جرى التقاطها بواسطة الصناعة الناشئة وأعيد تنظيمها بواسطة علاقة إجتماعية جديدة. وما كان لها أن تستمر بلا توسع خارجي على حساب الآخرين.

لقد قام المستعمر بتفكيك التشكيلة الاجتماعية في الجزائر وألغي عرف القبيلة والجب ونزع الملكيات العقارية وحوّل الفلاحين الى عمال بالأجر والسخرة في حقول الكولون فهل أدّى ذلك إلى تقدم؟! السؤال يوجه للماركسية مرة أخرى!!؟

طبعا لم يتحول إلى العمل إلّا القليل من الفلاحين الجزائريين وبصورة مرزية.. وقد تركزت السياسة الاقتصادية للكولون أساسا على الصناعة

الاستخراجية وعلى زراعة المغاربة التي تخصص كل إنتاجها للتصدير.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى اقتحم الكولون ساحة التملك من خلال شراء أراضي الفلاحين المفلسين وتحول عدد كبير من صغار الملاكين إلى «خماسة» على أرضيهم وذلك بعد أن خضعوا لدوامة الربا.. من المؤكد أن القليل القليل من الفلاحين الجزائريين المفلسين باعوا للكولون وهم على كل حال من كانت تربطهم بالمستعمر روابط.. أما معظم تملك الكولون فقد كان عن طريق العنف والبطش والنهب.

وسنرى كيف أن الزراعة متجهة الى الخارج أو بالاحرى منخرطة في السوق الفرنسية من خلال الجدولين التالية والمأخوذين عن 1930 Demonstas . paris (l'Algérie Agricole)

الجدول الأول يعبر عن صادرات الجزائر.

نبيذ وخمور	40 %	من مجموع الصادرات الزراعية
حبوب	15 %	» » »
منتجات الماشية	15 %	» » »
تبغ، قطن، روح العطر	8 %	» » »
خضار طازجة وفاكهة	6 %	» » »
منتجات الغابات	5 %	» » »
زيت زيتون	3 %	» » »
خضار مجففة	3 %	» » »
المجموع	100 %	» » »

ويعبر هذا الجدول عن الحالة الزراعية في الجزائر اذ ضربت أنواع من الزراعات لصالح زراعة الكروم التي أصبح منتوجها يمثل نسبة 40% من صادرات الجزائر.

الجدول الثاني حول نسبة المنتوجات الجزائرية في مجموع الواردات الفرنسية سنة 1928

منتجات	مجموع واردات فرنسا سنة 1928	الواردات من الجزائر	النسبة المئوية
حبوب	2.563.664	467.705	%15،9
تبغ	192.854	9.840	%31
بطاطا	220.257	148.093	%19،8
فاكهة	929.278	122.257	%12،3
خضار	139.137	545.546	%39،5
خمور	368.858	35.077	% 9،5
نبيذ	258.099	1.404.186	%63

يشير هذان الجدولان الى أن الزراعة الموجهة نحو الخارج غير منخرطة في السوق الداخلية وشديدة التبعية للسوق الفرنسية[49].. بل لصالح فرنسا تماما.

(49) «الاستعمار الفرنسي في الجزائر»، د. عبد الهواري، ص 159.

وحال الصناعة ليس بافضل من الزراعة.. فلقد تركزت الجهود الاستعمارية على جهة النشاطات في استخراج المواد المنجمية والتي يجري نقلها نحو المرافىء القريبة من مراكز استغلالها ومن جهة أخرى بالنشاطات الآيلة الى الصناعات التي تجد سوقها لدى السكان المسلمين لا سيما ما يتعلق بالمأكل والمسكن.

الحديث يطول لو تطرقنا الى حيثيات ووقائع التخريب الاستعماري للاقتصاد المحلي في الجزائر.. يكفي أن نعلم أن بلدا هي الجزائر كانت تمد الغرب والشرق بالحبوب والمواد الغذائية وتصنع ما تحتاجه من سفن وأسلحة عادت الى مجموعات بشرية ترهن كل شيء مقابل لقمة الخبز الموجودة في مخازن الغرب.

وبعد أن فتكت الثقافة الفرنسية بالنخبة وعزلت الأمة عن تواصلها التاريخي الثقافي فإذا بإدمان السكر يفتك بقطاعات كبيرة من الناس.. وفي داخل النخبة يمارس الغرب إغراءه ويأخذ التجنس والزواج بالفرنسيات أهمية.. وأصبح البعض يحلم بإندماج فردي في المجتمع الفرنسي[50]. ويدعو لذلك... وبدا أن المجتمع بعد أن تفككت شبكته التقليدية وهجمت عليه أنماط التغريب المسلح والعنيف.. بدا أن المجتمع استسلمت نخبته المثقفة وأصبحت وفق (الفيروس) الاستعماري توجه كل نشاطاتها بوعي منها أو بلا وعي لتسيير الأمور لصالح العجلة الاستعمارية..

في هذا الظرف التاريخي المفصلي.. احتفلت فرنسا بذكرى استعمارها للجزائر المائع مدشنة إنتهاء (مرحلة الاسلام) في الجزائر!! وهنا تولد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ردا تاريخيا حضاريا بمستوى التحدي.

(50) «الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر»، عبد القادر جغلول، ص 72.

نهوض الذات الحضارية

الباب الأول

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والإمام إبن باديس

الإمام إبن باديس (مولده ونشأته) :

ولد عبد الحميد بن باديس الصنهاجي في 4 ديسمبر سنة 1889 : والده السيد مصطفى بن مكي بن باديس من حملة القرآن وهو نسب شريف وعائلة (ابن باديس) عائلة مشهورة في المغرب العربي من أعيان مدينة قسنطينة وأمه هي السيدة (زهيرة بنت علي بن جلول) من أسرة عبد الجليل المشهورة في قسنطينة بالعلم والجاه والثراء العريض[1].

بعد أن حفظ عبد الحميد القرآن الكريم في الثالثة عشر من عمره إختار له والده أحد علماء قسنطينة المشهورين بالعلم والتقوى والصلاح الشيخ (حمدان لونيسي) وهو عالم صوفي مشهور.. وظل تأثير هذا الشيخ على شخصية (ابن باديس) طول حياته وكان يذكره بإجلال كبير طوال عمره.. وقد أوصاه هذا الشيخ : «إقرأ العلم للعلم لا للوظيف ولا للرغيف»[2]..

---

(1) د. تركي رابح «الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الاصلاح والتربية في الجزائر»، ص 160.
(2) نفس المصدر، ص 264.

واستطاع هذا الشيخ أن ينفذ الى أعماق تلميذه ليطبع حياته العلمية والعملية بطابع روحي وأخلاقي لم يفارقه طول حياته.. ثم رحل الى تونس عام 1908 للدراسة في جامع الزيتونة وتخرج منه عام 1912 وتولى التدريس بجامع الزيتونة عاما واحدا.. وأثناء وجوده في الزيتونة التقى بأكابر العلماء الذين أثروا فيه بعمق من أمثال الشيخ محمد بن الطاهر عاشور حيث لازمة مدة ثلاث سنوات والشيخ محمد بن الطاهر هذا أحد رموز مدرسة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.. وتأثر بعمق بالشيخ محمد النخلي القيرواني في فهم القرآن الكريم وتفسيره.. والشيخ النخلي كما يصفه ابن باديس أنه هو العلامة الذي يشار اليه بالرسوخ في العلم والتحقيق في النظر والسمو والاتساع في التفكير، وهو من رموز مدرسة الأفغاني.. كما كان كذلك لأساتذة التاريخ والأدب دور هام في تكوين الأفق الثقافي لابن باديس إلّا أن إبن باديس يرى أن للنخلي وأحمد بن لونيسي الأثر العظيم في تربيتة «وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العلمية وهما من مشائخي اللذين تجاوزا بي حد التعليم المعهود من أمثالهما لأمثالي الى التربية والتثقيف والأخذ باليد الى الغايات المثلى في الحياة أحد الرجلين الشيخ حمدان لونيسي «القسنطيني نزيل المدينة المنورة ودفينها» وثانيهما الشيخ محمد النخلي «المدرس بجامع الزيتونة المعمور» رحمهما الله.. وإني لأذكر للأول وصية أوصاني بها وعهدا عهد به إليَّ وأذكر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجدني مدينا لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر. فقد أوصاني وشدَّد علي ألا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت ولا أتخذ علمي مطية لها كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت.. وأذكر للثاني كلمة لا يقل أثرها في ناحيتي العلمية عن أثر تلك الوصية في ناحيتي العملية، وذلك أنني كنت متبرما بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله ضيّق الصدر من إختلافهم فيما لا اختلاف فيه من

القرآن. وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله فذكرت يوما للشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق فقال : «إجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة، يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح» فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة على ذهني آفاقا واسعة لا عهد له بها»[3] .

كما كان للشيخ الاستاذ طاهر الجزائري دور أساسي في توجيه ابن باديس تلك الوجهة الفكرية التي نهجها وكان ابن باديس عندما يذكره يقول عنه «شيخي طاهر الجزائري»..

كما كان للشيخ محمد عبده بآرائه وأفكاره الاصلاحية عن طريق مجلة المنار أثر واضح في طريقة ابن باديس التربوية،، كما كانت له مراسلات وكتابات مع الشيخ رشيد رضا تلميذ الإمام محمد عبده وصاحب مجلة المنار.

ومن الذين تأثر بهم إبن باديس الإمام أبو بكر بن العربي المتوفى سنة 542 هجرية صاحب كتاب «العواصم من القواصم» الذي نبهه إليه الشيخ محمد النخلي فبحث عنه وقرأه ثم استنسخه وقام بطبعه في جزأين بعد عودته الى الجزائر من تونس وقدّم له بمقدمة هامة[4] .

ويظهر تأثير الإمام أبي بكر بن العربي في ابن باديس في كتابه «العقائد الاسلامية» الذي لم يسكل فيه مسلك الفلاسفة ولا منهج المتكلمين وانما نهج فيه نهج القرآن الكريم في الاستدلال وأساليب القرآن في الرد والحجاج

(3) عبد الحميد بن باديس، مجلس الشهاب، عدد خاص (4 — 5 يونيو 1938)، ص 288 — 291.

(4) د. تركي رابح، مرجع سابق، ص 169.

التي «تتلاءم مع الفطرة الانسانية فتستجيب له وتطمئن اليه وتميل نحوه وتركن»[5] ..

وكذلك كان للشيخ محمد نجيب المطيعي العالم الأزهري المشهور وزميل الإمام محمد عبده وأحد تلامذة السيد جمال الدين الأفغاني أثرا هاما في إبن باديس الذي ترجم له عند وفاته في مجلة الشهاب ترجمة وافية[6] .

عاد إلى قسنطينة في عام 1913 وشرع على الفور في إلقا دروس عامة في الجامع الكبير من كتاب «الشفاء» للقاضي عياض، ولكن خصوم الإصلاح والتجديد حالوا بينه وبين مراده هذا فتطلعت نفسه الى القيام برحلة الى بيت الله الحرام والى طيبة الطيبة لزيارة ساكنها عليه الصلاة والسلام وزيارة أقطار المشرق العربي.. «وأذكر أني لما زرت المدينة المنورة واتصلت فيها بشيخي الأستاذ «حمدان لونيسي» المهاجر الجزائري وشيخي «حسين أحمد الهندي» أشار علي الأول بالهجرة الى المدينة المنورة وقطع كل علاقة لي بالوطن وأشار علي الثاني ــ وكان عالما حكيما ــ بالعودة الى الوطن وخدمة الاسلام فيها والعربية بقدر الجهد فحقق الله رأي الشيخ الثاني ورجعنا الى الوطن بقصد خدمته نحن لا نهاجر نحن حراس الاسلام والعربية والقومية بجميع مدعماتها في هذا الوطن»[7] .

وفي المدينة كان اللقاء التاريخي بين الامام إبن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي الذي تواصل ثلاثة أشهر يصفها البشير الإبراهيمي : «.. كنا نؤدي صلاة فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي ونجر الى منزلي فنسمر مع الشيخ إبن باديس منفردين الى آخر الليل حين يفتح

(5) د. عمار الطالبي، «إبن باديس حياته وآثاره»، ج 1، ص 87.
(6) د. تركي رابح، مرجع سابق، ص 170.
(7) إبن باديس : «الشهاب»، ج 8، ص 255، عدد أكتوبر 1937.

المسجد النبوي فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح ثم نفترق الى الليلة الثانية إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة المنورة كانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبير للوسائل التي تنهض بها الجزائر ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلها صورا ذهنية تتراءى في مخيلتنا وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها الخارج بعد بضع عشرة سنة وأشهد الله على أن تلك الليالي من عام 1913 ميلادية هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلّا عام 1931»[8] .

وأثناء عودة ابن باديس زار القدس الشريف كعادة كل الحجاج المغاربة الذين يروا من كمال حجهم أن يقدسوه في القدس الشريف بالصلاة في المسجد الأقصى.. وزار سوريا ولبنان ومصر واجتمع برجال الفكر والعلم والأدب فيها وزار الأزهر الشريف ــ معقل الأمة وحصنها ــ ووقف على أساليب الدراسة فيه واتصل بالشيخ محمد نجيب المطيعي في داره بجلون «لما رجعت من المدينة المنورة على ساكنها وآله الصلاة والسلام سنة 1332 هجرية جئت من عند شيخنا العلامة الشيخ «حمدان لونيسي» المهاجر الى طيبة والمدفون بها رحمه الله. جئت بكتاب الى الشيخ يخيت. وزرت الشيخ يخيت بداره بحلوان مع صديقي الأستاذ إسماعيل جغري المدرس اليوم بالأزهر فلما قدمت له كتاب شيخنا «حمدان» قال لي «ذاك رجل عظيم» وكتب لي اجازة في دفتر اجازاتي بخط يده»[9] .

هذه هي تنشيئة إبن باديس ويلاحظ فيها أنه كما كل العظام في تاريخنا القديم والحديث انطلق من قاعدة العرفان والعشق الصوفي والخلق العظيم.

(8) الشيخ البشير الإبراهيمي : مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة عدد 21، ص 140 ــ 141، سنة 1964.
(9) إبن باديس : «الشهاب»، ج 2، م 11، ص 606، عدد فبراير، سنة 1926.

انطلق من هذه القاعدة الى العلم الأصولي والآداب والتاريخ لتكوين شخصية مؤمنة صلبة متفتحة لكي تكون في مستوى التحدي الحضاري الذي فرضته الهجمة الغربية.

إبن باديس : المشروع

عاد إبن باديس الى الجزائر مزوَّداً بما اضطلع عليه من هموم المسلمين ومآسيهم في المشرق.. فأدرك أنه لا مجد لهذه الأمة إلّا بالوحدة ولا وحدة إلّا بالثورة على المستعمرين وما فرضوه من أوضاع ولا ثورة إلّا بالاسلام دين الخلود.. ولا إسلام إلا بالوعي والمعرفة!!

وكانت شرارة الثورة هي (إقرأ).. هذه هي بداية المشروع عند إبن باديس.. لتحقيق الشخصية الاسلامية الحضارية التي ستتجه تلقائيا للاصطدام بالوضع الغربي الغريب عن حسها وقيمها ونموذجها الخاص.. هذا الاصطدام الذي يدفع بالوضع الى ثورة شاملة ضد الوجود الاستعماري بكل أشكاله.. وهذه الثورة هي التي تزيح أغلال الاستعمار عن بلدان المسلمين الأقرب فالأقرب فتحقق بذلك وحدة العرب فالمسلمين مما يعيد المجد من جديد لكيان الأمة.. هذه باختصار الخطوط العامة لاستراتيجية ابن باديس ومشروعه.

«لما قفلنامن الحجاز وحللنا بقسنطينة سنة 1913 م وعزمنا على القيام بالتدريس أدخلنا في برنامج دروسنا تعليم اللغة العربية وآدابها والتفسير والحديث والأصول ومبادىء التاريخ ومبادىء الجغرافية ومبادىء الحساب وغير هذا.. ورأينا لزوم تقسيم المتعلمين الى طبقات واخترنا للطبقة الصغرى منهم بعض الكتب الابتدائية التي وضعتها وزارة المعارف المصرية وأحدثنا تغييرا في أساليب التعليم.. وأخذنا نحثّ على تعليم جميع العلوم باللسانين

العربي والفرنسي، ونجيب الناس في فهم القرآن وندعو الطلبة الى الفكر والنظر في الفروع الفقهية والعمل على ربطها بأدلتها الشرعية.. وترغيبها في مطالعة كتب الأقدمين ومؤلفات المعاصرين.. لقد مضينا على ما رسمنا وصمدنا الى ما قصدنا من غاية وقضيناها عشر سنوات في الدرس لتكوين نشء علمي لم نخلط به من عمل آخر»(10)..

عشرة سنوات قضاها الإمام إبن باديس مدرسا في قسنطينة من سنة 1913 الى سنة 1924 يكون الكتائب الأولى من الدعاة للاصلاح لتكون هذه الكتائب طليعة النهضةوالأمة.

بعد هذه الفترة من العمل كان لا بد من منبر إعلامي يعبر عن وضع بدأت ملامحه تتميز رغم ثقل كاهل الوضع الاستعماري.. وبالفعل كانت مجلة «المنتقد» وجاء عددها الأول في «ذي الحجة 1243 هجرية الموافق لـ 2 يوليو 1925 يعلن فيه إبن باديس «مبادؤنا وغايتنا وشعارنا» فيه حدّد الهوية الحضارية والمطالب الأساسية وشَخصَّ الحالة الراهنة بحكمة وهدوء غير متعجل الخطوات : «نحن قوم مسلمون جزائريون في نطاق مستعمرات الجمهورية الفرنسية. فلأننا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا التي تدعو الى كل كمال إنساني.. وفي المحافظة على هذه التقاليد المحافظة على أهم مقومات قوميتنا وأعظم أسباب سعادتها وهنائنا لأننا نعلم أنه لا يقدر الناس أن يعيشوا بلا دين وأن الدين قوة عظيمة لا يستهان بها.. لا تعني بهذا أننا نخلط بين الدين والسياسة في جميع شؤوننا، ولا أن يتداخل رجال الدين في سياستنا، وإنما نعني اعتبار الدين قواما لنا وملجأ شرعيا لسلوكنا ونظاما محكما نعمل عليه في حياتنا.. لهذا لا نألوا جهداً في خدمته

(10) جريدة «السنة»، 24 أبريل، سنة 1933.

بنشر مبادئه الحق العالية وتطهيره من كل ما أحدثه فيه المحدثون والدفاع عنه من أن يمس بسوء من أهله أو من غير أهله.

ولأننا جزائريون نعمل للم شعث الأمة الجزائرية وإحياء روح القومية في أبنائها وترغيبهم في العلم النافع والعمل المفيد حتى ينهضوا كأمة لها حق الحياة والانتفاع في العالم وعليها واجب الخدمة والنفع للانسانية.

واننا نحب الانسانية ونعتبرها كلًا ونحب وطننا ونعتبره منها جزءا ونحب من يحبه، نحب من يحبها ويخدمها ونبغض من يبضغها ويظلمها.

وبالأحرى نحب من يحب وطننا ويخدمه، ونبغض من يبغضه ويظلمه فلهذا نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائري وتحبيب بنيه فيه ونخلص لكل من يخلص له ونناوىء كل من يناوىء من بنيه وغير بنيه.

ولأننا مستعمرة من مستعمرات الجمهورية الفرنسية نسعى لربط أواصر المودة بيننا وبين الأمة الفرنسوية وتحسين العلائق بين الأمتين المرتبطتين بروابط المصلحة المشتركة والمنافع المتبادلة من الجانبين.

إنّ الأمة الجزائرية قامت بواجبها نحو فرنسا في أيام عسرها ويسرها ومع الأسف لم نر الجزائر نالت على ذلك ما يصلح أن يكون جزاءها».

بالاضافة الى هذا (المبدأ السياسي) ــ كما حدّدمصطلحه الإمام ــ طرح مبدأه التهذيبي ومبدأه الانتقادي وجعل في آخر المقال هذه الجملة «الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء» بهذا الخطاب السياسي دخل الإمام إبن باديس ساحة العمل السياسي المباشرة.. وكان هذا بمثابة دعوة لتجميع الطاقات وتوحيد الصفوف لخدمة الوطن ولخدمة الإصلاح(11).

(11) دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، ص 93، الأستاذ محمد الطاهر فضلاء.

جاء هذا النداء بعد أن أيقظ جيلا.. أيقظ ضمائره وأرسى في قلوبه عقيدة صحيحة فوّارة وألزمهم روح العلم والعقل وحارب فيهم وبهم روح التعصب والتقليد الأعمى.. وحدد بهذا النداء الاطار العام للغاية السياسية التي سيعمل من أجلها..

وكان المقصود بهذه الدعوة كل من لديه من العلم الديني نصيب يؤهله للقيام بواجب الدعوة وتعليم اللغة العربية.. لينتظموا جميعا تحت شعار واحد.. وهكذا أمسك الإمام بزمام المبادرة التاريخية.

ولقد جاءته الاستجابة من كل مكان.. وهرع إليه الناس من كل فج.. لتتكون هيئة «نادي الترقي» سنة 1926 وكان الاتجاه في البداية يرمي الى ضم كل علماء الدين وشيوخ الطرق والزوايا في رابطة واحدة باسم «جمعية علماء السُنة» ولكن الادارة الاستعمارية رأت في ذلك خطرا عليها فأوعزت إلى عملائها بأن يعملوا على إفساد هذه الخطة ويحولوا دون إتفاق الجميع وفعلا إنشق رجال الزوايا واستقل إبن باديس بالعمل مع جماعة من أصحابه وتمكنوا بعد جهود من الاتفاق على تأسيس هيئة «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» وأعلنوا عنها يوم أول ماي عام 1931(12) وسيرد بعد قليل بعض الاشارة عن الظروف التي نشأت فيها الجمعية بشكل خاص.

وكان الإمام إبن باديس بصدد إنشاء جيل متكامل يقود الأمة بالاسلام من أجل تحقيق رسالته.. «ما كانت جمعية العلماء حتى كان العلماء القرآنيون الذين فقهوا الدين والدنيا بفقه القرآن وعرفوا السنن الأقوم بمعرفة سُنة محمد عليه وآله الصلاة والسلام فهدوا واهتدوا بما كان عليه السلف الصالح ورجال الاسلام العظام»(13).

(12) د. يحي بوعزيز «سياسة التسلط الإستعماري»، مرجع سابق، ص 98.
(13) ابن باديس : «الشهاب» ج 8، م 13 ، شعبان 1356، أكتوبر 1937.

وانطلقت الجمعية آخذة على عاتقها فتح المدارس الحرة لمحاربة الجهل والأمية وتعليم الناس دينهم وبعث شخصيتهم الثقافية وتحديد معالمها ومصادرها.

وإلى جانب مجموعة المدارس الحرة التي كانت ميزانيات تسييرها وتجهيزها تجمع من تبرعات المسلمين والميسورين جندت الجمعية مجلة «الشهاب» التي كانت تصدر باسم الإمام إبن باديس شخصيا وجريدة «البصائر» لسان حال الجمعية لكشف التدابير والمؤامرات التي تتخذ لمحاربة التعليم العربي أو تلك التي تقوم بالترويج للإندماج.

لقد وفقت جمعية العلماء بوفاء زعيمها للتصدي بكل شجاعة في وجه سلطات الاحتلال العاملة بكل الوسائل على محو آثار لغة القرآن.. وبذلت كل ما في وسعها لجمع فئة قليلة من المعلمين الأحرار والمقصود بهم أولئك المعلمون المستقلون عن الادارة الفرنسية المستعدون للاستمرار في المقاومة من أجل نشر المبادىء الأولية للقراءة ولحماية ما تبقى من أصول الدين وعناصر الشخصية الثقافية المميزة(14).

وهكذا فتح الإمام المعركة واسعة على جبهتين : جبهة التخلف والجهل والتحجر والوهن جابهها بالعلم والوعي والتفتح والارادة.. وجبهة التذويب والدمج والاستعباد قاومها بالأصالة والاستقلالية والهتاف بالحرية وللحرية.. وكان لا بد من أن يتوسع النشاط الأفقي والنشاط الرأسي فلقد كان الإمام إبن بدايس بالمرصاد لدعاة الفرنسية والتجنسي ولقد كان لمقالاته المنشورة بمجلة «الشهاب» وجريدة «البصائر» لا سيما فتواه الشهيرة بتكفير المتجنس الجزائري بالجنسبة الفرنسية وعدم قبول توبته.. كان لهذه المقالات

(14) الثورة الجزائرية، مرجع سابق، ص 58.

أثرها الواسع والذي ما زال يحكم موقف مئات آلاف الجزائريين المغتربين في فرنسا.

ومن الجدير بالذكر أن السلطات الفرنسية لم تقابل نشاطات جمعية العلماء إلّا بالحرب العوان التي استهدفت أعضاءها ومعلميها وكذلك بعض المحبين الذين كانوا يساهمون ماديا في بناء المدارس والنوادي في مختلف أنحاء البلاد.

لم يستسلم معلمو الجمعية للضغوط وقصدو السجون بأعين قريرة لأنهم دخلوها في سبيل مبدأ شريف وظهر تكاثف أفراد الشعب في تلك الحرب الثقافية فكانوا كلما أغلق المستعمر الكافر مدرسة سارعوا الى فتح أخرى أو أكثر من واحدة(15).

وكانت نتيجة ذلك التحدي الثقافي الطويل نتيجة عظيمة تمثلت في إقامة المدارس الحرة التي بلغ عددها 136 مدرسة سنة 1950 تخرج منها آلاف المواطنين الذين كانوا بالرغم من قلة زادهم يتمتعون بروح ثورية عالية وجدت غذائها القدسي الدفاق في شعار إبن باديس الخالد ـــ والذي كان عند كل العقلاء ـــ يومذاك مستنكرا «الاسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني».. وتشكل بذلك لدى الأمة مرجعية دينية تفتيها في كل ما يستجد من أمور وكان لهذه المرجعة مكانة طيبة في نفوس عوام المسلمين.. وقد تكون تجربة إبن باديس هذه والتي تنبثق من روح التجديد التي تتملك شخصيته.. قد تكون المبادرة الأولى في العالم الاسلامي التي تجعل أمامها أكثر من جبهة وتواجهها بمثل هذه الروح الاسلامية الاصيلة قضية التحرر والأصالة والاستقلال والوحدة الاسلامية والتقدم والحضارة.. وهي بهذه

(15) الثورة الجزائرية، مرجع سابق، ص 59.

القضايا وما أنجزت على الطريق اليها تأخذ مركز الصدارة في محاولات النهضة في بلاد المسلمين...

وان عنصر التجديد والتجاوز الذي كان يشكل جوهر الإمام ابن باديس كان يدعمه وعي جاد برسالة الاسلام وواقع الأمة الاسلامية لذلك فعند تأمل حركة إبن باديس نرى أنه مفكرا سياسيا من طراز فريد ــ كما حاول أن يصفه محمد الميلي[16] ــ حيث لم يكتف بالتحدث إلى الجماهير عن المشاكل السياسية الآنية بل كان يتجاوز ذلك إلى تحليل كل الأبعاد العميقة معتمدا في ذلك منهجا علميا دقيقا ساشر في تنفيذ خطته المرحلة التي ستكون نقطة ينطلق منها الى خطة مرحلية أكثر تطورا ومنسجمة مع الحالة التي وصلها الوعي الجماهير والتناقض الحاصل بين الأمة وأعدائها... لتنسجم هذه العملة من التدرج في استراتيجية كبرى تتحدد محاورها في العودة الى الأصول [الكتاب والسُنة] محررة مما علق بها من أوهام وشعوذة...

وفي توحيد الأمة وطاقاتها.. وفي مقارعة العدو الاستعماري ورد كيده.. والعمل على تقدم الأمة لنيل المكانة اللائقة بها.. مكانة الشهادة على العالمين.

ومن أبرز مميزاته في هذا المجال أنه كان يهتدي لأحسن الشعارات تعبيرا عن طبيعة المرحلة.. ولقد كان الشعار عند إبن باديس مجرد محاولة تكتيكية تدخل في إطار هدف استراتيجي أعم وكان يمثل على هذا السلم تطورا واعيا يحمل مصداقية عالية.

ولقد كان ابن باديس السياسي محكوم لأخلاق المفكر بعيد النظر.. وهذا ما نلاحظه عندما شارك في «المؤتمر الاسلامي» اذ أن كثيرين لم

(16) محمد الميلي، ملحق جريدة الشعب، العدد 2299، الجمعة 16 أبريل 1971آ

يستطيعوا فهم جوهر موقف الامام ابن باديس. لكننا نلمس الفرق الحاسم بين إبن باديس وغيره من السياسيين الذين ساهموا في المؤتمر.. فسياسيو المؤتمر جعلوا من أهدافه غاية ومنّوا الشعب بأن الحكومة الفرنسية مستعدة لتحقيق تلك المطالب التي نادى بها المؤتمر.. أما إبن باديس فقد أعلن وهو ما زال في المؤتمر قائلا يجب أن لا تتحول المطالبة ببرنامج بلوم ڤيوليت الى مشروع يهدد مقومات الشخصية الوطنية... لقد رأى الامام أن انعقاد مؤتمر للأمة مسألة هامة كخطوة... وعندما رجع الوفد قالوا جميعا بما معناه «النتيجة آتية ولا ريب»[17].. أما إبن باديس فقد قال قولا آخر : «أيها الشعب إنك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية. هائم بها، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا الحاملين للوائها وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيا ونموت لأجلها إننا مددنا إلى الحكومة الفرنسية أيدينا وفتحنا قلوبنا فإن مدت إلينا يدها وملأت بالحب قلوبنا فهو المراد، وإن ضيعت فرنسا فرصتها هذه فإننا نقبض أيدينا ونغلق قلوبنا فلا نفتحها إلى الأبد... أيها الشعب لقد عملت. وأنت في أول عملك، فاعمل ودم على العمل، وحافظ على النظام، واعلم ان عملك هذا على جلالته ما هو إلّا خطوة ووثبة، وراءها خطوات ووثبات وبعدها إما الحياة وإما الممات»[18] ورفع شعار المرحلة (فلنعتمد على أنفسنا ولنتكل على الله).. وبالتأكيد إنّ تقييم كتابات الامام ابن باديس إذا صاحبها تحليل شامل للعصر الذي قيلت فيه سيكون تقييما سليما وبدون ذلك لن نستطيع فهم تطور حركة إبن باديس وفهم جوهره «التجدد والتجاوز»..

وميزة الوعي السياسي الحاد الشامل في صلة الإمام بالثقافة والمجتمع حررته من الرؤية الجزئية للقضايا.. وكان كالسيد جمال الدين الأفغاني يدرك

(17) ملحق الشعب، مرجع سابق، ص 52.
(18) نفس المصدر، ص 53.

أن التضحية بدون عمل إنما هي إزدراء فادح بالواقع لأن الأخلاق من تحصيل حاصل الأوضاع الاجتماعية وعدالتها...

ولم تكن ساحة عمل الإمام قطاع ما من الناس بل كانت تشمل كل قطاعات الأمة برجالها ونسائها شبابها وكهولها ومتعلميها وأميها... «ليس ممثل للأمة إلّا الأمة. تجتمع في مؤتمرات شعبية متمنين ما تريد»(19).

«أيها الشعب الجزائري الكريم.. هأنذاك أمد لك يدي من قلب يحبك، نعم يحبك؛ يحب كمالك، ويحب علمك، ويحب جهلك، ويحب تفكيرك، يحبك هكذا، جبلا بخنا شبيك على صدر من يريد قلعك وفي عين من ينكر وجودك.. فمد لي يدك لنزيل نقصنا بالكمال وننير جهلنا بالعلم ونمحو تخريفنا بالتفكير.

يدي في يدك أيها الشعب. فقلبي قلبك، وعقلي وعقلك، وروحي روحك ولساني لسانك وماضيي ماضيك ومستقبلي مستقبلك وآلامي آلامك وآمالي آمالك فغفر الله لي ولك ولجميع المسلمين، وتدارك باللطف والرحمة عباده أجمعين»(20).

والشعب هنا ليس مقولة فاقدة المضمون.. إنه شعب عقيدته الاسلام ولغته العربية وواقعه مظلومية ناتجة عن الوضع الاحتلالي المجرم : «إن هذه الأمة الجزائرية الاسلامية ليست هي فرنسا ولا تريد أن تكون فرنسا.. إنها أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها.. لا تريد أن تندمج ولها وطن محدد معين هو الوطن الجزائري»(21).

(19) جمعية العلماء، أحمد الخطيب، مرجع سابق، ص 244.
(20) محمد الصالح الصديق، الإمام الشيخ.
(21) نفس المصدر ص 41.

ووقف الإمام بكل ضراوة لمحاولات فرنسا تجنيد الشعب الجزائري في الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا سنة 1939 ويروي الشيخ العربي التبسي أنه قد جاءه في تلك الآونة ضابط فرنسي يطلب اليه أن يدلي بتصريح يذاع وينشر يعلن فيه عن تأييده لفرنسا في حربها ضد الألمان فرفض الشيخ الطلب وخيب أمل فرنسا.. ولما لقي الشيخ الإمام ابن باديس قصَّ عليه القصة ثم سأله مداعبا : لو جاء يا شيخ فبماذا كنتب تجيبهم يا ترى؟ فانتفض الشيخ وقال في لهجة صارمة : أما أنا فوالله لو قال لي الاستعمار قل «لا إله إلّا الله» ما قلتها»(22).

وكان الإمام مدركا أن : «السياسة الاستعمارية لا تتغير بالوفود تذهب إلى فرنسا ولا بلجان تبعثها الحكومة العليا ـــ فرنسا ـــ الى الجزائر.. الوفود لا تستطيع أن تغير شيئا ولكن الشعب الجزائري هو الذي يستطيع أن يغير كل شيء.. ومتى نفض الشعب عن نفسه غبار الجهل والغفلة وأدرك وجوب تسيير شؤونه بنفسه وأخذ يضع كل شيء في موضعه لن يجد أن يضع الاستعمار إلّا حيث توضع الأطمار البالية»(23).

وهكذا نرى الإمام يصعد في هجومه وتحريضه (.. كلا والله لا تسلمنا مماطلة فرنسا إلى الفجر الذي يقعدنا عن العمل وإنما تدفعنا إلى اليأس الذي يدفعنا إلى المغامرة والتضحية.. أيها الشعب الجزائري.. أيها الشعب العربي، أيها الشعب المسلم، حذار من الذين يمنّونك ويخدعونك حذار من الذين ينومونك ويخدرونك! حذار من الذين يأتونك بوحي من غير نفسك وضميرك ومن غير تاريخك وقوميتك ومن غير دينك وملتك وأبطال دينك وملتك..

(22) نفس المصدر السابق.
(23) المقاومة الجزائرية، العدد 13، رمضان 1376، أبريل 1957، ابن باديس.

ستوحي الإسلام ثم ستوحي تاريخك ثم ستوحي قلبك.

اعتمد على نفسك وسلام الله عليك»[24].

وعندما تقابل الوفد الجزائري مع وزير حربية فرنسا (دلادي) سنة 1936 قال دلادي لهم: «ليس بوسع فرنسا أن تمنح شعبكم حقوق المساواة مع الشعب الفرنسي ما دمتم متمسكين بشريعتكم الاسلامية واعلمكم أن فرنسا قوية ومدافعها ما تزال طويلة المدى فاحذروا من الوقوف في طريق مخططاتها» فرد عليه الإمام: «توجد لدينا مدافع أطول من أن تكون لحكومة الفرنسية» «وما هذه المدافع؟» أجابه ابن باديس: «انها مدافع الله»[25].

وبعد عام وجه الإمام نداء تحريضيا هاما للأمة: «أيها الأمة الكريمة.. اليوم وقد أيسنا من غيرنا يجب أن نثق بأنفسنا».

اليوم وقد تجوهلت قيمتنا يجب أن نعرف نحن قيمتنا.

اليوم وقد خرست الأفواه عن إجابة مطالبنا يجب أن نقول نحن كلمتنا.

اليوم وقد اتحد ماضي الاستعمار وحاضره يجب علينا أن نتحد صفوفنا»[26].

كان الإمام مدركا أن الثورة يجب أن تستوفي شروطها حتى يصل التناقض بين الشعب والسلطات إلى أقصى درجاته وأكبر هوّاته ويكون قد ارتفع رصيد الشعب من خلال التحريض والتعليم والتعبئة فيصبح مع ذلك أن لا معايشة بين الشعب المتميز بثقافته والواعي لأخطار الاستعمار والاستعمار المحرم الفاشي: «لكننا إن كنا تحملنا عيشة الذل بصبر وتحملنا الفتنة في الدين بصبر

(24) الإمام الشيخ، مرجع سابق، ص 82.
(25) الإمام الشيخ، مرجع سابق.
(26) «الشهاب»، الجزء السابع، سبتمبر سنة 1937 م.

فإننا لا نتحمل ولن نتحمل ولو رأينا الموت البؤس والبلاء الأعظم».. وكان الإمام تواقا الى لحظة التفجير الشامل ضد المستعمر المستكبر الكافر بل إنه صرح بذلك في أواخر عمره الطاهر أمام طائفة من طلبته ومريديه قائلا: «والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأمة يوافقوني على إعلان الثورة لأعلنتها»[27]..

لقد كان إبن باديس مفكرا حضاريا كثرت وقفاته مع الحضارة الغربية ناقدا ومحللاً وكاشفا عن عموم فسادها وما أكثر تأملاته لحضارة الاسلام وعقيدته موضحا ضرورتها للانسانية الشقية.. ولم تحرمه المعركة الدائرة مع الغرب من أن يكون في مستوى الخلق الانساني الرفيع الذي يربي عليه الاسلام أبناءه حتى ازاء العدو.. وفي مجال الفكر الحضاري يمكن أن نفسر إصراره على العربية لغة» فهو يرى كما يرى ابن حزم أن الأمة اذا فقدت دولتها وسلطتها ضعفت لغتها وانهارت فكانت دعوته التمسك باللغة دعوة واضحة لاقامة الدولة التي تحفظ اللغة المعبر القوي عن المستوى الحضاري لأمة ما.. وهذا ما نقرأه واضحا في مجلة الشهاب عدد نوفمبر 1933 تحت عنوان «سقوط اللغة بسقوط أهلها».

لقد كان وعي الإمام وعيا تكامليا لا يفصل طرفا عن طرف آخر في نهج المفاهيم وإحكام تكاملها ولا يبتره من أبعاد تسلسلها المتناهية.. إنّ إصرار إبن باديس على التهذيب بصفة عامة على مستوى التوعية الجماهيرية في الحين الذي يحارب فيه استبداد المستعمر من خلال رؤية عقائدية سياسية إنّ هذا الاصرار يضعه بحق في صف السيد جمال الدين الأفغاني وعبقريته التواقة الى المستقبل[28].

كان الإمام مدركا خطورة ما تقوم به أجهزة الغرب الاستخبارية والثقافية في بث الفرقة بين العرب والأمازيغ في الجزائر فكان نداءه «ان أبناء يعرب وأبناء

(27) إبن باديس «حياته وآثاره»، عمار طالبي، ج 1، ص 89.
(28) مصطفى الأشرف، ملحق الشعب، مصدر سابق، ص 17.

مازيغ قد جمع بينهم الاسلام منذ بضعة عشر قرنا ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء وتؤلف بينهم في العسر واليسر وتوحدهم في السراء والضراء حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر وأبوه الاسلام.. وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله»(29) والتركيز على الكيانية الجزائرية هنا لها ما يبررها وهي ليست دعوة إقليمية كما يفهمها سطحيو اليوم.. إنّ مجرد التركيز على ذكر الجزائر ككيان كان بمثابة صراع حاد مع رؤية الاستعمار الادماجية للجزائر وخوفا من اللبس يذكر إبن باديس حول هذه النقطة ما يجعل التركيز ضرورة فيقول : «أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص وتفرض علي تلك الروابط لأجله ــ كجزء منه ــ فروضا خاصة وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة... نعم إنّ لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا هي دائما منا على بال ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لا بد أن نكون قد خدمناها وأوصلنا اليها النفع والخير في طريق خدمتنا لوطننا الخاص.. فنحن ان كنا نخدم الجزائر فلسنا نخدمها على حساب غيرها ولا للاضرار بسواها ــ معاذ الله ــ ولكن لننفعها ما اتصل بها من أوطان الأقرب فالأقرب.. هذا ــ أيها الاخوان ــ هو مرادي بقولي أنني أعيش للجزائر»(30).

لهذا نرى موقفه الواضح الصريح من قضية فلسطين في أكثر من موضع على اعتبار أنها قلب العرب والمسلمين فكثرت الاستغاثات من أجل

(29) «الشهاب» ج 2، ذي القعدة 1354 هـ، فبراير 1936 م.

(30) «حتى أعيش» في ملخص محاضرة ألقاها الإمام نشرتها مجلة الشهاب بتاريخ 25 ديسمبر سنة 1936.

فلسطين وأصبح ينهي كل مؤتمر بالتذكير بقضية فلسطين كما كانت جريدة البصائر والشهاب ترصد أخبار فلسطين باستمرار.. وله مقال هام في جريدة الشهاب يحذر فيه العرب قائلا : «أيها العرب إما فلسطين أو الموت»..

كما كانت جريدة البصائر تنشر الأشعار ورسائل الحاج أمين الحسيني وكل ما يتعلق بفلسطين.. ففي الاجتماع الخامس لجمعية العلماء ألقى الإمام بن باديس خطبة مستفيضة عن غاية جمعية العلماء ختمها بقوله : «ثم أسكب عبرة الأسى على ما تلقاه أرض القدس الشريف من عسف الاستعمار الغاشم.. الذي لطخ تلك الرحاب المقدسة بالدماء البريئة. فبلسنانكم ولسان الجزائر كلها من الأجنة في بطون الأمهات إلى الذين في بطون الأجداث أرفع الشكوى الى الله ثم الاحتجاج الى كل من فيهم إنسانية من جميع الأمم»(31) ونكتفي بمقال نشره بتاريخ أوت 1938 تحت عنوان : «فلسطين الشهيدة : يعبر عن وعي عميق بطبيعة الصراع الدائر على أرض فلسطين : «تزاوج الاستعمار الانكليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة فأنتجا لقسم كبير من اليهود الطرح الأعمى الذي أنساهم كل ذلك الجميل (من طرف العرب) وقذف بهم على فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة فأحالوها جحيما لا يطاق وجرحوا قلب الاسلام والعرب جرحا لا يندمل.. الخصومة بين الصهيونية والاستعمار الانكليزي من جهة والاسلام والعرب من جهة أخرى والضحية فلسطين(32) والشهداء حماة القدس الشريف.. يريد الاستعمار الانكليزي الغاشم أن يستعمل الصهيونية الشرهة لقسم الجسم العربي وحط قدس الاسلام فيملأ فلسطين بالصهيونيين ولأجل هذه الغاية الظالمة تجند جنود الانكليز وتجمع أموال الصهيون وتسفك الدماء البريئة وتلطخ بها الرحاب

(31) الإمام ابن باديس جريدة البصائر، بتاريخ 2 أكتوبر 1936.

(32) من الجدير التنويه أن هذا الإدراك العظيم لطبيعة التحدي إدراك سابق لأوانه في تلك المرحلة ولم يشارك الإمام ابن باديس هذا الفهم إلّا الشيخ عز الدين القسّام.

المقدسة»، ويستنكر حالات التهجير التي أحلت من قبل الطليان بسكان الجبل الأخضر بليبيا إلى ساحل سرت القاحل «إن الأمة الاسلامية الجزائرية لفي أقصى التأثر مما لحق أخوانهم الطرابلسيين الذين ذهبوا ضحايا التوحش الفظيع» وكذلك تكثر مواقفه من ما يلحق بالمسلمين في كل أطراف العالم الاسلامي بل والعالم المستضعف بشكل عام.

لقد ترك لنا ابن باديس مؤلفات هامة في التفسير حيث ختم تفسير القرآن سنة 1938 وعقد لذلك احتفال عظيم شاركت فيه جموع المسلمين وختم شرح (الموطأ).. ومقالات في مجالات اجتماعية وسياسية وثقافية مختلفة تعبر عن رؤية تجديديه وسعة معرفة تحملها فصاحة في اللغة وجزالة في الأسلوب البلاغة ..وعي بالحالة الاجتماعية والسياسية الواقعة وتقودها طموحات وآمال ترتقي شيئا فشيئا لتحقيق الآمال الكبرى.

والحق لقد كان ابن باديس هو الجزائر — كما أحب أن يصفه الشهيد العربي التبسي — فلتجاهد الجزائر أن تكون ابن باديس. لقد كانت القوى السياسية بتعددها مجمعة على إمامته للجزائر.. حيث كان الصدر المتسع لكل المناضلين ضد الاستعمار.. وكان رضوان الله عليه تجديديا، ومنظما جماهيريا قد فكان بذلك قائدا جماهيريا من الطراز الرفيع، فأحيا أمة وأعد جيل ..ش كان لتعلق بالدين الاسلامي واللغة العربية موجودين في الجزائر قبل حركة الشيخ عبد الحميد إلّا أن الفضل يرجع للشيخ عبد الحميد من أنه استطاع أن ينطلق من هذه العوامل محتمعة لبناء حركته الاصلاحية الكبرى... ثم ..لسبب الأساسي لهذا النجاح هو النظرة المحددة التي كان ينظر بها الى الاسلام والعروبة وكل القضايا التي كانت تشغل العالم الاسلامي والعربي وهي ترجمة ما كان يؤمن به إلى عمل يومي دائب»[33].

(33) ملحق الشعب، مرجع سابق، عبد الحميد مهري، ص 27.

وبرز جيل متكامل من الرواد العظام الذين اندفعوا في كل جهات الجزائر يقاومون التغريب والتحريف ويبثون روح التميز ضد الدمج والذوبان فكان جيلا عظيما من أهم روده الشيخ العربي التبسي والشيخ الفضيل الوتلاني والحاج أحمد مصطفى والشيخ عبد اللطيف سلطاني وابراهيم أبو اليقظان والطيب العقبي والشيخ أحمد سحنون وغيرهم، وغيرهم كثير من الرواد الذين كان لهم فضل الحفاظ على شخصية الجزائر الحضارية لقد لقد حقق الامام أهدافه ومهامه على رغم الأهداف المتجددة في إطار الاسلام والصراع مع الاستعمار وهي أمة على قرب الانفجار في هذه اللحظات، ففي بيع يبشر بنضج ... حكيم لقد ... الإمام ابن باديس في 16 من شهر أبريل سنة 1940 سلام عليه يوم وُلد وسلام عليه يوم مات وسلام عليه يوم يُبعث مع الصادقين

ب — جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

جمعية العلماء المسلمين ومن ... في سوق اليوم فاضطلعي ... فاشعب برقبكم ... شعب قد شدت بعاتقكم ... في عرض البلاد فما ... في سرتا[34] يظللها

للمسلمين سواك اليوم منشود؟ بالعبء مُذمرَّ دجال ورعديد وجاهدوا فلواء النصر معقود فما لغيركم تلقى المقاليد غير المدارس للتحرير تمهيد نصرا ألا إن نصر الله موعود

شاعر الثورة : مفدي زكريا[35].

(34) سرتا : هو الاسم القديم لمدينة قسنطينة.

(35) مفدي زكرياء، ديوان «اللهب المقدس»، ص 268 من قصيدته الرائعة : «من يشتري الخلد إنّ الله بائعه».

ظن المستعمر أن الأمر قد استتب له نهائيًا بعد مئة سنة من الاحتلال والاستيطان حيث استطاع التغلب على ثورة الأمير وأنهى بشكل بشع تمرد المسلمين على حالة الخضوع والذل .. ووطن لصوصه وصعاليكه شذاذ الآفاق في أرض المسلمين.

فأقام احتفالًا مئويًا أظهر الفرنسيون فيه حقدًا دينيًا بل دعوة الى الصليبية حتى أن أحدهم خطب في الاحتفال قائلا : «إنّ إحتفالنا اليوم ليس احتفالًا بمرور مائة سنة على احتلالنا الجزائر، ولكنه احتفال بتشييع جنازة الاسلام»[36]، وقبل ذلك أي عام 1926 كتبت جريدة فرنسية بمناسبة القضاء على ثورة الريف، وإلقاء القبض على الأمير المجاهد صاحب ثورة الريف عبد الكريم الخطابي : «لقد إستسلم عبد الكريم الخطابي من غير شرط، وخضع لحماية فرنسا، ذلك ما كنا نبغي، فالحادث مهم، فهو يضرب الاسلام في الصميم وفي وسعنا الآن أن نفتك بهذا الدين الفتك الذريع»[37] ومما قاله حاكم تبسة في خطابه بهذه المناسبة : «إننا جئنا إلى الجزائر لندفن القرآن لا ليحيا»[38].

ولقد أعدُّوا لهذا الاحتفال إعدادًا كبيرًا استمر عدة أشهر استجلبوا له الفرق الفنية الفرنسية بل من أوروبا كاملة .. ورافق ذلك حملة دعائية واسعة عبر الصحف والاجهزة الاعلامية المختلفة .. وشارك في هذا الاحتفال سفراء الدول الأوروبية وتبرعت النخبة المثقفة من الأدباء المتغربين في المشاركة بهذا الاحتفال شعرًا وأدبًا في المدح بهذه الحملة والوجود الفرنسي.

(36) محمد الطيب العلوي (مظاهر المقاومة الجزائرية)، ص 109.
(37) نفس المصدر والصفحة.
(38) نفس المصدر والصفحة.

لقد كانت الاحتفالات بمثابة تتويج لحملة استعمارية انتهت لتوّها من كل مقاومة لها .. فأبدى جنرالات فرنسا من الصليبية والحقد والتشفي ما لا يمكن تحمله .. كانت الظروف قاتلة والمجتمع يفتقد للقيادة .. في هذه الظروف كان الرد التاريخي الحضاري فكان إنشاء (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) وكان أول بند في دعوتها وأصولها : «الاسلام هو دين الله الخالد الذي وضعه لهداية عباده وأرسل به جميع رسله وكمله على يد نبيه محمد الذي لا نبي بعده».

لقد كان واضحًا أن فرنسا بذلت في محاربة الوحدة الوطنية في الجزائر وتذويب الهوية الحضارية ومقاومة القيم الاسلامية ما في وسعها .. وكان أخطر أسلحة الاستعمار في هذه العملية الضخمة والتجهيل والتزييف الثقافي لتخريج أفواج من الاجيال الفاقدة القدرة على التمييز .. مع فسح المجال لكل مشعوذ أو ملحد يزيد البلبلة والفوضى والاستلاب ترسيخًا في مجتمع مكبل بالتجهيل والتفقير ..

فكانت جمعية العلماء على قدر مع مهمتها التاريخية في ايقاظ الشعب الجزائري من سباته فعرفته بنفسه وبتاريخه وقيمه وأزالت الغشاوة عن أبصاره وغرست فيه الثقة بنفسه ودفعته الى التقدم في الطريق السوي السليم وهذا هو السر في شدة كراهية الاستعمار وأعوانه لها .. فلقد استهانت سلطات الاحتلال بأمر هذه الجمعية التي لم تعلن عن أهداف لها سوى مقاصد اجتماعية وثقافية يوم تشكلت .. لكن التحرك الحكيم الواعي والذي أصبح أخطر عمل يواجه استمرار الحالة الاستعمارية في مرحلة ـــ كما يقول محمد الصالح رمضان ـــ لم يكن سواها يتحرك في الميدان لصالح الشعب ويقظته[39] أدى الى تغيير الادارة الاستعمارية لرأيها في الجمعية وفي رجالها

(39) مجلة الثقافة، عدد 83، ص 359.

في مشاريعها .. وبدأ الصراع يحتد ويشتد ولكن بعد أن فات الأوان .. وقف بن باديس أمام هذه الهجمة الاستعمارية التي استهدفت اغلاق المساجد وحرمان العلماء من التدريس واعتقالهم والحاق النكبات بهم قائلا : «سلام عليكم أجمعين. سلام على مساجينكم في المساجين وسلام على متهميكم في المتهمين وسلام على منكوبيكم في المنكوبين : سجون واتهامات ونكبات (ثلاث لا تبنى الحياة الا عليها، ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة الحقة الا على أساسها) فاليوم وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث أثبتت الجمعية في تاريخ الاسلام وجودها وسجلت في صحيفة الخلود رسمها ونقشت في قلوب أبناء المستقبل أسمها، وبرزت في ذلك كله أسماء أولئك المسجونين والمتهمين والمنكوبين نجومًا متألقة تأخذ بالأبصار»(40).

لقد كانت رسالة جمعية العلماء رسالة سياسية بالمعنى الحضاري للسياسة .. فلقد كانت حركتها الهائلة والعارمة التي بعثت في الجزائري شخصيته من جديد وحددت له معالم هويته الحضارية وعلمته أهداف رسالته .. كانت هذه الحركة ستنتهي حتمًا بالتصادم بين النقيضين .. تصادمًا طبيعيًا يمتلك الشعب ضمانة الاستمرار والانتصار وهي «الارادة».

ما أجهل من يقول بأن جمعية العلماء لم تولي للعمل السياسي أهمية واكتفت بالعمل على الصعيد الديني الثقافي والاجتماعي) !! وبرغم ما في القول من جهل لطبيعة رسالة الدين فإنّه يعبر كذلك عن عجز في إدراك دور التحولات الثقافية الاجتماعية في صنع المواقف السياسية .. وعن عدم استيعاب لما كان يقوم به الاستعمار في الجزائر من إذابة وتحطيم للشخصية الجزائرية .. وما قامت به الجمعية في مواجهته.

(40) «الشهاب»، مرجع سابق، جزء 8، ص 100، المجلد 14.

ويتحامل البعض على الجمعية بالقول أنها كانت تنهج سلوكًا تفاوضيًا يتسم بالمهادنة وهذا التحامل له ما يبرره في مقولات الذين لم يحيطوا علمًا بما كانت ترسي الجمعية دعائمه في المجتمع الجزائري .. فلقد كانت النقيضية المطلقة مع الاستعمار هي القاعدة التي إنطلقت منها جمعية العلماء في العمل الدءوب حيث بناء الشخصية الجزائرية العربية الاسلامية النقيضة للحالة الفرنسية الاستعمارية المسيحية .. وهذه القاعدة هي التي تفسر المواقف المتعددة الذي يظهر فيها بعض الحين شيء من التعارض.

لقد كانت جمعية العلماء مدركة أنّ فرض معركة على الشعب الجزائري في مرحلة لم تكتمل فيها الشروط الذاتية للمعركة بل لا يوجد منها شيء يعني انتحارًا يهدر الطاقات ويودي بالأمل ..

فكان عمل جمعية العلماء منصبًا على تفويت الفرصة على الاستعمار في مراوغته وإلقاء الحجة عليه لكشف أساليبه من جهة وتعبئة الأمة على دعائم للنهضة والثورة مرة أخرى ..

لقد اكتشفت جمعية العلماء قانون العمل اكتشافًا علميًا دقيقًا .. وضربت على الحلقة المركزية في الصراع بعد أن انتشلت من حركة التاريخ قانونها في الكفاح فكان الشعار الخالد (الاسلام ديننا العربية لغتنا الجزائر وطننا) .. فتحرك هذا الشعار كالنار في الهشيم .. وبرغم كل المضايقات والمعرقلات التي واجهت الجمعية إلا أنها استطاعت في عشر سنوات أن تعيد صياغة المجتمع الجزائري صياغة جديدة تضعه في إطاره الحضاري المتميز وعلى سلم السياق التاريخي له وأن تلغي عملية البتر التي أحدثتها الحقبة الاستعمارية.

وردًا على من يقال عن الدور السياسي لجمعية العلماء في الاعداد للثورة. أو ينكر ذلك كليًا. أورد شهادتين ليستا لأحد من أنصار جمعية العلماء بل هما نقيضان طبيعيان لها. الشهادة الأولى : أيقظوا الرأي العام الأهلي من سباته العميق الذي شبهه شاعر عربي فيما بعد بـ (غرفة انتظار الموت)[41] ويكمل شارل أندري قوله في موضع آخر من الكتاب واصفًا الشيخ عبد الحميد بن باديس وأهدافه : «لقد اعتمد مثل الثعالبي بتونس على قوى الاسلام دون سواها لاحياء بلاده والسير بها نحو الاستقلال»[42].

الشهادة الثانية[43] يقول مؤلفو «تاريخ الأقطار العربية المعاصرة» د. ر. بليكوف وغيره : (.. وبتقويض مواقع المرابطين ــ الطرقيين ــ أضعف العلماء النظام الاستعماري) (.. إن النشاط المعادي للامبريالية والمعادي للاقطاعية الذي قام به العلماء المصلحون وأحرزوا به بسرعة شعبية عند سكان البلاد الاصليين ــ المسلمين ــ ساعد بشكل عام على تطور الوعي الوطني عند الجزائريين ولذلك منعت السلطات الاستعمارية العلماء منذ عام 1933 أن يخطبوا في المساجد وفرض منشور خاص على كل موظفي ومستخدمي الادارة للدفاع عن المرابطين ــ الطرقيين ــ من هجمات العلماء المصلحين وكذلك المراقبة الشديدة على نشاط المدارس التي أسسها العلماء).

اعتقد أنه لا الكاتب الفرنسي اليميني ولا الروسي الشيوعي كتب ما كتب عن دور جمعية العلماء في الاعداد للثورة وهو يجهل مدى التناقض الأبدي بينهم من جهة والفكر الاسلامي من جهة أخرى لذلك فإن شهادة الطرفين لا تصور سوى الحد الأدنى الذي لا مجال لانكاره.

(41) «افريقيا الشمالية تسير»، شارل أندري جوليان، الترجمة العربية ص 133 وما بعدها.
(42) نفس المصدر.
(43) «تاريخ الأقطار العربية المعاصرة» د.ر. بيلكوف وغيره، الترجمة العربية، ص 327 ــ 329.

ويتضح من القائمة الطويلة لشهداء ومساجين وقادة الثورة والجبهة مكانة جمعية العلماء الريادية والقيادية في الاعداد للثورة.

ولقد اتضح كما سبق دور الجمعية في مواجهة التفرنس والتجنيس وكان لفتواها الشهيرة بتكفير المتجنس الجزائري بالجنسية الفرنسية أو المتزوج بفرنسية .. كان لهذه الفتوى أثرها المطلوب وجعلت حدًا للتفرنس والتجنس والانغماس في حمأة التأورب والتغرب .. وكان لها صدى بعيد المدى في الشمال الافريقي الخاضع للسلطة الفرنسية.

كما قاومت جمعية العلماء الطرقية المتجمدة المحرفة التي كانت مطية للاستعمار يستعملها كما يشاء في تخدير الشعب وتنويمه بطقوسها ورموزها التي ظاهرها الدين وباطنها قتل روح الدين في المسلمين ــ الثورة والجهاد ــ لأنّ المخططين لها كانوا من كبار السلاسفة الاستعماريين من مستشرقين ومبشرين وسياسيين .. ولقد رأى الشعب لجهله وحسن ظنه في هؤلاء الطرقيين ممثلين الاسلام .. ولقد كان من المبادىء التي عمل مشائخ الطرق ورؤساؤها على ترويجها : «من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان» فكثر أتباعهم ومريدوهم .. (اعتقد ولا تنتقد) و (سلم تسلم) و (المكتوب على الجبين ما ينحوه اليدين)[44] فواجهت الجمعية هذه الشعارات بشعارات معارضة : (قاوم وتقوَّم)، (اعتقد وانتقد)[45].

وقد قامت جمعية العلماء على الصعيد الديني بتغيير المفهوم الشعبي السائد حول الدين وبعث الحياة في المعاني والمفاهيم الاسلامية وتخليصها من الشوائب والخرافات والاوهام .. ووضحت الجمعية أصول دعوتها فبينت بأن الاسلام هو دين الله الذي يدعو الى الاخوة الاسلامية والاخوة الانسانية

(44) مجلة الثقافة، عدد 83، ص 392، مرجع سابق.
(45) نفس المصدر، ص 393.

«يسوي في الكرامة البشرية والحقوق الانسانية بين جميع الاجناس والألوان فهو يفرض العدل بين الناس ويدعو الى الاحسان ويحرم الظلم «ويمجد العقل ويدعو الى بناء الحياة كلها على التفكير وينشر دعوته كلها بالحجة والاقناع ويترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاؤون»(46).

«الاسلام يشرك الفقراء مع الاغنياء في الأموال ويدعو الى رحمة الضعيف .. ويحرم الاستعباد والجبروت، ويجعل الحكم شورى وينكر البدع، ويقر المصلحة التي تقتضيها حاجة الناس في أمر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شؤونهم وتقدم عمرانهم(47).

«على هذه الأرضية كانت الحرب ضد الطرقية التي اشتدت عندما امتدت الى وسط الجزائر وغربها .. لقد خف الصراع فترة من الزمن عندما شرع البحث في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في أعقاب المهانات الدينية التي كانت في الاحتفال الفرنسي بمناسبة الذكرى المئة للاستعمار .. هذه المهانات التي أوجدت نقطة من التقارب حيث تشكلت جمعية العلماء المسلمين من الفريقين في البداية .. لكن سريعًا ما انشق الطرقيون مكونين (جمعية علماء السنة الجزائريين) وذلك بعد أن فشلوا في انتخابات المجلس الاداري (لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين).

وانصب هجوم جمعية العلماء على المعتقدات الفاسدة التي تلغي امكانية الثورة والكفاح هذه المعتقدات التي كانت خير حليف للحالة الاستعمارية .. وعلى التنظيم الهيكلي للطريقة الذي يجعل للشيخ أو صاحب الضريح مكانة أكبر في نفوس السواد من الله(48) .. طبعًا كانت

(46) البصائر، السنة الثانية، العدد 71، 18 جوان 1937.
(47) نفس المصدر.
(48) توفيق المدني، «كتاب الجزائر»، ص 351.

الطرقية تشن حربًا عوانًا على علماء الجمعية تتهمهم حينًا بالوهابية وحينًا بالعبداوية .. وأحيانًا بالمروق والفسق. ولقد كادت للشيخ ابن باديس وفي محاولة قذرة كاد أن يقضي على الشيخ فيها بإلقاء حجرة ضخمة عليه وهو يسير في قسنطينة.

ولقد قامت جمعية العلماء بتأسيس الجمعيات الدينية الحرة والمساجد الحرة والمدارس الحرة ومعنى الحرة أي التي ليس لها علاقة بالادارة الاستعمارية .. وتسيرها أموال المسلمين .. حيث أغلقت المساجد في وجه العلماء الذين ألهبوا الحماس وأيقظوا الاحساس(49) وفرضت الرقابة على تحركاتهم .. والاقامات الجبرية على البعض لكن جمعية العلماء أوعزت لشعبها الاصلاحية المنتشرة أن تحول بعض قاعات التدريس الى مساجد بدلًا من المساجد المحظورة وذلك حسب ما يرى الدكتور أحمد الخطيب لثني الناس عن الصلاة خلف الائمة المأجورين وتحويلهم إلى المساجد الحرة التي يمكنهم أن يستمعوا فيها الى دروس العلماء بكل حرية.

ولقد طالبت الجمعية الحكومة الفرنسية بفصل الدين عن الدولة (الادارية الاستعمارية) ومعنى ذلك كما جاء في التقرير الذي قدمه مجلس إدارة الجمعية الى الحكومة الاستعمارية بعد اجتماعه في 5 أوت 1944 : «أولًا فصل الدين الاسلامي عن الحكومة الفرنسية في الجزائر فصلًا حقيقيًا بحيث لا تتدخل في شيء من شؤونه لا ظاهرًا ولا باطنًا لا في أصوله ولا في فروعه.

74

ثانيا — تسليم ذلك كله الى أيدي الامة الاسلامية صاحبة الحق المطلق فيه وتقرير سلطتهم — المسلمين — على أمور دينهم تقريرًا فعليًا خالصًا لا التواء فيه ..».

(49) جمعية العلماء المسلمين وأثرها مرجع سابق، ص 188.

وقد جاء في مقدمة هذا التقرير «نحن الآن باسم الدين الاسلامي وباسم الأمة الاسلامية نتمسك بعبارة فصل الدين الاسلامي عن الحكومة الاستعمارية».

ويبدو أن هذه اللادينية أو العلمانية الفرنسية عجزت عن عبور البحر المتوسط الى الجزائر وكما يصف الابراهيمي هذه المسألة بقوله «إنها منظورة بالعين الاستعمارية وموزونة بالميزان الصليبي ومفهومة بالعقل المتحجر» .. (تجمهرت) فرنسا أو (تدكترت) أو اختلفت عليها الألوان بياضًا وحمرة فالاستعمار في الجزائر هو هو في نظرتها»[50].

والمجال الثقافي .. فهو الآخر شهد جهادًا عظيمًا معتمدًا على بث النوادي الثقافية ومدارس تبدأ من المرحلة الابتدائية حتى ا لكلية الباريسية في قسنطينة وقد بلغ عدد الطلبة الذين يدرسون في مدارس الجمعية سنة 1951، 36286 تلميذًا وتلميذة منهم 5 آلاف تلميذة[51] في حين يرى (جونسون) أن عدد تلاميذ مدارس الجمعية كان يتراوح ما بين 45 ألفًا و 50 ألفًا[52].

وكانت الجمعية تقوم بالبعثات التعليمية لتلاميذها وذلك ابتداءً من عام 1951 الى بلاد المشرق العربي حيث كانت البعثة الأولى لمصر عام 1951-1952 وضمت ستة وعشرين طالبًا بينهم طالبةواحدة توزعوا على كليات دار العلوم والأزهر[53].

(50) عيون البصائر، ص 171.
(51) تركي رابح، التعليم القومي، ص 214.
(52) العلماء المصلحون الجزائريون، ص 30.
(53) البصائر، 11 سبتمبر 1953.

وأمام ازدياد رغبة تلاميذ مدارس الجمعية الى الخروج للتعلم انتقل رئيسها الى المشرق لتأمين منح دراسية لهؤلاء الطلاب وقد نجح في مهمته .. حيث التحقت مجموعات من الطلبة بالجامعات المصرية والسورية والعراقية والكويتية[54].

وكان واضحًا في هذا المجال التركيز على تعليم المرأة ومحاربة المفاهيم المغلوطة عن دور المرأة في الحياة .. وكانت الدعوة لتحرير المرأة في الجهل والانعزال دعوة واضحة جلية جلبت الصراع مع الطرقيين والتقليديين.

ومنذ البداية قامت جمعية العلماء بنشاط ثقافي واعلامي كبير قامت بهما تعريفًا بمبادئها .. وعندما كان الهدف واضحًا والقضية المركزية جلية ألا وهي (الجزائر العربية اللسان الاسلامية الحضارة) إنصبت جهود الجمعية بفتح مدارس عربية حرة ومساجد حرة يتولى علماؤها التدريس فيها بلسان عربي فصيح ومن يراجع أدبيات علماء الجمعية مثل الابراهيمي والتبسي والعقبي وأبو اليقظان ورضا صوحو وقبلهم ابن باديس .. وغيرهم كثير .. يدرك أن هناك نهضة أدبية راقية لا تتوفر للاسف في عهد الاستقلال وبعد خروج عسكر الغرب.

وكانت الجمعية تسلك سلوكًا جماهيريًا في إنشاء المؤسسات الثقافية والعلمية في المدن .. وذلك بمبادرات غير مباشرة منها : بل كانت تسعى الى ذلك عن طريق تكوين جمعيات اصلاحية محلية من أشخاص آمنوا بمبادىء الجمعية ويتكونون في كثير من الاحيان من مختلف الطبقات الاجتماعية تتولى كل جمعية من الجمعيات التي تطلق على نفسها اسم

(54) نفس المصدر.
(55) جمعية العلماء المسلمين، مرجع سابق، ص 199.

(جمعية الاصلاح) أو (جمعية التربية والتعليم) فتح مدرسة حرة وغالبًا تسمى المدرسة باسم الجمعية المحلية التي ترعاها وتقوم جمعية العلماء بتزويد هذه المدارس بالمعلمين والبرامج التعليمية والاشراف.

وتصدت الادارة الاستعمارية لهذه النهضة الثقافية باغلاق المدارس وسجن مديريها والتضييق على المعلمين .. ولم يقتصر ضغطها على المدارس والمعلمين بل تعداه الى الاهالي الذين كانوا يرسلون أولادهم إلى مدارس جمعية العلماء ومن هذه الضغوطات «قطع التعويضات العائلية عن العمال الذين يتعلم أولادهم في مدارس الجمعية»(56).

لأنّ الادارة أدركت أنّ هذه المدارس ليست فقط للتعليم على الطريقة التجزيئية إنما هي مدارس لاعداد شخصية متكاملة خلقًا وسلوكًا وفكرًا وروحًا وثابة للثورة كما جاء في قول العربي التبسي وهو يودع تلامذته في نهاية عام دراسي «أنتم جنود الله والوطن. أياكم وارتياد أماكن اللهو والمقاهي وجندوا أنفسكم للاسلام والوطن، حدثوا أباءكم وأقاربكم عن تعليمكم وشيوخكم وما سمعتم منهم من النصائح علموهم ما تعلمتم من الدين والاخلاق حدثوهم عن الاستعمار وظلمه فهذا واجبكم في عطلتكم فأنتم أمل شعبكم المسكين، فلا تنشغلوا عن واجباتكم بما يسر أعداء وطنكم وغيظ أباءكم.

تذكروا معيشة آبائكم ومسكنهم وملبسهم وكيف آثاروكم على أنفسهم واخوانكم وأمهاتكم لتنيروا الطريق أمامهم.

تلك هي الرسالة التي نكلفكم بتبليغها الى آبائكم وأقاربكم وتلك هي آمانة العلم في أعناقكم الى أن تعودوا الى معهدكم ..»(57).

(56) كلوت وفرنسيس «الجزائر الثائرة»، ص 171.

(57) الإمام الشيخ العربي التبسي، د. شرفي الرفاعي، ص 12 — 13.

إذن أدركت الادارة دور مدارس الجمعية المنبثة في كل المدن وكثير من الدوائر والقرى .. فشنت حربها بقانون (العقاب الرهيب) وحسب وصف — حسب وصف جمعية العلماء — على المدارس وعلى الأهالي الذين يبعثون بأولادهم للمدارس.

فأدركت جمعية العلماء أنها أنضجت ظرفًا موضوعيًا للصدام بالسلطة .. وأن السلطة الاستعمارية وضعت نفسها وجهًا لوجه في محاربة الناس ودين الناس بشكل استفزازي فاطلق ابن باديس صيحته المدوية يجمع الرأي العام حول هذه القضية المركزية في الصراع مع الاستعمار «يا لله !! للاسلام والعربية في الجزائر».

75

وتحت هذا العنوان كتب يقول «فهمت الامة كل هذا ففهمت أن هذا القانون سلاح جديد أشهر لمحاربتها في أعز عزيز عليها وأقدس مقدس لديها وهو قرآنها ودينها ولغة قرآنها ودينها .. وفهمته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الممثلة للأمة في دينها وقرآنها والناطقة في الدفاع عنها في هذه الناحية بلسانها والمعاهدة لله وللأمة على ذلك الدفاع الى آخر رمق من حياتها». «إننا نعلن لخصوم الاسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا وسنمضي بعون الله — في تعليم ديننا رغم كل ما يصيبنا ولن يصدنا عن ذلك شيء .. وإننا على يقين من أن العاقبة وإن طال البلاء لنا وإن النصر سيكون حليفنا»(58).

وحركت الجمعية في حملتها المناهضة لقرار 8 مارس 1938 الرأي العام الجزائري بكل فئاته وبلغ الأمر من التحريض والتعبئة الى الحد الذي دفع النواب الجزائريين وهم من المرضي عنهم من الفرنسيين في مجلس النيابة

(58) البصائر عدد 18، أفريل 1938.

المالية «.. على المطالبة بحرية تعليم الدين ولغة الدين وقدموا تقريرًا في جلسة 15 جوان 1938 يشتمل على لزوم اعطاء رخص التعليم الاسلامي الى الجميع ..»[59].

إلا أن الادارة الاستعمارية لم تستجب فأصرت الجمعية على الثبات في مواجهة الادارة محرضة ومعبئة الأمة حول هذه القضية المركزية .. ولوحظ أنه كلما اشتدت الضغوطات الاستعمارية على نشاطات الجمعية ازداد اقبال التلاميذ وهبَّ الناس يبنون المدارس من جديد بأموالهم وجهودهم .. واستطاعت الجمعية بذلك أن تجعل المعركة معركة الأمة فتيقظ الحس المقاوم والرافض يقظة حضارية قائمة على العلم والمعرفة والوعي. فلقد ثارت نخوة الامة كما يقول الابراهيمي «فأنشأت بمالها بضعة وتسعين مسجدًا حرًا في سنة واحدة في أمهات المدن والقرى»[60].

وقد نشطت صحف الجمعية ومنابرها الاعلامية في هذه الفترة .. وتغيرت لهجة ابن باديس والجمعية .. حيث أصبحت الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية هي شعارات المرحلة .. وكان هجوم ابن باديس والجمعية صارخًا على الادارة الاستعمارية وكثر الحديث وتركز أكثر حول الحرية والاستقلال .. وقام الخطباء والمعلمون والتلاميذ المنتشرون في كافة أنحاء القطر الجزائري بهذه الرسالة.

وفي المجال الاجتماعي لقد كانتالجمعية معبرًا أصيلًا عن هذا الشعب الذي انتزعت منه أملاكه وعقاراته .. وبالمفهوم الاقتصادي كانت جمعية العلماء من فئة الفقراء المعدمين ما عدا بعض الشخصيات القيادية والتي

(59) نفس المصدر، عدد 18 نوفمبر 1938.
(60) مجلة مجمع اللغة العربية، ص 146.

أنفقت كل ما في وسعها للجمعية ولمدارسها لا كما يحاول أن يقول علي مراد اليساري في كتابه (الاصلاح الاسلامي في الجزائر) حيث يصف نشاط حركة الاصلاح بأنها محاولة لتجميع قوى البرجوازية المتوسطة والصغيرة لاستلام قيادة المجتمع .. إنّ هذا جهل ما بعده جهل بواقع جمعية العلماء .. وواقع المرحلة التي عاشتها جمعية العلماء .. «أي دراسة للطبقة التي جاء منها جل العلماء والتلاميذ تكشف بطلان هذا الافتراء هذا من جهة .. ومن جهة أخرى وكعادة المحللين اليساريين في منطقتنا الاسلامية لا تراهم يدخلون معركة حقيقية من معارك الأمة ويستبد لون الذي هو أدبي وأثقه بالذي هو مركزي وجوهري .. يتحركون مع القضايا بحس تجزيئي ضيق الأفق لا يستوعب قوانين الصراع والمعركة الدائرة بين كل وجود الأمة الاقتصادي والثقافي والحضاري وبين الوجود الاستعماري اقتصاديًا وثقافيًا وحضاريًا وحصروا العملية الاستعمارية لبلادنا في العامل الاقتصادي على اعتبار أن الاستعمار إفراز طبيعي للوضع الرأسمالي مغفلين كل الابعاد الأخرى والرئيسية في هذه العملية .. حيث يشكل العامل الصليبي القاعدة الاساسية التي على أرضيتها تنصاغ مشاريع الغرب تجاه أمتنا .. إنّ مناقشة اليساريين ترينا كم هو التخريب الذي باشرته ثقافة الغرب على عقول المتعلمين من أبنائنا.

لقد تصدت جمعية العلماء المسلمين لكل النظريات الاجتماعية الوافدة مع عسكر الاستعمار والتي ليس من ورائها قصد سوى زحزحة الشعب عن معركته الرئيسية وإدخاله في ساحة الصراع على أرضية الولاء والانتماء لفرنسا.

فكان تصدي جمعية العلماء لهذه النظريات بنفس تصديها للطرقيين .. فهؤلاء يريدون إزاحة الاسلام من المعركة وأولئك يشوهون الدين بالخرافات والأساطير والهدف من وراء عمل هؤلاء وأولئك استمرار الاستعمار والتبعية وذوبان الشخصية الجزائرية العربية الاسلامية.

إذن كان رفضها للنظريات الاجتماعية الغربية التي تموه الراية رفضًا حضاريًا واعيًا لا كما يحاول علي مراد أن يقول أنه ناتج عن تخلف ثقافي حيث (كان الشعب الجزائري يعيش بالفعل حتى بداية الاربعينات حياة العصور الوسطى الثقافية، وكان ما يزال مثقلًا بالمفاهيم البالية في قضايا العمل والاقتصاد والمبادلات الاجتماعية»[61].

إنّ جمعية العلماء أدركت أنّ جوهر الأزمة حضاري وفي جانبه السياسي بالذات وأدركت أن كل ما هو موجود من فقر وجهل وتخلف وتبعية مرده الى وجود الحالة الاستعمارية التي عمدت الى طمس أسباب الحياة في نفوس الجزائريين من ثقافة وعقيدة وعلم .. فلا بدّ إذن من الثقافة والعقيدة والعلم وإدراك أن الجزائر شعبًا وأرضًا ليست فرنسا وذلك لمواجهة الحالة الاستعمارية التي برحيلها ستجر معها كل المآسي التي ألحقتها بالمجتمع الجزائري ..

فالاقطاعيون والقواد والباشوات والأغوات كلها أنماط وليدة للحالة الاستعمارية .. ترحل برحيلها حتمًا .. أم توزيع الثروة فله ضمن المنظومة الفكرية الاسلامية قوانينه التي لن تكون على الاطلاق مستمدة من أي من النظريات الوضعية .. وهذه يمكن حلها مع كل المصاعب التي قد تنشأ بعد الاستقلال السياسي وذلك ضمن اطار الاجتهاد الاسلامي الذي يتسع لكل هموم المسلمين والانسانية ..

76

ومع أنّ المقام لا يتسع لسرد مئات الشواهد عن طبيعة تفكير ابن باديس والرواد معه حول التقدم والنهضة والترقي هذه المصطلحات التي كانت ملازمة لكل توجه خطابي أو كتابي نحو الشعب كما كانت هذه العبارات تطلق على بعض المؤسسات الاجتماعية والثقافية.

(61) علي مراد «الاصلاح الاسلامي في الجزائر»، ص 299 ــ 301.

على كل حال فإنّ الحرب التي كانت تشن من الطبقة المتعفنة الاقطاعية والطرقية ضد جمعية العلماء ما كانت الا لأن الجمعية كانت تمثل خطرًا استراتيجيًا على مصالح هذه الطبقة بل على وجودها كرديف للاستعمار[62]. كما ذكر من قبل بليكوف في كتابه.

طبعًا فهم الاسلام للطبقات ليس هو فهم أي من النظريات الاجتماعية .. إنّ الاسلام جاء لينتزع عنصر الصراع من داخل المجتمع لتعيش الأمة كلها بسلام وأخوة فهو سعادة لكل فئات المجتمع بإلغائه لسلطان المال وهيمنته وتمركزه .. وهذا كله يحتاج حديثًا تفصيليًا وفي موضع آخر.

كان ابن باديس وجمعية العلماء مدركين لأكثر من ذلك وأرحب .. وهم يتصدون لمشاكل مجتمعهم وقضيتهم المركزية مبتعدين عن الانهماك في أي قضية تزحزحهم عن قضيتهم وقصدهم .. كما نبه الى ضرورة التفتح على العلوم والمدنية الحديثة : «هاك ما أن تمسكت به كنت إنسان المدنية ورجل السياسة وسيدًا حقيقيًا يُرمق من كل أحد بعين الاحترام والعظمة .. حافظ على صحتك فهي أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك ولغيرك .. نظف بدنك، نظف ثوبك تبعث الخفة والنشاط في نفسك .. احذر كل (متعيلم) يزهدك في علم من العلوم، فإنّ العلوم كلها أثمرتها العقول لخدمة الانسانية ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة .. كن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل. كن عصريًا في فكرك وفي عملك وفي تجارتك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدكن ورقيك .. احذر من التوحش فإن التوحش في عصر المدينة محكوم عليها طبيعيًا بالتناقض ثم الفناء والاضمحلال والاندثار كما فنيت جميع الأمم المتباعدة عن التمدن والرقي،

(62) «الشهاب»، 23 أوت 1926.

احذر من التعصب الجنسي فإنه أكثر علامة من علامات الهمجية والانحطاط. كن أخًا إنسانيًا لكل جنس من أجناس البشر»(63).

هذه هي القاعدة النظرية الواقعية الحضارية التي كانت تحكم علاقة الحركة الاسلامية في الجزائر بالعصر ومتطلباته .. ومن عليها نشأ اهتمامها بالشباب قوة المستقبل وصنّاعه فبالاضافة للمدارس كانت النوادي والكشافة حيث كانت الكشافة قبل 1930 فرنسية محضة وكانت تضم فرقًا كشفية دينية وعلمانية مثل (الكشافة الكاثولوكية) و (الكشافة الاسرائيلية) و (الكشافة اللائكية)(64) وبعد 1930 أنشأ محمد بوراس عضو الجمعية ورائد الحركة الكشفية الجزائرية أول فوج للكشافة الجزائرية في مدينة مليانة أطلق عليه اسم فوج (الخلود) ثم أنشأ فوجًا آخرًا في العاصمة باسم فوج (الفلاح) .. محمد بوراس الذي أعدمته السلطات الفرنسية سنة 1942 يعتبر أول شهيد للحركة الكشفية الاسلامية الجزائرية(65) التي انطلقت فيما بعد لتشمل مساحة هامة من الفتيان الجزائريين وكان يسيرها معلمو الجمعية وكان شعراء الجمعية يضعون لها أناشيدها الحماسية الاستقلالية ..

والعناية بالمرأة الجزائرية أخذت قسمًا هامًا من نشاط الجمعية : اعتبارها مصنع الرجال «البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال

(63) عبد الحميد بن باديس :

واهزز نفوس الجاهدين فربما حيي الخشب
واقلع جذور الخائنين فمنهم كل العطب
واذق نفوس الظالمين السم يمزج باللهب

(64) (الشيخ عبد الحميد بن باديس)، تركي رابح، ص 293 نقلا عن الشهاب، عدد نوفمبر 1935.

(65) نفس المصدر، ص 328 نقلا عن الشهاب، أوت 1931.

وتدين الأم هو أساس حفظ الدين والخلق والضعف الذي نجده من ناحيتهما في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الاسلامية في البيوت بسبب جهل الامهات وقلة تدينهن»(66).

لقد كانت الحركة الاسلامية بقيادة الامام ابن باديس مدركة خطورة توجه المرأة الجزائرية نحو الثقافة الأجنبية وحدها وعدم اهتمامها بالثقافة العربية المبنية على «الفضيلة والعفة».

وبين الامام أن اقبال الفتاة الجزائرية على المدارس العربية الحرة يدل على أنها «متأهبة الى نفض تلك الأسمال من العرف الذي يوجب على الفتاة حرمانها من المعرفة والثقافة العلمية الدينية الصحيحة ومن كل ما يؤهلها لأن تكون فتاة جديرة بالحياة وأنها سئمت تلك الحالة التي ظلت رازحة تحت أعبائها مدى غير قليل»(67).

«فتحت الجمعية مدارسها للفتيات «فأما البون فلا يدفع منهم واجب التعليم ــ الأجر ــ إلا القادرون وأما البنات فيتعلمن كلهن مجانًا لتتكون منهن ــ بإذن الله ــ المرأة المسلمة المتعلمة(68). وهكذا كان فعلًا.

وهكذا فتح الباب أمام المرأة المسلمة لتتعلم أركان دينها ولغة دينها وتراثها الاسلامي الصحيح فتنشيء أبناءها النشأة الصحيحة المتميزة عن النمط الغربي الفرنسي بل والمحاربة لهذا النمط الدخيل.

بكلمة لقد خاضت جمعية العلماء المعركة في المجال الاجتماعي لتصحيح المفاهيم وتمتين الأواصر وتوحيد الأمة حول قضاياها الأساسية ..

(66) نفس المصدر نقلا عن الشهاب، عدد مارس 1931.

(67) الحركة الكشفية الجزائرية (محمد صالح رمضان)، نقلا عن كتاب جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 229.

(68) نفس المصدر.

وفي أتون المواجهة مع مشاريع التفسيخ والتخريف الاجتماعي كانت تحارب الجمعية أشكال الجهل والتخلف ..

وهكذا التحول والتغيير الذي طرأ على الوضع الديني «الثقافي والعلمي والاجتماعي» شكل في النهاية موقفًا صريحًا .. فكان رأي الجمعية هو رأي الأمة «كان الحرص شد يدًا لدى روَّاد الجمعية أن لا ينبتُّوا بموقفهم عن الرأي العام (فإنّ المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى» وهذا لا يعني أنهم كانوا يجلسون القرفصاء مراقبين التغيير الذي يحدث على الرأي العام. بل إنهم كانوا هم صناع الرأي العام بوعي عميق وعمل دؤوب تنوء به الجبال.

ومنذ سنة 1936 بدأ المؤتمر الاسلامي الهجوم السافر على الحالة الاستعمارية والدعوة الصريحة للثورة والعمل الجاد لنيل الحقوق : «أيها الشعب الجزائري الكريم .. قد بينت لك جمعيتك حقيقة الموقف وحرجه، وكشفت لك شيئًا مما تعانيه أنت وتعانيه هي من الأقرباء والبعداء وهي تدعوك الى التبصر والتثبت والاتحاد والتجمع والتنبه والتيقظ وتحثك على الاعتماد على الله وحده ثم على نفسك والصادقين من أبنائك وما الصادقون الا الذين يحافظون بأقوالهم وأعمالهم ومواقفهم على إسلامك وعروبتك وجميع مقوماتك ويناضلون بالنفس والنفيس عن جميع حقوقك وهم فيك اليوم إن شاء الله كثيرون وسيكونون أكثر والله أكبر !!؟»[69].

77

وفي الرد على الذين طعنوا بموقف الجمعية في المؤتمر الاسلامي المنعقد في 7 حزيران 1936 قال ابن باديس «إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ــ كالمسلمين الجزائريين جبلت على النضال والمقاومة والصبر والمصابرة وقد صبرت لغشم الحكومة وأذنا بها وكيد الاستعمار وجرائده ولله نزال ثم لله نزال.

(69) جريدة البصائر، 20 أوت 1937.

ولقد ولدت الأيام الجارية والظروف الحاضرة مقاومين جددًا ينطحون صخرتها برؤوسهم وينحتون أثلتها ــ الجمعية ــ بأظافرهم المتآكلة ويضربون على نغمات من تقدمهم من أعداء الأمة والجمعية ويخدمون عن علم أو عن غير علم ــ مقاصد من يحاربون في الجمعية روح الاسلام والعروبة هناك في عمالة قسنطينة وهنا في عمالة الجزائر من يعملون لرفع أنفسهم بالحط من الجمعية ويموهون على الأمة بما يقولونه ويفترونه عليها وعلى رجالها فمرة يربطون الجمعية بحزب من الأحزاب الأجنبية والجمعية لا تنتمي لحزب ولا تعادي حزبًا الا من حارب الاسلام والعروبة فإنها تكون عليه ــ كائنًا من كان ــ بلاءً وحربًا ــ ومرة يصمونها بالتدخل في السياسة والجمعية ما تدخلت في سياسة الكراسي والنيابات والمكاتب والممرات .. وإنما وقفت الجمعية في مؤتمر الأمة تصنع مطالب الدين واللغة وشروط المحافظة على الجنسية والشخصية ومثلت ذلك كله بلسانها وهيئتها أصدق تمثيل.

يا هؤلاء !.. إنّ الجمعية ليست عاجزة عن مقاومتكم واظهار خطئكم وكشف باطلكم، ولكنها تعلم ما تحتاج إليه الامة اليوم من اجتماع الكلمة وعدم الفرقة وتوحيد الصفوف فلهذا تركتكم راجية لكم أن تدركوا حقيقة الموقف فتعملوا بما يقتضيه»[70] .. هكذا بدون دخول في معارك جانبية.

في سنة 1938 وفي آخر لقاء لوفد المؤتمر الاسلامي هدد رئيس الحكومة الفرنسية «دلاويه» الجزائريين بقوة فرنسا فرد عليه الامام «ليست هناك سلطة ولا قوة سوى سلطة وقوة الله. قضيتنا عادلة وسنواصل الدفاع عنها ضد كل من يقف في طريقها»[71] .. رفض الامام تأييد فرنسا ضد ألمانيا، وخاطب أصدقاءه المقربين إليه بأنه سيعلن الثورة عندما تحين الفرصة[72] ..

(70) نفس المصدر.

(71) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 181، الجزء الثالث.

(72) نفس المصدر والصفحة.

حددت إقامة ابن باديس ونفي الابراهيمي الى مدينة «أفلو» الصحراوية وظل الامام رهين إقامته الجبرية حتى وفاته في 16 أبريل 1940 .. وظل الابراهيمي في سجنه ثلاث سنوات.

انتقلت الجمعية الى العمل السري .. وفي هذه المرحلة قامت الجمعية بنشاطها السياسي مع فرحات عباس الذي قدم مذكرة 22 ديسمبر الى الحلفاء باسم (ممثلي الجزائر المسلمين) ..

وبعد ذلك أسهمت الجمعية في تشكيل جبهة موحدة في 14 مارس 1944 تضم بعض النواب وحزب الشعب وجمعية العلماء أطلق عليها اسم (أحباب البيان والحرية) كانت مادة قانونها الأساسي الرابعة تدعو صراحة الى إنشاء جمهورية مستقلة في الجزائر مناهضة للاستعمار والامبريالية .. لها علاقة فيدرالية مع فرنسا.

وانضم الى هذه الجبهة أكثر من 500,000 مواطن[73] .. وانعقد مؤتمر الجبهة مرة أخرى في مارس 1945 واقتصر الحضور على أنصار جمعية العلماء وانصار حزب الشعب وكان هذا المؤتمر صورة لمظاهرة حماسية صاخبة وحسب جوليان لم يعد الحديث عن جمهورية مستقلة يجمعها نظام فيدرالي بجمهورية فرنسية بل عن برلمان جزائري وحكومة جزائرية وأعلن المؤتمر بأغلبية ساحقة إننا نريد أن يحتفظ للدولة الجزائرية المقبلة بامكانية الاندماج في النظام الذي ترتضيه[74].

وبعد مجزرة 1945 التي سيأتي ذكرها اعتقل الابراهيمي والتبسي وقيادات أخرى من قيادة الجمعية وبعد الافراج عنهم واصلوا نشاطهم بدأب ووصلت

(73) جوليان، مرجع سابق ص 329.
(74) نفس المصدر ص 330.

لغتهم السياسية الى الجلاء التام حيث أصبح الرأي الشعبي هو رأيهم .. وتصدت الجمعية لمحاولة البعض الذين ترددوا على قصر البوربون : «أيها المترددون على قصر «البوربون» إنه لا طارد كاليأس وقد أيأسوكم فكأنهم طردوكم فارجعوا، ارجعوا وتداعوا الى الاتحاد على الحق الواضع بالمنطق المعقول، فإن القوم قد اتحدوا على هضمكم بالمنطق المسلح ارجعوا واجتمعوا واجمعوا الأمة في مؤتمر واشرحوا لها الحقيقة ورعوا لها الكلمة الاخيرة في تحديد الموقف وتقرير المستقبل .. لا اندماج الا لبعضكم في بعضكم، ولا اتحاد لأجزائكم الطبيعية الا بعضها مع بعض ..»[75] جاء هذا الموقف على لسان الرائد الثاني للجمعية الشيخ البشير الابراهيمي سنة 1947.

وقد جاء في افتتاحية البصائر بقلم الشيخ التبسي سنة 1949 قوله «إنّ الاستعمار حيوان مسلح لا يفهم الا لغة العنف والسلاح».

وها هو شاعر الجمعية شاعر الجزائر العالم المجاهد محمد العيد آل خليفة عام 1950 يحرض على الثورة وبشكل صريح تمامًا[76] :

يا قوم هبوا لاغتنام حياتكم فالعمر ساعات تمر عجالا
الأسر طال بكم فطال عناؤكم فكوا القيود وحطموا الأغلالا

وها هو الشاعر عبد الكريم العقون عضو جمعية العلماء يخاطب أمته قائلًا عام 1947[77] :

(75) دعائم النهضة الوطنية، مرجع سابق، ص 105.
(76) محمد العيد (الديوان) ص 229.
(77) البصائر، العدد 1، سنة 1947، ص 7.

بني وطني أعيدوا مجد قوم أقاموه على أقوى عماد
وأرادوا ما عليكم من حقوق لشعبكم وذودوا كل عاد
فهبوا يا أسود الله واحموه حمى قد بات في أمر الأعادي
وشيدوا مجدكم بجهاد صدق فإن المجد يدرك بالجهاد

أما الشيخ الفاضل أحمد سحنون عضو جمعية العلماء وشاعرها الرقيق وخطيبها الصقيع فيقول في قصيدة له في 1947[78] :

هات من نشء الحمى خير عتاد وادخرهم لغدٍ جند جهاد
هات نشئًا صالحًا يبني العلا ويفك الضاد من أسر الأعادي
صنعه للاسلام شيئًا صارمًا ومثالًا من ذكاءٍ واجتهاد
هاته جندًا قويًا باسلًا أدجى خطب يكن أول فاد
فليكن حاديك تحرير الحمى إن تحرير الحمى للحر حاد

وفي احتفال جماهيري بمناسبة افتتاح دار لجمعية العلماء صدح الشيخ أحمد سحنون بهذه القصيدة عام 1949[79] :

نمضي لتحقيق غايات مقدسة فيها يحاربنا باغ وغدار
سلاحنا الحق والايمان قائدنا وجندنا الصبر لا يعروه إدبار
جمعية العلماء اليوم قد وجدت أداتها فلتسر لم تبق أعذار
فجر الحياة بدأ في الأفق مؤتلقًا تهفو قلوب لمرأة وأبصار
يا فتية الضاد حان الوقت فاطرحوا هذا الونى وانهضوا فالناس قد طاروا
سيروا على نهج آباءٍ لكم سلفوا فانهم في طريق المجد قد ساروا

(78) البصائر، العدد 7، سنة 1947.
(79) البصائر، العدد 54، سنة 1949.

سقوا الزحام الى العلياء واقتحموا أخطارها إنما العلياء أخطار
أرواح آبائكم في الخلد قد هتفت تحرروا فجميع الناس أحرار

وفي احتفال شاهد أقامته جمعية العلماء بمناسبة افتتاح احدى مؤسساتها بمدينة قسنطينة سنة 1953 شاركت فيه وفود من البلاد العربية .. وكما تقول الدكتورة أنيسة بركات : (أنه يوم مشهود تمثلت فيه الجزائر العربية المسلمة) .. وقف رائد الشعر في الجزائر محمد العيد آل خليفة مستبشرًا ومحرضًا[80]

هات البشائر للجزائر هاتها إن الجزائر أبصرت غاياتها
عقدت لها عزماتها فمن الذي غير الإله يحل من عزماتها
وتدفقت كالسيل ليس يردها خذلان قرباها وظلم عداتها
الله أكبر هؤلاء جنودها لبوا لنجدتها نداء دعاتها
نفروا إلى الميدان ليس سلاحهم الا عزائمهم بحد شباتها

وفي قصيدة لهذا الشاعر الفحل في يوم 5 سبتمبر 1954 بمناسبة افتتاح مدرسة باتنة قالها قبل اندلاع الثورة بشهرين وكأنه يقرر أن الثورة على الباب[81] :

بلادي لا تركت إلى بغاة تشينك بالفساد ولا بغايا
اغدى للمعالي السير وامضي ولا تهني بجهدك إن تعايا
فنحن يداك في كسب المعالي ونحن فداك من كل البلايا

وهكذا تشهد السنوات العشر بعد مجزرة 1945 انتقالًا نوعيًا في شكل لغة الجمعية حيث صارت أكثر صراحة في المطالبة بضرورة الثورة للتحرر وطرد المستعمر الكافر .. وكان لهذا الانتقال مبرراته الذاتية والموضوعية.

(80) البصائر، سنة 1954، عدد 249.
(81) محمد العيد (الديوان)، ص 217.

فقد تمكنت الجمعية من بث روح الثورة في ثلاثة أجيال متعاقبة من أبناء الجزائر ونشرت المدارس في كافة الانحاء وانفرزت القيادة الاجتماعية بشكل طبيعي متمثلة في جمعية العلماء .. و تجدد مفهوم الدين والاسلام لدى الفئات المتعلمة وتبع ذلك تبلور أوضاع سياسية وثقافية نقيضية مع الوجود الاستعماري.

وعلى الصعيد الموضوعي فلقد تركت مجزرة 1945 آثارًا عظيمة في نفوس المسلمين وأدركوا أنّ هذا العدو بشع وحيوان مسلح ــ كما وصفه الامام العربي التبسي ــ ولا يمكن أن يفهم الا بلغة السلاح.

في هذه السنوات العشرة إندفعت جمعية العلماء في المساجد والنوادي والمهرجانات تعبىء للثورة وتحرض ضد الوجود الاستعماري الكافر .. أما حزب الشعب الجزائري فقد استطاع أن يتخلص من رؤاه السابقة في (نجم شمال افريقيا) والمتعلقة بالخيارات الأيديولوجية وتبني شعار (الاسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني) نفس ما طرحته جمعية العلماء .. وتقدم جنبًا الى جنب الجمعية رغم مشكلاته الداخلية العاصفة والتي طوحت به في نهاية الأمر.

لم تكن جمعية العلماء حزب إنما كانت قيادة تاريخية لأمة بعثت فيها الروح ووضحت لها السبيل في أحرج مراحلها لذا فقد وصل الأمر في هذه العشرية (إلى تقارب تام بين الجمعية وحزب الشعب فأصبحت بسهولة تجد أعضاء في جمعية العلماء يمارسون النضال السياسي في داخل حزب الشعب دون احساس من هؤلاء بأنهم بين نقيضين)[82].

(82) محمد الطيب العلوي، مرجع سابق، ص 164.

ج) بعض رجال الجمعية :

تكونت جمعية العلماء في 5 مايو سنة 1931 برئاسة الشيخ عبد الحميد ابن باديس الذي انتخبه العلماء للرئاسة بالاجماع وهو غائب وكان مقرها في بداية الأمر في نادي الترقي الموجود في ساحة الشهداء الآن بالعاصمة الجزائر، وبعد الحرب العالمية الثانية أصبح مركزها الخاص دار اشترتها لهذا الغرض بحي القصبة بالعاصمة[83].

وكانت هذه العصبة تتصف بغزارة العلم والوطنية الصحيحة والعمل في انسجام وود قل أن يوجد في الهيآت الأخرى .. مما جعل ابن باديس يسير بمشروعه من مرحلة لأخرى ثابت القدم : «اذا كنت أستمد القوة والحياة فإنما استمدها ممن أولوني شرف الثقة، والاخلاص لديني ولأمتي وأخص منهم الأسود الكبار، وهم أخواني الأقوياء من رجال العلم الذين أجدني مهما وقفت موقفًا الا وجدتهم معي كالأسود»[84] ويقول الامام في موضع آخر : «.. ثم لأخواني العلماء الأفاضل الذين آزروني في العلم من فجر النهضة الى الآن فمن حظ الجزائر السعيد ومن مفاخرها التي تتيه بها على الأقطار أنه لم يجتمع في بلد من بلدان الاسلام فيما رأينا وسمعنا وقرأنا مجموعة من العلماء وافرة الحظ من العلم مؤتلفة القصد والاتجاه مخلصة النية متينة العزائم، متحابة في الحق، مجتمعة القلوب على الاسلام والعربية وقد ألف بينها العلم والعمل ــ مثل ما اجتمع للجزائر في علمائها الأبرار فهؤلاء هم الذين ورى بهم زنادي، وتأثل بطاردهم تلادي أطال الله أعمارهم ورفع أقدارهم»[85] .. وهذه بعض الاشارة عن القليل (ممن هم من أهمهم).

(83) د. تركي رابح، مرجع سابق، ص 167.
(84) د. عمار الطالبي (ابن باديس حياته وآثاره)، ص 144، عن الشهاب، عدد آب 1929.
(85) نفس المصدر، ص 291.

1 ــ الامام الشيخ محمد البشير الابراهيمي : ولد في عام 1889 في قرية (أولاد ابراهيم) بالقرب من مدينة سطيف وتعلم على والده وعمه وأكمل تعليمه في الحجاز بعد هجرته اليها سنة 1911 وقد تعرف عليه ابن باديس في المدينة المنورة سنة 1913 وربطت بينهما صداقة قوية ورؤية استراتيجية للنهوض بالجزائر .. رجع الى الجزائر في عام 1920 وشارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين وكان نائب رئيسها لعدة سنوات وبعد وفاة الامام ابن باديس انتخب رئيسًا لها وقادها بمهارة[86]، وكان الشيخ البشير عالمًا وأديبًا بارعًا وسياسيًا محنكًا وكان قائدًا ميدانيًا حصينًا فهو يرى ضرورة اكتشاف

الواقع السياسي والثقافي والاجتماعي لكي يمكن بعد ذلك الخطو على سلم الاهداف نحو تحقيق الغاية (من أراد أن يخدم هذه الأمة فليقرأها كما يقرأ الكتاب وليدرسها كما تدرس الحقائق العلمية فإذا استقام له ذلك استقام له العمل وآمن الخطأ فيه وضمن النجاح والتمام له) .. في بداية الحرب العالمية الثانية نفي الى (آفلو) كما نفي آخرون من القادة العلماء .. جاب بلاد المشرق العربي شارحًا قضية شعبه ومأساة المسلمين في الجزائر وفاتحًا آفاق لتعليم الطلبة الجزائريين في جامعات المشرق .. عمل مع القوى السياسية للمغرب العربي على إنشاء مؤسسة وجبهة القصد منها العمل مشتركة لتحرير المغرب العربي[87] .. مع اندلاع ثورة نوفمبر أعلن مباشرة تأييد علماء الجزائر للثورة ودعا الشعب الجزائري لاسنادها .. واجه من ضابط المخابرات المصري فتحي الدين مضايقات حقيقية لابعاده عن مركز القيادة[88] .. بعد الاستقلال فرض عليه الاقامة الجبرية وتوفي في إقامته الجبرية في 19 مايو

(86) د. تركي رابح، ص 177.
(87) سينقل بعض الوثائق في الملحق حول هذا الموضوع.
(88) فتحي الذيب «عبد الناصر وثورة الجزائر» في أكثر من موضع.

سنة 1965 وشيعه الشعب الجزائري بالآلاف في جنازة مهيبة الى مقبرة سيدي محمد بالعاصمة.

2 ــ الشيخ الطيب العقبي : (من مواليد سيدي عقبة ولاية بسكرة)

وقد كان من أبرز رجالات جمعية العلماء وهو صحافي قدير وصاحب جريدة (الاصلاح) وقد كان شخصية علمية ممتازة كما كان خطيبًا مصقعًا، ذا بيان وفصاحة لسان .. تولى رئاسة تحرير جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء عند اصدارها فترة من الوقت وكانت دائر عمله هي العاصمة ومنطقتها أما مركز عمله فهو نادي الترقي.

قام بدور نشيط في التهيئة للمؤتمر الاسلامي وفي تسييره وتحقيق تمثيل جمعية العلماء المسلمين للشعب الجزائري وهذا ما دفع مفتي العاصمة للمبالغة في الالحاح بالطلب من السلطات الفرنسية بألا تسمح لجمعية العلماء بتمثيلها للشعب الجزائري .. فنفذت السلطات الفرنسية حادث اغتيال ضد المفتي واعتقلت الطيب العقبي والتف الشعب الجزائري حول الجمعية وتكشف الأمر .. فزادت مصداقية الجمعية وازداد الطيب العقبي قربًا من الجماهير.

3 ــ الشيخ مبارك الميلي : (من مواليد ميلة ولاية قسنطينة)

وهو العالم والأديب والمؤرخ الكبير صاحب مقالات (الشرك ومظاهره) المسلسلة في البصائر وذلك تنقية لمفاهيم الاسلام كما كتب كتاب عن (تاريخ الجزائر) يوضح فيه حلقات الصراع بين المستعمروالمسلمين .. وكتب كتاب ثالث في منتهى الاهمية عن فريضة الجهاد موضحًا فيه رسالة الجهاد وأفضليته .. فهو بذلك يمثل رؤية متكاملة للنضج : كشف الواقع التاريخي

من جهة ومحاربة دواعي الوهن والفشل من جهة ثانية والتحريض على الجهاد ضد المستعمرين من جهة ثالثة.

وهو أحد دعائم جمعية العلماء تولى الامانة العامة لماليتها فترة طويلة من الزمن ... وتولى رئاسة تحرير جريدة البصائر «لسان حال جمعية العلماء المسلمين» .. وساهم بفعالية في تكوين المدارس العربية.

4 ــ الشيخ إبراهيم بيوض : في ولاية غرداية ومدينة القرارة ولد الشيخ الامام ابراهيم بن عمر بيوض في سنة 1899 : بعد استظهاره للقرآن الكريم التحق بمعهد الحاج عمر بن يحي لدراسة الشريعة وأصول الدين والمنطق والبلاغة شارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين وعين عضوًا في إدارتها .. وبعد عام 1937 حيث أسس جمعية الحياة في وادي بني مزاب فرض عليه الاقامة الجبرية أربع سنوات .. قاوم محاولة فصل الصحراء عن الجنوب .. اشترك في ثورة نوفمبر إثر اندلاعها، وقام بالاشراف على استقبال جنود جيش التحرير وجمع السلاح والتموين كما كان محورًا لجميع النشاط الثوري في ميزاب عامة يديره بنفسه وذلك منذ مؤتمر الصومام حتى مارس سنة 1962[89] .. في سنة 1962 عين عضوًا في اللجنة التنفيذية وأسندت له مهام وزارة التربية .. فسر القرآن الكريم كاملاً خلال 45 عام .. وافته المنية في 1981/1/14.

5 ــ الشيخ فضيل الورتلاني[90] : هو (حسنين الفضيل) المولود في فبراير سنة 1955 في دائرة بني ورتلان ولاية سطيف تلقى في أحضان أسرته تربية اسلامية وحفظ القرآن بقريته .. وفي 1926 انتقل الى قسنطينة لمزاولة

(89) الاستاذ عدون جهلان (الشيخ إبراهيم بيوض) جريدة الشعبة، 25 مايو 1986، ص 9.

(90) الأستاذ محمد بن يوسف محميدات (الشيخ الفضيل الورتلاني)، نفس المصدر بتاريخ 27 أبريل 1986، ص 15.

تعليمه الثانوي على يد الامام عبد الحميد بن باديس ثم تولى التدريس بالجمعية الخيرية التي أصبحت فيما بعد لجنة التربية والتعليم .. صاحب استاذه في حلة وترحاله وقد أولاه الامام أهمية خاصة واعتمده في المهام الكبيرة وأوكله في مناسبات كثيرة وقد جال القطر الجزائري في الدعوة الى خط جريدة الشهاب .. وفي سنة 1936 انتدبته الجمعية الى نشر أفكاره بفرنسا وذلك لتوعية العمال الجزائريين بأوروبا وقد أنشأ أكثر من ثلاثين مركزًا في خلال سنتين .. وفي سنة 1940 التحق بالأزهر الشريف وحصل على الشهادة العالمية به .. وفي عام 1949 أسس مكتب للجمعية بالقاهرة .. وكان على صلة عظيمة بالحركة الاسلامية في مصر وبرموزها .. وانتقل الى اليمن واتهم هناك هو والشيخ خليل أبو الحمد بتدبير انقلاب ضد الامام يحيى واعتقلا الى أن قتل الامام يحي واستخلفه ولده الذي عفا عن الشيخين .. وقد كان معرّفًا بالقضية الجزائرية أينما حل كما كان داعية اسلاميًا عظيمًا ذا علاقة بالجماعات الاسلامية والحركات الاسلامية في كل مكان .. مما أغضب عليه فتحي الدين وجعله يحاصره باستمرار مع بداية الثورة .. زيادة على ذلك كان كاتبًا بارعًا وخطيبًا جريئًا ..

هذه أسطر قليلة عن قليل من رجال جمعية العلماء وهو مجرد اشارة الى باب هام من الظلم عدم طرقه اذا ما أريد معرفة تاريخ الجزائر الحديث وذلك لمعرفة من وجهه هذه الوجهة ضد الاستعمار .. كثيرة تلك الرموز من جمعية العلماء الشيخ أبو يعلي الزواوي الشيخ المعموري الشيخ شريحاني الشاعر محمد العيد آل خليف والصحفي الفذ أبو اليقظان والكاتب المبدع رضا صوحو الشيخ عبد اللطيف سلطاني الشيخ مصباح العربي التبسي (سنتناول الحديث بعض من سيرته بعد قليل) .. الحاج أحمد مصطفى الذي واجه التنصير في الجنوب .. والشيخ أبوراس مؤسس الكشافة الاسلامية وأوّل شهدائها .. الخ.

كثيرة الاسماء وجليلة هي أعمالهم ويكاد كل واحد من هؤلاء الاعلام أن يكون مدرسة وحده .. ولرصد حالة جمعية العلماء ونشاطها ودور رجالاتها يحتاج الأمر الى بحث مستقل عسى أن يفي ببعض الشيء عن مرحلة مفصلية في تاريخ الجزائر.

لكن ما يجب التأكد منه يقينًا أنّ جمعية العلماء حددت اطار الصراع وجوهره وطبيعته .. فلم تنشغل بالقضايا التفصيلية الهامشية انما جعلت معركتها الحامية ضد النموذج الحضاري الغربي وذلك بعد أن كشفت عن النموذج الخاص نموذج الأمة الحضاري .. فحاربت قيم الغرب وثقافته ودافعت عن قيم الامة وثقافتها .. وواجهت هيمنة الغرب وصارعتها وهتفت بالحرية والاستقلال ووحدة الأمة .. إطار الصراع هو هذا الغرب المستعمر المهيمن في مواجهة أمتنا المغلوبة وجوهر الصراعي حضاري بين حضارة الشر والظلم وحضارة الخير والعدل .. وطبيعته تفوق تكنولوجي وعلمي غربي وتفوق الارادة والعزيمة الاسلامية رغم العوز في مجالات مادية كثيرة.

فجمعية العلماء بهذا انما هي مشروع حضاري متكامل الرؤية شرعي القيادة لذلك لم نجدها تتوسط في أساليب عمل مستوردة من النمط الغربي كالتشكيلات الحزبية التي كانت سمة تلك المرحلة .. إنما دعت باستمرار الى تجمع علماء الامة الناصحين في جمعية يتناقشون ويتشاورون في خير الامة وخدمة الاسلام ويرسخوا تقاليد الأخوة والشورى بينهم ليسيروا وفق انسجام تام وود عظيم وهذا ما كان فعلًا للجمعية ويشهد تاريخها بذلك.

وعلى الصعيد الآخر .. كانت مع الامة وجهًا لوجه معلمة وداعية ومحرضة ومربية ذائدة عن شرف الاسلام وشرف الجزائر وحقوق المسلمين ..

وحققت بذلك مرجعيتها وقيادتها الطبيعية للأمة وكان رأيها في أي مرحلة من المراحل يعبر عن رأي الاغلبية العظمى من الأمة في الجزائر فلقد كانت خبيرة بواقعها وعلمية في مخاطبة جماهيرها .. ووفق استراتيجية محكمة حققت أعظم أهدافها.

وهذه التجربة التي أرستها جمعية العلماء تكاد تكون الفريدة في تاريخ الامة الاسلامية وهي جديرة بمزيد من البحث والتحليل ولعل الايام تبعث بمن يقوم بهذه المهمة الضرورية.

الباب الثاني

حزب الشعب الجزائري

بعد ما يقارب ستة أعوام على انطلاق (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) أي بعد ما يقارب أربعة وعشرين عامًا عن نشاط الامام ابن باديس ورفاقه في الجزائر .. أعلن عن تأسيس حزب الشعب الجزائري وذلك في 11 مارس 1937 وذلك في باريس بفرنسا حيث وجود المهاجرين والعمال الجزائريين .. وهو ـــ حزب الشعب ـــ امتداد لنجم شمال افريقيا وقد احتفظ في هيئته الادارية بأغلب مسئولي النجم السابقين وأنتخب (مصالي الحاج) رئيسًا للحزب(91).

حافظ الحزب على هيكلية التنظيم السابق من الناحية الشكلية ولكنه من الناحية السياسية يبدو أنّه قد إنكمش جزائريًا بعد أن كان هدف النجم سابقًا «التحرير المادي والفكري لمسلمي شمال افريقيا والاستقلال لشمال افريقيا». ويرجع الاستاذ أحمد الخطيب سبب ذلك الى تأسيس الحزب الحر الدستوري الجديد في تونس، ولجنة العمل المغربي في المغرب عام 1934 .. ولكن يبدو أنّ هناك عاملان مهمان أولهما هو التطورات التي تتفاعل في ساحة الوعي الجماهيري بالجزائر حيث عقد الشعب الجزائري مؤتمره

(91) د. أحمد الخطيب «حزب الشعب الجزائري»، ص 128.

الاسلامي العام في سنة 1936 وحضره مصالي الحاج وإتضح له أهمية العمل في الساحة الجزائرية والثاني تأثير الامير أشكيب أرسلان الذي نصح الحاج مصالي بدخول الجزائر والعمل في أوساط الشعب الجزائري .. حيث كان الأمير اشكيب ارسلان والامام ابن باديس يتفقان بأن لا وحدة عملية بدون حرية سياسية .. فكانت دعوتهما ان يجاهد كل أبناء قطر من الاقطار ويبقوا على ما هم عليه من وحدة روحية ومعنوية ومساعدة .. ولكن الوحدة العملية بشكلها ومضامينها من العبث القول بها قبل الحرية السياسية(92).

الحاج مصالي بن أحمد ولد في مدينة تلمسان بتاريخ 16 ايار 1898 والده أحمد وعائلته فقيرة تعمل بالفلاحة .. تعلم بالمدرسة الفرنسية رغم أن والدته كانت ترغب في تعليمه اللغة العربية والقرآن .. تنقل مصالي من عمل لآخر وهو ما يزال صغيرًا .. يتخلى عن الدراسة ليعمل صبي حلاق ثم عامل حذاء .. ثم يحاول العودة الى الدراسة للتحصل على الشهادة الابتدائية فيفشل في نيلها .. ثم جند في الخدمة الاجبارية أثناء الحرب العالمية الأولى واستقر أخيرًا في (بوردو) .. عاد بعد عام 1920 إلى تلمسان ولم يمكث بها كثيرًا اذ عاد الى فرنسا وتزوج من فتاة فرنسية (إميلي بيسكان) والتي شاركته نضاله وقامت بأعمال حزبية هامة معه(93) .. خلاصة القول أن حياة مصالي الشخصية حياة بائسة معدمة الأمر الذي جعل عبد القادر الحاج علي يعرض عليه الانضمام للحزب الشيوعي واستمر في خلية من خلايا الحزب الشيوعي بفرنسا حتى عام 1927 .. إلا أنّ مصالي الحاج إكتشف أن الحزب الشيوعي يستغل العمال الجزائريين لمصالح فرنسية على أحسن احتمال أو لمصالح الاتحاد السوفيتي في الضغط على الحكومة الفرنسية ..

(92) عبد الحميد بن باديس «الشهاب» يناير 1938، عن الاستاذ محمد الميلي : (ابن باديس وعروبة الجزائر).

(93) د. أحمد الخطيب، مرجع سابق، ص 122.

وهكذا دب الخلاف بين مصالي وعبد القادر الحاج علي وانتهى الأمر بأن حلت الادارة الفرنسية (نجم شمال افريقيا) بتحريض من الحزب الشيوعي سنة 1929 .. فأعلن مصالي عن تأسيس (نجم افريقيا الشمالية المجيد)[94] .. انحصر نشاط النجم في فرنسا .. أما في الجزائر فقد كان نشاطه ضئيلاً جدًا[95] .. إلا أنه بعد هذه الظروف ـــ التي سبقت ـــ اتخذ الحزب سبيله الى الجزائر .. والحزب في هذه الاثناء قد تخلص من العناصر الشيوعية وأصبحت وجهته أكثر من أي فترة وجهة عربية اسلامية .. وصدر للحزب جريدة (الشعب) صدرت كاملة باللغة العربية وذلك في الجزائر وصدر منها عددان الأول يكاد يكون مفقودًا والثاني صودر قبل نزوله الى الاسواق في 20 سبتمبر 1937[96].

واستهل الحزب نشاطه في الجزائر بالمظاهرات والدعوة الى الاضرابات مما أعطاه بعدًا شعبيًا هامًا من البداية مما جعل نشاط الحزب يضم كثيرًا من الشباب المتحمس لقضية شعبه ولذا فما كادت الحرب العالمية الثانية تندلع حتى كانت الأفكار السياسية قد تبلورت في شكلها الوطني في ساحة العمل السياسي ولم يعد من السهل الاقتصار على جانب واحد في أي نشاط فالشخص عضو في جمعية العلماء المسلمين ومناضل في حزب الشعب وقائد في الكشافة الاسلامية[97] .. وبالفعل تطورت الأمور ليحدث التقارب بين الجمعية والحزب تقاربًا كبيرًا وذلك لأن الجمعية قد حققت في مراحلها السابقة معظم مراحل خطتها الاستراتيجية ووصلت الى آخر مراحل هذه الخطة وهي التحريض السياسي وأيضًا أدرك الحزب أنه بدون الاسلام والعربية

(94) نفس المصدر، ص 128.
(95) الأستاذ محمد العلوي، مرجع سابق ص 180.
(96) د. أحمد الخطيب «حزب الشعب الجزائري»، ص 252.
(97) الأستاذ محمد العلوي «مظاهر المقاومة الجزائرية» ص 100.

يبقى كل نضال لا معنى له وبالفعل أصبح هناك صراع في بعض جهات الجزائر في داخل الحزب بين التيار الاسلامي والتيار اللائكي[98] إنما

الصبغة العامة للحزب فقد كانت وطنية عربية اسلامية كانت تتدعم في هذا الاتجاه يومًا بعد يوم حتى انتهى الأمر بتكوين جبهة مشتركة (أحباب الحرية والبيان) بين الجمعية والحزب وبعض الشخصيات الوطنية مثل الدكتور سعدان والصيدلي فرحات عباس ويعتبر الميثاق الصادر عن هذه الجبهة نقطة تحول في النشاط السياسي الجزائري اذ ضمت كل التشكيلات الجزائرية ما عدا الحزب الشيوعي[99] .. وبدأت هذه التشكيلة من يوم اعلانها في بداية سنة 1944 تبث أفكارها وتحشد الانصار وقد سجلت اقبالاً جماهيريًا واسعًا .. واستمر النشاط السياسي وفق هذه التشكيلة الجديدة حتى شهر مايو 1945.

قبل ذلك وقبل اندلاع الحرب العالمية الثانية تم اعتقال الحاج مصالي وبعض قيادات الحزب وأصدرت في حقهم أحكام بالسجن لعدة سنوات لكنهم أخرجوا قبل انقضاء مدة الحكم .. دبَّ الخلاف داخل حزب الشعب بين الزعيم الحاج مصالي واللجنة المركزية للحزب حول كيفية النشاط السياسي .. وتعمق الخلاف وعقد مؤتمر لحل الاشكالات المتفاقمة دون جدوى .. وفي هذا الخضم برز تيار ثالث داخل الحزب تيار يمثله مجموعة من الشباب غير المنحاز للحاج مصالي ولا للجنة المركزية .. فأبرز الحاج تصلبًا غير عادي في مواجهة أزمات الحزب الداخلية واعتبر نفسه هو الشرعية المطلقة وأصطدم بقوانين الطبيعة وسنن التطور .. تفجر الحزب ودبَّ

(98) الاستاذ محمد عباس (مع المناضل بوشبوبة) جريدة الشعب 5 يناير 1987.
(99) الاستاذ محمد العلوي، مرجع سابق، ص 213.

اليأس في النفوس وتشرذمت القوى بداخله .. هذا في الوقت الذي كانت كل القوى السياسية الجزائرية بعد مجزرة 8 ماي 1945 تعيش الأزمة الذاتية — كما سيأتي فيما بعد — .. اندفعت مجموعة من الشباب المؤمن والمتفاني ومعظمهم من الصف الثاني في حزب الشعب ومعظمهم جديد عهد بالحزب إنضم اليه بعد تشكيلة «أحباب الحرية والبيان» .. فكانت الانطلاقة بنوفمبر وكان هذا بمثابة الصخرة العنيدة التي تكسر على جنباتها رأس الحاج مصالي للأسف الشديد .. حيث وقف ضد الثورة .. لقد كان الحاج مصالي صرخة ثائرة صادقة .. ولكنها عندما واجهت الواقع انكمشت وظهرت النفس .. لقد كان الحاج مصالي رمزًا نضاليًا حرًا .. ولم يكن في يوم من الأيام صاحب مشروع أو ذا استراتيجية معلومة المراحل والأهداف القريبة والبعيدة .. عكس ما كان تمامًا عند ابن باديس وجمعية العلماء .. نعم ان الحاج مصالي قد أثرى الحركة السياسية الجزائرية وأصبح في وقت من الأوقات رمزًا هامًا من رموزها العظيمة .. إلا أن الخاتمة لم تكن كما ينبغي .. إنه قصد الحق فأخطأه .. في حين حاولت اللجنة المركزية التداخل مع التشكيلة الجديدة (جبهة التحرير الوطني الجزائري) إلا أن الأخيرة كانت صارمة في موقفها من القوى السياسية مجتمعة وسيأتي الحديث عن هذه النقطة في حينها.

الباب الثالث

أحداث هامة في تاريخ الجزائر

أ) حوادث قسنطينة 1934 : في 3 اغسطس آب 1934 وقع اعتداء من يهود قسنطينة على مسلميها ومع أنه حادث محدود المكان الا أنه ذو معنى عميق اذ أنه يعبر عن حالتين : الحالة الأولى أن يهود الجزائر تحولوا من كونهم اصدقاء حميمين للسمليمن الى اعداء ألداء بعد أن استغلوا قانون (كريميو) الذي منحهم الجنسية الفرنسية في الامعان في الاستخفاف بالمسلمين الى درجة أنه «عندما يسأل يهودي يهوديًا آخر كيف حالك ؟ يجيبه هذا : على أحسن ما يرام محمد يمسح أحذيتي وفاطمة تغسل أرض منزلي»[100] .. وأصبح اليهود أداة للاستعمار الفرنسي لقهر وإبتزاز المسلمين فاستحوذوا على أراضي الجزائريين بالربا حيث تضاعفت حملات حجز الأراضي والممتلكات بعد صدور قرار (كريميو) تضاعفًا مدهشًا .. وأصبح اليهود على رأس الادارات الجمركية والضرائبية .. والحالة الثانية هي تعبير عن مشكلة الجزائر الاسلامية التي بدأت تتحدد معالمها ..

أمَّا الحادث فيصفه الامام ابن باديس[101] : (بينما كان الناس في ميضأة الجامع الأخضر أثر صلاة العشاء ليلة السبت .. اذا باليهودي إليا هو خليفي

(100) الأستاذ محمد الطيب العلوي، مرجع سابق، ص 120 عن صحيفة صدى الأهلي.
(101) الامام إبن باديس الشهاب، شهر أغسطس، 1924، عن (ابن باديس وعروبة الجزائر، ص 108 — 126.

يفاجئهم مطلًا عليهم من نافذة الميضأة .. «فعل دينكم وصلاتكم وجامعكم والكبرا انتاعكم») أشار قيم المسجد على الناس بإبلاغ الشرطة .. لكنها لم تتمكن من اخراجه من البيت فانصرفت بعد أن فرقت الناس .. ولم يتبق في (رحبة الصنوف) وهي امام المسجد الا القدر المعتاد من الناس .. (فأطل اليهودي وزوجته وأخذا في السب مثل السب الأول فأرسل الناس القيم الى المفتي يكف عادية هذا المعتدي بواسطة الحكومة ..) .. (في هذه الساعة إبتدأ اليهود المجاورون برمي الكوانين والبيادين فأجابهم المسلمون برمي الحجارة فشرع اليهود في الرمي بالرصاص) كان موقف الشرطة حاميًا لليهود في هذا الحي (وما تجرأ إلياهو على هذا الا لعلمه بأن نازلته مع المسلمين وقد تعود هو وأمثاله أن نوازل تعديهم على المسلمين في الغالب تطرح وتهمل). (وانتهت المصيبة نحو الساعة الثالثة صباحًا). وتحرك الامام ابن باديس ليهدأ المدينة الهائجة ونبَّه حبر اليهود الى تجاوزات اليهود وغض الظرف من قبل المسلمين (.. وقبلها اعتداؤهم ــ اليهود ــ علي وعلي مدير مجلة الشهاب السيد أحمد بوشمال وسترنا الواقعة حتى لا يقع بها الشر) .. وجمع الامام ابن باديس الناس في الجامع الكبير مساء السبت وهدأ مجموع الناس الهائجة حيث أصيب في نفس اليوم أعداد من المسلمين بالجراح إثر إطلاق الرصاص عليهم .. وفي يوم الأحد 5 اغسطس «فما كدنا نشرع في المحاضرة حتى جاءنا من أخبرنا أن اليهود اطلقوا الرصاص في جهة (رحبة الصوف) وأن الفتنة قد وقعت وأخذنا إثر ذلك نسمع في طلق الرصاص المرات الكثيرة ..» فسقط من المسلمين قتلى وجرحى كثر نتيجة هذه المفاجأة فهاج الناس وماجت (الأنهج بهم وكثر ضرب اليهود بالرصاص من النوافذ فانكب الناس على دكاكين اليهود التي كانت مقفلة يوم الأحد يكسرون أبوابها ويمزقون ما فيها من قماش ويهشمون ما فيها من أثاث ويمزقون الأوراق المالية واطلقوا النار في بعضها وقتلوا نيفًا وعشرين نفسًا وفرغوا من

عملهم هذا نحو الساعة الثانية مساء) (وفي ليلة الاثنين جدد اليهود اعتداءهم على بيوت الله) وكان للامام ابن باديس دور عظيم في تهدئة الفتنة (واتفقوا على أن أقوم خطيبًا في كل نهج من الأنهج الكبرى الاسلامية لأخطب في الناس بذلك فوقفنا بضعة عشر موقفًا ألقيت فيها بضع عشرة خطبة أخاطب فيها الناس باسم الوفد وأدعوهم الى السكينة والهدوء وأذكرهم بآداب الاسلام .. وكان الله ــ وله الحمد ــ يفتح في كل موقف بفن من فنون التذكير وكان اخواني المسلمون ــ جعلني الله فداءهم ــ يلتقون بنا في كل موقف ويبدون من الاستماع للوعظ والانقياد للخير ما عرفني بما تنطوي عليه تلك الصدور المحمدية الطيبة من الروح الاسلامية الشريفة والآداب الدينية العالية الكامنة فيهم التي لا يحتاج في اظهارها الا لكلمة صادقة عن نية خالصة. وكان كل موقف يختم بإعطاء كلمتهم بأن لا يكون منهم سوء وبالدعاء للجميع) وبعد أن شرح الامام مواجهة المسلمين للحدث لضبط النفس والالتزام بالوعد .. وكيفية مواجهة كبراء اليهود للحدث .. اختتم تعليقه الشامل بوصف عملية الدفن (دفن اليهود قتلاهم في مشهدٍ حافل أما قتلانا فإنهم دفنوا دون أن يشيعهم أحد ودون أن تقال عليهم كلمة ودون أن تراق عليهم دمعة. علمنا أنهم يدفنون هكذا وسكتنا ــ لا لهون المصاب علينا ولا لقلة ألمنا وحزننا ــ ولكن موافقة للارادة على تجنب كل ما قد يثير العواطف ويكون مخيف العاقبة، وعلمت الامة بهذا ورضيت به انقيادًا لرجالها لما لها بهم من الثقة وإظهارًا لما عندها من الرغبة في الهدوء والسكينة والتغلب على العاطفة أمام ما فيه مصلحة عامة).

وهكذا يواجه الامام هذه الفتنة وبنفس الروح التي واجهها بها الأمير الفارس عبد القادر الحسني في دمشق .. إنها روح الاسلام على مرِّ العصور روح السماحة والامان لأهل الذمة ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وتاريخ الاسلام شاهد لهذه الروح بأنصع الصفحات .. فكيف كان الحال لو أنّ عامة المسلمين كانت للعلمانيين ؟. إنها حين ذاك مجازر تلو مجازر ! تبدد الطاقات وتورث الاحقاد.

لقد ختم الامام تعليقه بقوله «إننا بعد ذلك نأسف ونألم على ما يصيب الانسان من أخيه الانسان وعلى أن تجرى هذه الحوادث بين عنصرين ساميين إبراهيميين عاشا قرونًا في وطن واحد، دون أن يشهدا مثلها، ونسأل الله تعالى أن يبطل كيد الظالمين، ويرد شر المعتدين عن الخلق أجمعين وأن يرحم المستضعفين وينصر المظلومين من جميع العالمين» .. لقد انتهت هذه الحوادث بأن نبهت المسلمين الى ضرورة اليقظة وفرض وجودهم المعنوي والمادي وضرورة وجود قيادة حكيمة كما نبهت الاستعماريين أنّ المسلمين يقظين لما يراد لهم من إلهاء وإدخال في معارك جانبية مع جيرانهم اليهود.

.. إلا أن لهذه الحوادث ــ حوادث قسنطينة ــ امتدادات خلال حرب التحرير الوطني اذ ارتكبت بعض يهود قسنطينة يوم 12 مايو 1956 مجازر رهيبة ضد الجزائريين مستغلين ظروف الحرب[102].

ب) المؤتمر الاسلامي سنة 1936 :

في يوم 7 يونيو 1936 عقد المؤتمر الاسلامي الأول في صالة (الماجستيك) الفسيحة بالجزائر العاصمة .. حيث دعا الامام ابن باديس الى عقد مؤتمر عام للمسلمين في الجزائر[103] تمثله العمالات الثلاث (وهران)، (الجزائر) و (قسنطينة) يُدعى اليه النواب المسلمين المنتخبين والشخصيات الوطنية المستقلة والاحزاب السياسية الجزائرية.

(102) الأستاذ محمد الميلي، المرجع السابق، ص 107.

(103) (البصائر) 23 أكتوبر 1936 «كيف تكون المؤتمر الاسلامي» وذلك بتوقيع : خبير بما هنالك.

ونترك وصف المؤتمر للامام البشير الابراهيمي : «لم يمض على الجزائر الاسلامية في تاريخ ارتباطها السياسي بفرنسا يوم أغر محجل تمثلت فيه الأمة روحًا وجسمًا وتلاشت فيه الفوارق الاعتبارية كهذا اليوم ففيه التقى ــ عن فكرة وعقيدة ــ الجزائري بأخويه القسنطيني والوهراني وفيه اجتمع ــ على تلك الفكرة ــ المصلحون والطرقيون وعلماء الدين ورجال السياسة والشيوخ والشبان والتجار والفلاحون والعمال جمعت الكل صفتا الاسلام والجزائرية ووحدتهم قسوة الايام وألفت بينهم المحن والهموم، فاندفعت السنتهم تعبر عن رغائب الدين بلغة الدين وعن رغائب الدنيا بلغة السياسة .. والنقطة التي يلتقي عندها الكل هي الاسلام والجزائرية لذلك كان ضروريًا أن يكون مدار البحث على الاسلام ولسانه والمسلم وحقوقه في الحياة»[104].

هذا المؤتمر الذي أعد بنشاط ودأب من قبل تلامذة الاستاذ عبد الحميد (وسرعان ما قام تلامذة الاستاذ عبد الحميد في قسنطينة وأنصار دعوته بتأسيس اللجنة التحضيرية لابراز هذه الفكرة من حيز القول الى حيز الفعل)[105] .. «سبق يوم المؤتمر يوم تمهيدي بنادي الترقي اجتمع فيه انصار المؤتمر من شبان العمالات الثلاث .. وكم كان جميلا من أولئك الشبان ومن أولئك النواب أن يلوذوا بجمعية العلماء المسلمين ويسترشدوا بها ويمزجوا رأيها برأيهم ويظهروا مجتمعين على معنى الوفاء لها والاخلاص لمبادئها والاعتراف بفضلها على هذه الأمة فيما أيقظت من مشاعر ونبهت من احساسات وجمعت على المصلحة العامة من قلوب»[106] وكان نادي الترقي مركز جمعية العلماء المسلمين بالجزائر محور النشاط[107] ..

(104) الامام البشير الإبراهيمي (البصائر)، 12 يونيو 1936 (المؤتمر الاسلامي الجزائري).

(105) (البصائر) 23 أكتوبر 1936، مصدر سابق.

(106) البشير الابراهيمي، المصدر السابق.

(107) الأستاذ محمد الطيب البلوي، مصدر سابق، ص 137.

وتمثل في هذا المؤتمر نواب العمالات الثلاث والحزب الشيوعي والطرقيون وجمعية العلماء المسلمين ومن البداية أصر ابن جلول أن يكون رئيسًا لهذا المؤتمر فتعهد له الشيخ الطيب العقبي بذلك(108). وابن جلول وأنصاره اندماجيون لا يرون حلًا جذريًا للمشكل الجزائري الا بالاندماج التام بلا قيد ولا شرط وكل ما كان يريده من وراء المؤتمر أن يحصل على شعبية وزعامة(109) ولذا فسريعًا ما سيسقط كما سنكتشف بعد قليل عندما أعلن الحرب على جمعية العلماء المسلمين بتوجيه استعماري.

أما الحزب الشيوعي فقد كان يهدف من وراء هذا التجمع ايجاد أرضية واسعة في الجزائر له .. مع السعي للحصول على تأييد واسع يمكنه من تدعيم الموقف اليساري الفرنسي في جبهته وحكومته، ولهذا فاتجاهه أساسًا اندماجي، يعارض كل فكرة من شأنها الاشارة للانفصال عن فرنسا .. فقد صدف هذا المؤتمر وجود الجبهة الاشتراكية في الحكم .. وما كان قبوله لنقاط العربية والاسلام في كراسة مطالب المؤتمر الا تكتيكًا ومناورة .. أما حزب (نجم شمال افريقيا) فلم يتمثل في المؤتمر وذلك لأنه لا فعالية له في ذلك الحين في الجزائر إذ كانت الساحة الفرنسية مركز نشاطاته .. الا أنه حضر في المؤتمر الثاني بصفة مراقب .. وقد القى مصالي في المؤتمر خطابًا هامًا.

وبرغم وجود تيار النخبة (ابن جلول وابن التهامي وعباس فرحات وغيرهم) من دعاة الاندماج وكذلك بالرغم من حضور الحزب الشيوعي الا أن المؤتمر تسمى «بالمؤتمر الاسلامي» وكراس المطالب الذي تقدم به المؤتمر لم

(108) البصائر، 23 أكتوبر 1936، مصدر سابق.
(109) الأستاذ محمد الطيب، مصدر سابق، ص 128.

يتضمن كلمة اندماج .. وطالب بحق الانتخاب على اختلاف الاجناس وذلك حقًا لكل مسلم.

ويصف الامام الشيخ البشير الابراهيمي سير المؤتمر وكيف وقف النواب يتناوبون الكلمات وأعلنوا في خطبهم موقفهم الجديد من قضية التمثيل البرلماني (ومنها التمثيل في البرلمان لا على أسس البرامج الشخصية الرائجة بل على أسس المساواة التامة والتعميم التام، والمحافظة التامة على الأحوال الذاتية الاسلامية بحيث ينتخب الجزائريون على اختلاف أجناسهم نائبًا واحدًا ويكون حق الانتخاب البرلماني حقًا لكل مسلم جزائري .. مع المحافظة والاعتراف للمسلم الجزائري بذاتيته الشخصية الاسلامية وأحكامه الاسلامية). «ثم انتهى دور الخطابة الى العلماء فخطب الامام ابن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين خطبة مؤثرة نوه فيها بقيمة هذا المؤتمر في تاريخ الجزائر. فعلا الهتاف والتصفيق ثم تخلص الى ذكر المطالب الخاصة بالدين واللغة العربية فشرحها للناس شرحًا وافيًا وأعلن أنه قدم بخلاصة تلك المطالب تقريرًا لمكتب المؤتمر لينظمه مع المطالب الجزائرية، وتقدم للحاضرين بأن يرفعوا أيديهم أن كانوا موافقين على هذه المطالب فارتفعت في لحظة واحدة سعبة آلاف يد ــ وهي أيدي الحضور جميعًا ــ وعلا الهتاف».

ثم نشأت عن المؤتمر تكوين لجنة العمالات الثلاث وهي المعبر عنها بلجنة (66) ثم كانت اللجنة التنفيذية التي هي لجنة (21) عضوًا وهذه عينت أعضاء الوفد الذي سافر الى باريس مطالبًا الحكومة الفرنسية بالحقوق ومقدمًا لها مطالب المؤتمر الاسلامي) وشارك العلماء ابن باديس والابراهيمي والعقبي في هذا الوفد .. ويختم الابراهيمي تقريره بقوله «إنّ هذا المؤتمر هو حجر الاساس في بناء مستقبل الأمة ولا يبني مستقبل الأمة إلا الأمة».

نترك رحلة الوفد لفرنسا والتفصيلات الجزئية وهي جميعًا موثقة في كثير من الكتب؛ ما يهمنا هنا ملاحظة ظرفية هذا المؤتمر .. لقد جاء المؤتمر كما عبر الابراهيمي حجر أساس لمرحلة قادمة وذلك بالنسبة لنشاط الجمعية كما للحالة السياسية الجزائرية بشكل عام.

لقد كان المؤتمر كما عبر عن ذلك الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه (الحركة الوطنية الجزائرية) : (أول تجمع من نوعه في الجزائر، فلم تشهد الجزائر طيلة أكثر من قرن مؤتمر تجتمع فيه كل الاتجاهات وتمثل فيه كل الطبقات وتبرز خلاله وحدة الصف والكلمة على مطالب معينة كما حدث في المؤتمر المذكور).

لكن هل كانت جمعية العلماء ترى أن هذا المؤتمر هو سقف جهدها وآمالها وما انبثق عنه من مطالب غاية ما تناضل من أجله كما كان بالنسبة للآخرين ؟. يبدو أنّ هذا يحتاج الى تقصي أراء قادة الجمعية حول المؤتمر نفسه .. ثم نشاطهم بعد المؤتمر .. يباشرنا الشيخ الابراهيمي بقوله (أيها الاخوان ان جمعيتكم تفخر بأنها نجحت في جمع طوائف عظيمة من الامة الجزائرية على الحق بعد أن كانت متفرقة على الباطل واستطاعت أن تعلمهم معنى الاجتماع وحضور المجتمعات بعد أن كانت لا تجتمع الا على شر أو مأتم» .. إذن فمجرد النجاح في عقد المؤتمر وجمع الكلمة وتوحيد الصف كان هدفًا عظيمًا في خطة العلماء .. جاء المؤتمر بعد مرحلة قدر فيهما العلماء أنهم (قد نجحوا في الدعوة الى العلم والاخلاق والاخوة الاسلامية وأنهم انتصروا على الخرافة والاوهام وأنهم أفلحوا في تربية الأمة على عدم الخوف الا من الله والرهبة الا منه).

لذلك كان لابد من مرحلة جديدة .. وما كان كل الحماس الذي ساد المؤتمر يصرف العلماء عن إدراكهم لطبيعة الصراع واعدادهم لمرحلة قادمة

صعبة .. بدليل ان مجلة الشهاب كتبت في نفس العدد الذي خصصته للمؤتمر قائلة : «لكنني اعتقد ــ وأود لو أن الواقع لو يكون خلاف اعتقادي ــ إنّ الوفد سيرجع بتحقيقات طفيفة ووعود جزيلة ثم تمر الايام ولا تتحقق الوعود ولربما كان رد الفعل يومئذ شديدًا اذ تفقد الأمة ثقتها في فرنسا حكومة وشعبًا وأحزابًا» .. لذا نرى عقب عودة الوفد دُعيَّ الناس الى الملعب البلدي بالعاصمة يوم 2 اغسطس ليقدم الوفد نتائج رحلته واتصالاته بالجهات المسؤولة في فرنسا .. اجتمع في ذلك اليوم (ما يزيد عن العشرين ألفًا من أشبال الجزائر جاءوا من كل حدب وصوب) ..

وقف الامام ابن باديس في هذا اليوم التاريخي ليعلن «أيها الشعب الجزائري التاريخي القديم المسلم الصميم كلمته من كلمة الله وإرادته من إرادة الله وقوته من قوة الله .. أيها الشعب انك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية هائم بها تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا الحاملين للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيا ونموت لأجلها.

اننا مددنا الى الحكومة الفرنسية أيدينا وفتحنا قلوبنا فإن مدت الينا يدها وملأت بالحب قلوبنا فهو المراد وإن ضيعت فرنسا فرصتها هذه فإننا نقبض أيدينا ونغلق قلوبنا فلا نفتحها الى الأبد .. أيها الشعب لقد عملت وأنت في أول عملك ودم على العمل وحافظ على النظام واعلم أن عملك هذا على جلالته ما هو الا خطوة ووثبة ووراءه خطوات ووثبات وبعدها إما الحياة وإما الممات».

ولذلك نرى الامام في المؤتمر الخامس للجمعية بعد أن بويع من جديد لقيادتها يقول : «اخواني قدمتموني للرئاسة وهذا اعتراف منكم بأن أبقى على

ما كنت عليه، فأنا رجل مسلم ورجل وطني. كل حواسي وكل عقلي هو لخدمة وطني. نعم أخدمه وأدرجه حتى لا يكون هنالك اندحار ولا انهيار.

إنّ ميدان العمل في هذا الجمعية لميدان واسع وهنالك للعمل ميادين أخرى لا أدخلها بإسمها ولكن (إن كان فيها منفعة) أدخلها باسمي ــ إن كان عند قومي قيمة لاسمي ــ وأرجوا أن يعينني الله عليها.

أيها الاخوان ! إن على كل رئيس حقًا وقد قال الاحنف بن قيس :

إن على كل رئيس حقًا أن يخضب الصعدة أو تندقا

والصعدة هي الرمح يريد أنها تخضب بالدماء أو تنكسر وتندق في يده أثناء محاربته للاعداء. ولكن صعدتنا نحن التي نخضبها هي القلم (وخضابة الحبر) ولكنه لا يندق هذا القلم حتى تندق أمامه جبال من الباطل وإنّ من الحق أن نتأدب بالأدب النبوي ومنه أن لا نتمنى لقاء العدو فإذا لقيناهم فلنصبر وإن الله معنا .. اخواني .. إنّ لنا آمالًا تتبعها أعمال، ونسأل الله أن يجعلنا حي أعمال لا حي أقوال. صدق الله أعمالنا وأقوالنا).

وها هو شاعر الجزائر الفحل أمير البيان بالشمال الأفريقي قاطبة محي العيد يقول معبرًا عن المرحلة محرضًا لوحدة الصف :

قف حيث شعبك مهما كان موقفه ... أو لا فإنك عضو منه منحسم
تقول أضحى شتيت الرأي منقسمًا ... وأنت عنه شتيت الرأي منقسم
فكن مع الشعب في قولٍ وفي عملٍ ... إن كنت بالرجل الشعبي تتسم
ولا يرقك شفيف الذات مائعها ... كالماء فيه وجوه الناس ترتسم
أعدى عدى القوم من يعزى لهم نسبًا ... ويسمع القدح فيهم وهو يبتسم

وها هي (البصائر) في نفس العام تنشر قصيدة (الى الامام) :

قرع الطبل مؤذنًا بالرحيل ... ودعا البوق للنضال الطويل
ها هو الشعب قد عدا يدفع الغا ... رة عنه من العدو الدخيل
قد فتحنا لنا سبيلًا خضيبًا ... بالدم الحر يا له من سبيل
هل درى الزاحفون أنا خبأنا ... لهم الموت في ثنايا النصول
سوف نذروهم بداد ويبقى ... عزنا لم يصبه عار الأفول
طبت يا قبر منزلًا ومقرًا ... إن تكن باب فوزنا المأمول

وفي الاجتماع السالف الذكر ــ مؤتمر الجمعية الخامس ــ وقف رئيس نادي العمل الاسلامي وكاتب شعبة جمعية العلماء بسكيكدة قائلا :

«سادتي العظام ! فإن سأل سائل .. ما هي غاتيكم وما هي منالتكم المنشودة ؟! نجيبه بكل صراحة «غايتنا الوحيدة وضالتنا المنشودة ــ رغم أنف مستبد وظالم ــ المحافظة على الذاتية الجزائرية الاسلامية المحافظة على الدين الاسلامي، المحافظة على لغته الاسلامية، المحافظة على التقاليد والمدنية الاسلامية، المحافظة على تاريخ الوطن» ويواصل الامام تأصيل المواقف الجديدة وشرحها وفق أيديولوجية مستوعبة الخطة والمراحل فيكتب مقالًا في غاية الاهمية تحت عنوان «لمن أعيش ؟!» ويجيب «أعيش للاسلام والجزائر» ويشرح بعمق ضرورة وقف الحياة خدمة للاسلام دين الرحمة والعدل ثم يفسر الشطر الثاني من الاجابة بمنطقية رائعة ويختم مقاله الهام «فنحن اذا كنا نخدم الجزائر فلسنا نخدمها على حساب غيرها ولا للاضرار بسواها ــ معاذ الله ــ ولكن لننفعها وننفع ما اتصل بها من أوطان الأقرب فالأقرب هذا أيها الاخوان هو مرادي بقولي أنني أعيش للجزائر .. والآن ــ أيها الاخوان ــ وقد فهمتموني وعرفتم سمو فكرة العيش للاسلام

وللجزائر فهل تعيشون مثلي للاسلام والجزائر ؟ ــ نعم ! نعم ! (بصوت واحد) ــ فلنقل كلنا : ليحيا الاسلام ! لتحيا الجزائر».

ويصعد الامام من لهجته وها هو يظهر قيمة الجنسية السياسية «ومن الممكن أن يدوم الاتحاد بين شعبين مختلفين في الجنسية القومية اذا تناصفا وتخالصا فيها ارتبطا به من الجنسية السياسية التي قضت بها الظروف واقتضتها المصلحة المشتركة. فإذا لم يرتبطا بالجنسية السياسية فلا بدّ لها ــ مهما طال الأمد ــ من أحد أمرين : أما أن يندمج اضعفهما في أقواهما بانسلاخه من مقوماته ومميزاته فينعدم من الوجود. وإما أن يبقى الضعيف محافظًا على مقوماته ومميزاته فيؤول أمره ــ ولا بدّ ــ الا الانفصال.

وبعد فنحن الامة الجزائرية لنا جميع المقومات والمميزات لجنسيتنا القومية وقد دلت تجارب الزمان والاحوال على أننا من أشد الناس محافظة على هذه الجنسية القومية وأننا ما زدنا على الزمان الا قوة فيها وتشبثًا بأهدابها وأنه من المستحيل إضعافنا فيها فضلًا عن ادماجنا أو محونا .. ولهذا اعتبرت الأمة مشروع (بلوم ــ فيوليت) قليلًا جدًا بالنسبة لحقوقها وانما تقبله اليوم كخطوة أولى فقط يجب بعد تنفيذها أن يقع الاسراع في بقية الخطوات الى تحقيق التساوي التام العام الذي هو الشرط الطبيعي في سنن الاجتماع في بقاء الارتباط بصفاء واخلاص واذا لم يكن فلا عتب على الزمان وما شاء الله كان» ثم يواصل الحديث محملًا المسؤولية لفرنسا قائلًا «إننا بكلامنا هذا نعرب عن فكرة الأكثرية العظمى من الأمة الاسلامية الجزائرية. ونعلن أنّ هنالك من لا يرضيهم هذا ومن لهم نظرات أخرى لها حظها من الاعتبار واننا نتحقق أن الموقف الذي يقفه البرلمان الفرنسي يوم تعرض عليه المسألة هو الذي يوجه الأمة الجزائرية أحدى الوجهتين فالمستقبل بيده. والأمر لله من قبل ومن بعد».

وبعد ستة أشهر يتصاعد الموقف «أما الذين ينظرون الينا من الخارج نظر الحاكم على الأمر بما يبدو ومن أعمالها وسيرها فإنهم يقولون .. إن فرنسا تعدو تخلف لأنها رأت مصلحتها في الاخلاق ولا يرجى منها إقلاع عنه ما دامت تعتقد مصلحتها فيه والجزائر تنخدع وتطمع، ويمكن أن يطول انخداعها ويستمر طمعها ويمكن أن ينجلي لها سراب الغرور فتقلع عن الانخداع وتقطع حبل الطمع وتتصل باليأس وما يثمره اليأس ويقتضيه، وأما نحن ــ الجزائريين ــ فإننا نعلم من أنفسنا أننا أدركنا هذا الاخلاق العرقوبي وأدركنا مغزاه وأخذ بتلابيب كثير منا وهو يكاد يعم ولا تتردد في أنه قد آن أوانه ودقت ساعته .. ماذا تريد فرنسا من مماطلتنا ؟.. كذب رأي السياسة وساء فألها كلا والله لا تسلمنا المماطلة الى الضجر الذي يقعد بنا عن العمل، وانما تدفعنا الى اليأس الذي يدفعنا الى المغامرة والتضحية..».

أيها الشعب الجزائري .. أيها الشعب المسلم .. أيها الشعب العربي الأبي .. استوح الاسلام ثم استوح تاريخك ثم استوح قلبك .. اعتمد على الله ثم على نفسك وسلام الله عليك».

وتتصاعد اللهجة وها هي كلمة أخرى للامام في الرد على جريدة (الطان) وهو رد يقصد الادارة الاستعمارية مجتمعه «إسمعوا .. إننا لن نرضيكم أبدًا وأننا لن نعمل على إرضائكم. إننا لن نشارككم أبدًا ولن نعمل عملًا يوقعنا تحت طائلة أيديكم، نحن سائرون على منهاجنا وفي طريقنا. لا يضرنا صراخكم ولا ينفعنا سكوتكم فقولوا ما شئتم، فلن تنالوا منا منالًا ولن تتزعزع عقيدتنا. إنما ننصحكم نصيحة خالصة أن لا تعودوا لمثل هذا العمل الممقوت، فسياسة وخز الدبابيس تنتهي غالبًا بفقد الشعب لصبره واخراج الحليم عن حلمه وإننا لنسد في أوجهكم هذا الباب وأن كسرتموه فالأمر بعدئذ لله».

وفي نفس المنحنى يخاطب الامام الأمة قائلًا «أيتها الأمة الكريمة .. أيها النواب الكرام .. حرام على عزتنا القومية وشرفنا الاسلامي أن نبقى فترامى على أبواب برلمان أمة ترى أكثريتها ذلك كثيرًا علينا .. ويسمعنا كثير منها في شخصيتنا الاسلامية ما يمس كرامتنا ويجرح أعز شيء لدينا.

أيتها الأمة الكريمة أيها النواب الكرام .. تناسوا الحزازات، امحقوا الشخصيات، برهنوا للعالم أنكم أمة تستحق الحياة، برهنوا لفرنسا ــ (أيها النواب) ــ أنكم كما وقفتم معها في الحرب صفا واحدًا تدافعون عنها تقفون في السلم صفًا واحدًا تدفعون الآنانيين ــ (الاستعماريين) ــ الذين هم مثل أعدائها.

86

هذا وأنا كمسلم جزائري أديت الواجب الثاني من واجباتي في الوقت الحاضر والله المستعان على القيام ببقيتها وعليكم السلام من أخيكم).

ولم تنته سنة 1937 حتى يصرح الامام : «الشمال الافريقي كيف يجب أن يعالج ؟.. أما لعلاج فقد كادت كلمة القوم ــ الساسة الفرنسيون ــ تتفق على أنه الضغط والارهاق واستعمال القوة والشدة وماذا نقول نحن في هذا العلاج ؟.

نقول ــ بالصدق والصراحة التي تعرفهما منا الدوائر الحكومية ــ أنه علاج يسكن الشعب شيئًا ما حينًا ما ولكنه يزرع في القلوب بغضًا وحقدًا ويملأ الصدور ثورة وحماسًا وما مآل ذلك بطبيعة الامتلاء وطول الزمان الا الانفجار ولا يدري الا الله على من تكون عواقب ذلك الانفجار. هذا ما يفكره الساسة في الداء والعلاج وقد زيفناه (كشفنا زيفه). أما نحن ــ ونحن أعرف بأنفسنا ــ فإننا نتيقن أنّ هذه الأمم الاسلامية العربية استيقظت من سباتها وهبت للنهوض من كبوتها، وشعرت لكرامتها وأخذت تذكر ماضيها

أيام حريتها واستقلالها، وهو غير بعيد في الماضي عنها؛ فانبعثت تعمل لفك قيودها ونيل حريتها وتبوء منزلتها اللائقة بها كسائر الأمم التي ليست هي ــ في قوميتها وتاريخها ــ دونها».

ثم ها هو يهتف في عام 1938 «فلتسقط الروح الاستعمارية ولتندحر ولترتفع الروح الانسانية ولتنتشر».

وأختم هذه الشواهد على تصاعد اللهجة السياسية عند الامام والجمعية منذ المؤتمر الاسلامي الأول وكمرحلة تحريض سياسية واسعة دخلتها الجمعية .. بهذه الكلمة للامام تحت عنوان : «الشعب الجزائري لن يموت» سنة 1929 : «لقد أعطانا الله من هذا الدين الانساني من هذا الدين العقلي الروحي ما يكمل عقولنا، ويهذب أرواحنا. أعطانا منه ما لم يعط لغيرنا، لنكون قادة وسادة. وأعطانا وطنًا شاسعًا واسعًا، مثل ما لغيرنا فنحن شعب ماجد عظيم يعتز بدينه، يعتز بقوميته يستطيع أن يكون في الرقي واحدًا من هذه الشعوب. ولنا من تاريخه الحافل ما يجعلنا نؤمن بصدق معتقدنا فيه.

إننا نعتصم بالحق ونعتصم بالتواضع عندما نقول : إننا شعب خالد ككثير من الشعوب. ولكننا ننصف التاريخ إذا قلنا : إننا سبقناها في ميادين الحياة، سبقناها بهدايتنا ونشرنا بينها الشريعة الحقة قبل أن تتكون هذه الأمم وسبقنا هذه الأمم في نشر الحق أيام كانت في ظلمات من الجهل الحالكة أيام كانت تسبح في لجج من الأوهام والخيالات. وذلك ما كنا فيه وما سنعود إن شاء الله إليه وإنما علينا أن نعرف تاريخنا، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة به في هذا الوجود .. إنني إبتدأت حديثي بالثقة والاعتماد على النفس وأختمه بهما، فثقوا بأنفسكم وثقوا بالله، واعتمدوا عليه وعلى أنفسكم واعملوا وكونوا خير خلف لخير سلف».

وفي نفس الاتجاه يمكن رصد نشاطات الجمعية وقياداتها الابراهيمي والتبسي والعقبي وغيرهم من العلماء الأماجد ـــ رضوان الله عليهم ـــ وشعراء الجمعية شعراء الجزائر العظام رحمهم الله .. إنه كان اتجاهًا تصاعديًا بالوعي الجماهيري نحو الصدام الحتمي بالحالة الاستعمارية .. وهكذا تتجلى روعة استراتيجية الامام في إدارته للمعركة ضد الحالة الاستعمارية بمعامليها المعامل الاستعماري ومعامل القابلية للاستعمار ليحقق في النهاية الاستقلال والنهضة.

وقد رافق هذه المرحلة أن دخل الحاج مصالي الى الجزائر بحزب الشعب الذي تكون مؤخرًا في باريس ونشط في هذا الجو المفعم بالحيوية والذي أنشأته نشاطات جمعية العلماء المسلمين وقد احتضنت الجمعية من خلال أحبابها وأنصارها الحاج مصالي ودعوته للانعتاق .. وكانت العلاقة بين حزب الشعب والجمعية علاقة حميمة في هذه المرحلة من تاريخ الجزائر.

أما ابن جلول فإنه استغل محنة الجمعية التي صنعتها أجهزة الأمن الفرنسية عندما اتهمت الجمعية بقتل مفتي الجزائر لتحطيم سمعتها بعد أن حققت جدارتها بقيادة الأمة .. استغل ابن جلول هذا فشن حربًا على الجمعية تواصلت تشهيرًا وطعنًا وحاولت الجمعية اصلاح الموقف معه لكنه تمادى فكتب الامام مقالًا مطولًا يشرح فيه قصة ابن جلول مع الجمعية وفي الوفد الذي شكله المؤتمر وأخيرًا خلص الى القول «لم تزد الجمعية ـــ من يوم أيست من رجوعه عن طعنته لها ـــ على أن أعلنت أمره للأمة وخلت الحكم عليه لها فحكمت بإسقاطه من رئاسة مؤتمرها وتلك عاقبة الظالمين» وبسقوطه سقط تيار الاندماج وتقدم التيار الأصولي الاستقلالي ..

ح) الحرب العالمية الثانية سنة 1940 :

كيف استقبل الجزائريون الحرب العالمية الثانية وماذا كانت عليه الحالة السياسية الجزائرية قبيل الحرب العالمية الثانية ؟!.

لقد أصبح واضحًا منذ المؤتمر الاسلامي الأوّل أنّ أوضاعًا سياسية أخذت في التبلور والتشكل لتفرض نفسها على سَاحة العمل السياسي وكما لاحظنا كيفية تصاعد لهجة الجمعية في مواجهة الادارة الاستعمارية فلقد كان في نفس الوقت تصعيد شديد ضد دعاة الدمج والفرنسة من الذين تعلموا في معاهد فرنسا العليا فجعلتهم دعاة متحمسين للمطالبة بالاندماج[110] .. ويعود الفضل للامام ابن باديس في صرف الجزائريين عن الاستجابة لهذه الدعوة الاستعمارية وإحباطها برمتها «حاربت جمعية العلماء سياسة الاندماج في جميع مظاهرها، فقاومت التجنيس ونازلت أنصاره الحمس، ودعاته المقاويل، حتى قهرتهم وأخرستهم، وقطعت عليهم الحبل فني أيديهم ثم أفتت فتواها الجريئة في يناير 1938 فيه، يوم كانت الجرأة في مثل هذه المسائل بابًا من العذاب، فكان ذلك منها تحديًا للاستعمار وإبطالًا لكيده، وتعطيلًا لسحره وأثبتت بتلك المواقف للجزائر اسلاميتها»[111] .. هذا في الحين الذي فتحت الجمعية المعركة ضد دعاة التفرقة بين «أبناء يعرب وأبناء مازيغ» مؤكدة على عميق توحدهم تحت راية اسلامهم الذي مزج ما بينهم في الشدة والرخاء، وكانت دعوتها هذه تحت شعار «ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان» .. ثم تلتفت الجمعية الى القوى السياسية والاجتماعية داعية لها الى الوحدة والتماسك واذا بها تخاطب الطرقيين الخصوم اللدودين «حاربنا الطرقية لما عرفنا فيها ـــ علم الله ـــ من

(110) د. تركي رابح، مصدر سابق، ص 268.
(111) الشيخ محمد البشير الابراهيمي (عيون البصائر)، ص 43.

بلاء على الأمة من الداخل ومن الخارج فعملنا على كشفها وهدمها مهما تحملنا في ذلك من صعاب وقد بلغنا غايتنا والحمد لله وقد عزمنا على أن نترك أمرها للأمة هي التي تتولى القضاء عليها ثم نمد يدنا لمن كان على نية من نسبته اليها لنعمل معًا في ميادين الحياة على شريطة واحدة وهي : ألا يكونوا آلة مسخرة في يد نواح اعتادت تسخيرهم فكل طرقي مستقل في نفسه عن التسخير فنحن نمد يدنا له للعمل في الصالح العام وله عقليته لا يسمع منا فيها كلمة، وكل طريقي أو غير طرقي يكون اذنا سماعة، وآلة مسخرة فلا هوادة بيننا وبينه حتى يتوب إلى الله»[112] بل ها هو يقول فيما هو أكثر جلاء وكقاعدة مبدأية في التعامل مع القوى الأخرى حتى المخاصمة : «أما موقف الجمعية مع خصومها، فانها تعلم أن الأمة اليوم تجتاز طورًا من أشق أطوارها وأخطرها، فهي تتناسى كل خصومة، وتعمل لجمع الكلمة وتوحيد الوجهة ولا تنبذ إلا أولئك الرؤوس، رؤوس الباطل والضلال الذين لا تجدهم الأمة في أيام محنتها الا بلاء عليها ولا يتحركون الا اذا حركوا لغايات عكس غايتها»[113] .. بل ها هو وفي نفس المقال يوسع الجبهة ويضيق على العدو الخناق فيقول : «نهضتنا نهضة بنيت على الدين أركانها، فكانت سلامًا على البشرية لا يخشاها — والله — النصراني لنصرانيته، ولا اليهودي ليهوديته، بلا ولا المجوسي لمجوسيته، ولكن يجب — والله — أن يخشاها الظالم لظلمه، والدجال لدجله والخائن لخيانته ..»[114] .. أجل لقد اتسعت الجبهة المقاومة وأخذت كل قوى المجتمع الحية في التعاضد والتساند ووجدت الأمة نفسها وبعد زمن طويل ممثلة في قيادة شريفة عالمة حكيمة تمثلها أشرف تمثيل .. وها هو الامام

(112) الامام ابن باديس الشهاب، عدد مارس 1938.
(113) و(114) الأستاذ محمد الميلي (ابن باديس وعروبة الجزائر)، ص 65.

يصف هذه الحالة : «.. أما اليوم فقد نفضت الأمة عن رأسها غبار الذل، وأخذت تنازل وتناضل وتدافع وتعارض وشعرت بوحدتها فأخذت تطرح تلك الفوارق الباطلة وتتحلى بحلل الأخوة الحقة وتنضوي أفواجًا أفواجًا تحت راية — الاسلام والعروبة — الجزائر»[115] .

وقد ضاقت الادارة الاستعمارية بهذه اللهجة الصريحة المعبرة عن مشاعر الأمة التي يأست من كل الوعود التي قدمت من قبل رئيس الوزارة «بلوم» ووزيره «فيوليت» حيث «ان رجال الوفد يعلمون أنهم رجعوا بأيديهم فارغة ولم يصدق لا الرئيس ولا الوزير» .. فشرعت الادارة في مضايقة الجمعية ومراقبة شعبها وافتعال المعرقلات أمامها .. وما كاد الاجتماع العام للجمعية ينعقد عام 1938 حتى كان عدد كبير من رجالها في السجون والمنافي .. وقد وصف الامام ذلك في خطاب افتتاحه للاجتماع المذكور بقوله : «أما بعد : فسلام عليكم يا أعضاء جمعية العلماء المسلمين أجمعين، وسلام على مساجينكم في المساجين، وسلام على مُتَّهَميكم في المتهمين، وسلام على منكوبيكم في المنكوبين !.. سجون واتهامات ونكبات .. ثلاث لا تبنى الحياة الا عليها ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقة الا على أسسها»[116] ثم استعرض المضايقات والمحاكمات التي تعرض لها الطيب العقبي والبشير الابراهيمي وعمر وردور، وعبد الحفيظ الجنان، وعبد العزيز الهاشمي، وعلي بن سعد، وعبد القادر الياجوري، وعبد الكامل .. ورجال التعليم في بجاية وباتنة .. ويواصل : «أيها الاخوان قد اعتدنا في كل اجتماع عام من اجتماعاتنا أن نرفع شكوانا واحتجاجنا الى الولاية العامة، والى الحكومة العليا، ولم يرد لنا جواب مرة واحدة، بل يكون

(115) الإمام ابن باديس «الشهاب»، مارس 1938.
(116) و(117) الأستاذ محمد الطيب العلوي، ص 173 — 174.

الجواب بزيادة الارهاق وتضييق الخناق .. أيها الاخوان : فنحن مع بقائنا على جميع ما قلنا وبيَّنا واستمرارنا في موقفنا كما كنا، لا نريد اليوم أن نرفع شكوانا، ولا أن نقدم احتجاجنا، وحسبنا في هذه السنة السكوت، وكفى بالسكوت احتجاجًا عند من عرف وانصف، وحسبنا الله ونعم الوكيل»(117) .. بهذه الحالة استقبلت الحرب.

جاءت الحرب العالمية الثانية فأدرك الامام أن شروط الثورة تقترب الى التكامل فعلى الصعيد الذاتي قد تحقق الوعي الاستقلالي بتمايز الشخصية الاسلامية الى درجة تؤهلها للصدام بالاستعمار صدامًا مسلحًا يحقق الاستقلال والنهضة .. وعلى الصعيد الموضوعي ها هو الغرب منهمك في حروبه ومعاركه المدمرة فأخذ الامام يتحين الفرصة(118) .. ومن بعض ما كان يقوله قبل ذلك : «هل يمكن لمن شرع في تشييد منزل أن يتركه بدون سقف، وما غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال» (119) وها هو يجيب إخوانه وهم على أبواب الحرب العالمية الثانية «إني سأعلن الثورة على فرنسا عندما تشهر عليها إيطاليا الحرب»(120) بل ها هو يقول «لو وافقني عشرة فقط من عقلاء الجزائر على الثورة سأعلنها». ويذكر الاستاذ محمد الميلي في كتابه القيم (ابن باديس) : أن الشيخ أحمد بوشمال رحمه الله لم يتردد عندما سقطت باريس أمام الهجمة النازية (وكان الامام ابن باديس قد توفي منذ بضعة أشهر) في أن يذهب الى قبره ويبشره بسقوط عاصمة الطغيان الاستعماري .. لذلك بمجرد اندلاع الحرب العالمية الثانية حاولت الادارة الإستعمارية انتزاع فتوى من جمعية العلماء التي أوقفت مجلاتها لألا تضطرها قوانين الحرب لما يخالف إرادتها .. ولم تحصل فرنسا الا على الرفض المطلق لأي فتوى من هذا القبيل .. ففي الشيخ البشير

(118) و(119) د. عمار الطالبي (ابن باديس حياته وآثاره)، ج 1، ص 89.
(120) الأستاذ محمد الميلي (ابن باديس وعروبة الجزائر)، ص 73.

الابراهيمي إلى (آفلو) بالقرب من تيهرت وفرضت الاقامة الجبرية على الامام وأوقفت عددًا من رجال الجمعية كما فرضت الاقامة الجبرية على بعضهم.

أما موقف حزب الشعب الجزائري فلقد كانت قيادته حين اندلعت الحرب العالمية الثانية في السجون .. وفي السجون حاولت الادارة الفرنسية مساومة زعماء الحزب وإغراءهم ولكن بدون جدوى !!.

أما موقف الحزب الشيوعي : فهو قد وقف في الجانب الفرنسي بمجرد إعلان الحرب !!.

أما موقف المنتخبين : فقد أعلن المنتخبون أو زعماؤهم الوقوف بجانب فرنسا في كل الظروف، وتطوعوا في الجيش الفرنسي إدعاء بأن الوقوف بجانب فرنسا في محنتها يسمح لها بمراجعة سياستها نحو الجزائر أو النظر الى مطالبهم بعين العطف والاتزان ويهده الروح وهذا الأمل وجّه فرحات عباس مذكرة الى الماريشال بيتان بعد سقوط فرنسا في أيدي الألمان يعرض عليه بعض المطالب ويرجوه الوفاء بالوعود الفرنسية السابقة(121).

إلا أن الأمور أخذت شكلًا آخر في التصعيد حيث غزا الحلفاء شمال افريقيا وانتزعوا الجزائر من حكومة فيشي النازية يوم 8 نوفمبر 1942. وأطلقوا سراح المعتقلين الجزائريين السياسيين .. فتحركوا للعمل وعزموا على استغلال الظروف فعقدوا اجتماعًا في منزل المحامي علي بومنجل بالعاصمة الجزائر في شهر ديسمبر 1947 وحرروا مشروع بيان صادق عليه معظم الزعماء الجزائريين وتألفت لجنة خاصة يوم 3 أبريل اجتمعت مرتين ووضعت ملحقًا للبيان رضي به البعض وتحفظ آخرون .. وأصبح واضحًا أن لزعماء الجزائريين حددوا أهدافهم وأصبحوا على درجة عالية من المسؤولية وبادرت إجراءات

(121) الأستاذ محمد الطيب العلوي، مرجع سابق، ص 193.

الجنرال كاترو حيث اعتقل الكثير من الزعماء الجزائريين الحالة إلا تمردًا واضطرابات عمت البلاد(122).

ورأى ديقول أن يعالج الموقف ويسكنه فأعلن عن عدد من الاجراءات وشكل لجنة أعدت مشروعًا اصلاحيًا وصدرته يوم 7 مارس 1944 وعلى إثر هذا المرسوم تأسست حركة (أحباب الحرية والبيان) يوم 14 مارس 1944 ولأوّل مرة يتم مثل هذه الجبهة المكونة من الجمعية وحزب الشعب ورجالات مستقلة كعباس فرحات الذي بدأ موقفه يتحسن ويتطور لصالح الخط الاستقلالي(123) .. وكان الدكتور سعدان أمينًا لهذه الحركة وقد اختار الدكتور سعدان الشاب المتفاني العربي بن مهيدي كاتبًا لديه لما يتحلى به من خلق وإيمان .. وكانت أوضح مطالب هذه الحركة (جمهورية جزائرية مستقلة ..» .. أدرك المستوطنون الأوربيون بالجزائر خطورة الوضع الجديد ومنذ بداية تحركه فلئن سكتوا عنه أثناء وجود قوات الحلفاء بالجزائر .. فإن موقفهم لا بدّ أن يأخذ شكله الصريح لا سيما وقد اتضح انهزام النازية .. فتوالت الاستفزازات وكثرت الاشاعات عن قرب حصول حوادث واضطرابات وأخذ عميد المعمرين المستوطنين وعامل قسنطينة كربونيل(124) في التحريض والاثارة.

د) مجزرة 8 مايو 1945 :

أحداث شهر مايو هي أهم الاحداث التي مهدت لثورة 1954 بشكل مباشر على الاطلاق .. وكان لها الدور الرئيس في قطع كل الخطوط على

(122) د. يحي بوعزيز «ثورات الجزائر»، ص 288.
(123) د. يحي بوعزيز «سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية»، ص 114 — 124.
(124) د. يحي بوعزيز «ثورات الجزائر»، ص 289.

لوسطيين .. وأقنعت الشارع الجزائري باليقين أن لا أمل على الاطلاق يرتجى من الادارة الاستعمارية وأنه لا عهد لها ولا موثق .. وبناء على هذه الأحداث تصدعت هياكل الاحزاب وأصابها الاعصار وتمردت القواعد على القيادات .. ومرت مرحلة من الفوضى والبلبلة قاسية .. ولم تنته هذه المرحلة إلا مع فاتح نوفمبر 1954 مع جبهة التحرير الوطني الجزائري والمواجهة المسلحة ضد العدو المسلح.

دعت حركة «أحباب الحرية والبيان» أو أغلب أجنحتها الاتباع والمؤيدين والشعب للقيام بمظاهرات في الثامن مايو بمناسبة انتصار الحلفاء على النازية الألمانية(125) .. اندلعت المظاهرات الصاخبة في سطيف وقالمة وغيرها من مدن الشرق الجزائري وكانت الشعارات «تحيا الجزائر» «يسقط الاستعمار» فركبت الادارة الاستعمارية رأسها كالعادة وضاعفت الاهاب والتقتيل وجندت فرق «اللفيف الاجنبي» بقيادة الجنرال «دوفال» والكولونيل «تومبا» ليوجهوا الضربات للسكان العزل ويدمروا القرى والمداشر ويبيدوا أهلها دون تمييز.

ولم تكتف السلطات الاستعمارية بما ارتكبته فاستقدمت من الألزاس واللورين اللواء السابع ليشارك في هذا التدمير وأمر الوزير «الشيوعي» (تيتون) سلاح الطيران الفرنسي بقصف مدن وقرى قالمة وعنابة وخراطة وسطيف ووادي المرسى وغيرها .. وتم تدمير ما يقارب 45 قرية بواسطة سلاح الطيران والبحرية وحولوا البلاد كلها الى كتلة من اللهب والنار والى حمامات من الدم وبلغ مجموع القتلى في هذا اليوم وحده حوالي 45 ألف من الأبرياء المسلمين العزل بالاضافة الى عشرات الآلاف من الجرحى والمعوقين الذين أعدموا بعد ذلك ورميت جثثهم فوق المقابر دون دفن(126) واقتادت

(125) راجع كتاب للسيد رضوان عناد تابت (8 ماي 1945).
(126) محمد الطيب العلوي، مصدر سابق، ص 218.

السلطات الاستعمارية عشرات الآلاف الى السجون والمحتشدات وأعدمت العشرت على طريق المحاكم[127] ويورد (شارل أندريه جوليان) — المؤرخ الصليبي — في كتابه (افريقيا الشمالية تسير) نقلاً عن أحد الضباط الفرنسيين «ففي الريف كان الجنود الفرنسيون واللفيف الأوربي ينهبون ويحرقون ويغتصبون النساء ..» «وصرعوا رميًا بالرصاص وبدون محاكمة عشرات من الاهالي أخذوهم على غرة وشاركت في القمع عناصر من أقصى اليسار ومن الفاشية على حدٍ سواء»[128].

«في الطرقات .. في الدروب .. في الحقول .. في الشعاب .. في الأودية، ليس هناك الا جثث مبقورة أمعنت فيها الافواه المدماة للكلاب الجائعة تحت التجمع المحزن للنسور التي كونت دائرة .. هنا وهناك قرى بكاملها سحقت، مباديء الانسانية انهارت تحت الرصاص القاتل من طرف المتمدنين .. آكام وأكداس من الموتى»[129].

وهو كما وصفه الامام البشير الابراهيمي في ذكراه الأليمة «يا يوم .. لك في نفوسنا السمة التي لا تمحى، والذكرى التي لا تنسى، فكن من أي سنة شئت، فأنت يوم 8 مايو وكفى، وكل ما لك علينا من دين أن نحيي ذكراك، وكل ما علينا من واجب أن ندون تاريخك في الظروس، لئلا يمسحه النسيان من النفوس»[130].

ولقد حلت السلطات الاستعمارية على أثر هذه المجزرة كل الأحزاب والتكتلات السياسية الجزائرية واعتقلت زعماءها وملأت بقياداتها وكوادرها

(127) محمد الطيب العلوي، ص 220.
(128) نفس المصدر، ص 221، نقلا عن أندريه جوليان.
(129) الأستاذ محفوظ قداس، (ثلاثون سنة على 8 ماي 1945)، ص 30، عن صحفي أجنبي.
(130) محمد الطيب العلوي، مرجع سابق، ص 223.

السجون .. ولقد كان (فرحات عباس) في هذا اليوم في قاعة الانتظار في الولاية العامة بالجزائر العاصمة — ليس له علم بما يحصل — ينتظر الاذن بمقابلة الوالي العام «شاطينيو» لتقديم التهاني له بالنصر على النازية فاعتقل هناك هو والوفد الذي معه[131] .. في حين وزع الحزب الشيوعي بيانات بالمناسبة يدين فيها هذه المظاهرات ويعتبرها حركة لصوص[132].

لقد أبانت مجزرة 8 مايو عن طبيعة الغرب كما أنها كشفت عن دفين موقفه من أمتنا .. ولم يعد بعد هذه المجزرة إمكانية للوسطيين أن يتقدموا الصفوف وما كان عليهم الا الانزواء فيما تتقدم طلائع الشعب من بين الانقاض والجثث والاشلاء الممزعة نحو أخطر قرار عرفته الجزائر في القرن العشرين — قرار الثورة — بعد أن انتهت الى خيارات حاسمة في بناء الموقف إزاء المستعمر.

وهكذا فيمكن النظر الى هذه المجزرة على اعتبار أنها نقطة التحول الاستراتيجية الكبرى في معركة الاسلام والصليبية في الجزائر .. جاءت لتلغي أساليب من العمل وترشح أساليب أخرى من النضال وتجمع الرأي الشعبي على موقف واضح محدد ألا وهو نيل الكرامة والحرية.

كيف ستتفاعل الأحزاب مع هذا الحدث الهام ؟! ما هو أثر هذا الحدث على البناء الفكري والهيكلي وعلى الخطاب السياسي لكل من الأحزاب ؟! ستكون الاجابة على هذا السؤال هي فاتحة الجزء الثاني بعون الله.

تم الجزء الأول بحمد الله

(131) محمد الطيب العلوي، مرجع سابق، ص 184.
(132) د. العربي الزبيدي «الثورة الجزائرية في عامها الأول»، ص 70.

الفهـرست

الحركة التاريخية في الجزائر
من سنة 1830 إلى سنة 1962

الصفحة

بين يدي (معركة الاسلام والصليبية في الجزائر .....
الإهداء ....
نشيد ....
مقدمة ....
مدخل ....
الفصل الأول .....
الباب الأول ـــ علاقات الجزائر الدولية قبيل الحملة الفرنسية ...
الباب الثاني ـــ الوضع الجزائري الذاتي قبيل الحملة الفرنسية ..
الباب الثالث ـــ التحريض والتعبئة للحملة الفرنسية .....
الفصل الثاني .....
الباب الأول ـــ حصار سنة 1827 : ظروفه وسير أحداثه .....
الباب الثاني ـــ الهجوم الفرنسي .....

الفصل الثالث .....
الباب الأول ــ مقاومة الغرب الجزائري :
الأمير عبد القادر الحسني .....
الباب الثاني ــ مقاومة الشرق الجزائري : الحاج أحمد باي ....

الفصل الرابع .....
الباب الأول ــ الانتفاضات والثورات حتى نهاية الحرب العالمية الأولى .....
أهمها ست عشرة ثورة بقيادة شيوخ الطرق الصوفية
الباب الثاني ــ طبيعة الهجمة الفرنسية من خلال الاحداث ...

الفصل الخامس .....
الباب الأول ــ الوضع السياسي .....
الباب الثاني ــ الوضع الديني والثقافي .....
الباب الثالث ــ الوضع الاجتماعي .....

الفصل السادس : نهوض الذات الحضارية .....
الباب الأول ــ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والإمام ابن باديس .....
الباب الثاني ــ حزب الشعب الجزائري .....
الباب الثالث ــ أحداث هامة في تاريخ الجزائر .....